بيت خالتي

مكتبة ٦٢٤

أحمد خيري العمري



مكتبة | 624

بيت خالتي



الكتـــاب: بيت خالتي

المـــؤلـــف: أحمد خيري العمري

التدقيق اللغوي: نرمين عياد

تنسيق داخلي: سمر محمد

الطبعة الأولى: سبتمبر 2020

رقم الإيـداع: 2020/13316

I . S . B . N: 978-977-992-113-6

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

عصير الكتب للنشر والتوزيع

مكتبة | 624

بيت خالتي

أحمد خيري العمري



إهداء

إلى الذين لا نعرف أسماءهم



-١-

كانت خطتي لقضاء يوم إجازتي الأسبوعية بسيطة جدًّا. أنام أكثر قليلًا من بقية الأيام، ثُم أقضيه في دراسة متراكمة عليَّ إنجازها. لكن هاتفًا مُبكرًا من أمي أيقظني، وغير كل شيء.

بعد سلامٍ مقتضب دخلت على غير عادتها في الموضوع مباشرة:

- ابن خالتك لم يرد على أي اتصال منذ ثلاثة أيام.. وخالتك على وشك أنْ تَجن.

لا أصدق أنَّ هذا لا يزال يحدث لي. منذ أيام المدرسة وخالتي تكلفني بالتجسس على ابنها. كان هو المراهق المتعب وكنت أنا المطيع الذي يسمع الكلام، وكان عليَّ أنْ أنقل لها كل أخباره. هل يدخن. هل يهرب من المدرسة. هل يعرف بنات. مع مَن يختلط في المدرسة. كل ما ترغب كل أم بمعرفته كنت أنقله لها لكي أنال رضاها ورضا الأسرة. ساهم ذلك في تدمير عَلاقتي بابنها لاحقًا.

- أمي، إذا كان أنس لا يرد على مكالمات أمه، هل سيرد على اتصالي أنا؟

لم أتصل به منذ فترة، لذا، لم أكُن أعرف الجواب على هذا السؤال.

- هل جربتم الاتصال بأصدقائه في برلين؟

- حاولت خالتك مع إيهاب، والآخر الحلبي من بيت زينو، الأول قال إنَّ أنس لم يرد على اتصاله منذ أشهر، والثاني الشيء ذاته، لكنه ترك برلين.

بدا لي هذا غريبًا. أنس يقاطع إيهاب الأزعط وسامر زينو؟ كانا صديقيه المقربين هنا في ألمانيا.

- هل تعرف رقم صديقٍ آخر غير هذين؟

- لا، لا أعرف أصدقاءه جيدًا.

- لو كنت تعرف أحدًا في برلين (تمون)[1] عليه، يمكن يذهب إلى أنس ويطمئن عليه؟

ثُم سكتت كما لو كانت تمهد للجملة التالية:

- ... أو تخطف رجلك وتذهب إليه بنفسك، ما دام اليوم إجازة.

أخطف رجلي؟!

الآن أدرك سر هذا الاتصال المُبكر. أمي تخطط للأمر، لو أنَّها اتصلت لاحقًا لكان يمكن أنْ أقول لها إنَّ الوقت ضيق على الذهاب إلى برلين.

- أمي، أنا في دريسدن وأنس في برلين، بيننا ٢٠٠ كيلومترٍ، هل تقولين لأحد أنْ يخطف رجله من الشام[2] إلى حمص؟

- الأمور أسهل عندكم، قطار واحد إلى برلين وتكون عنده وتُطمْئِن خالتك المسكينة، اعتبر نفسك (طالع سيران)[3].

سيران؟ كانت تمطر منذ ثلاثة أيام دون انقطاع. فكرتي عن السيران في يوم عطلة في جو كهذا كانت أبعد ما يمكن عن الذهاب إلى برلين للبحث عن أنس. بكل الأحوال، كنت سأفضل البقاء في البيت حتى لو كان الجو جو سيران فعلًا.

---

(١) تمون: تطلب منه طلبًا ثقيلاً دون أنْ تحرج.

(٢) بالنسبة للدمشقيين، والسوريين عمومًا، عندما يقولون الشام فهم يقصدون دمشق، بينما يُفهَم من الكلمة «بلاد الشام» في بقية الأقطار العربية.

(٣) السيران: النزهة.

خفضت أمي صوتها وهي تقول:

- خالتك سلمى رأت منامًا مزعجًا عن أنس، وهي قلقة جدًّا عليه.

لا يمكنني أنْ أشرح لأمي الآن إنَّ قلق خالتي على أنس هو الذي تسبب بالحلم المزعج، وليس العكس.

-أمي، أحتاج أنْ أنام، وأنْ أدرس، وهناك الكثير مما عليَّ عمله في البيت.

قلت ذلك وأنا أنظر لكوم الملابس أمامي على الأرض. حمدًا لله على أنَّها لم تتصل عبر السكايب، لو أنَّها رأت الملابس على الأرض لفتحت سيرة الزواج على الفور.

- برضاي عليك حبيبي.

لا أعتقد أنَّ هناك أُمًّا أخرى غير الأم الشامية تستخدم هذا القسم لتجعل أبناءها يفعلون ما تريد. التلويح بسيف الرضا وسحبه في حالة عدم الإذعان يبني عقدة «ذنب» جاهزة ومركونة على الرف ويمكن استخدامها في أي لحظة.

خلال دقائق كنت أحجز تذكرة قطار إلى برلين، الحافلات أرخص سعرًا، لكن القطار مريح أكثر، لعلي أستطيع أنْ أدرس خلال «السيران» المزعوم.

كان لا يزال لدي ثلاث ساعاتٍ قبل موعده، لكني لم أستطع العودة إلى النوم.

لو أنَّك ترد يا أنس على اتصال أمك الآن، فينتهي الأمر.. وأقضي أنا يوم الأحد في البيت.

* * * *

عَلاقتي بأنس كانت معقدة إلى حدٍ بعيد.

طيلة سنوات لم تكُن عَلاقتنا قوية كما يفترض أنْ تكون بين ابنَيّ خالة في سن واحد. أحيانًا كانت سيئة للغاية، تذبذبت صعودًا ونزولًا عدة مرات إلى أنْ استقرت في السنوات الأخيرة -منذ مجيئي إلى ألمانيا- لتكون معقولة ومنطقية، لم نصبح صديقين حميمين... لكننا أصبحنا «قريبيّ دم» دون العداء الذي حدث لفترة ما.

منذ أنْ كُنا صغارًا، كان هناك تنافس الأقران الطبيعي الذي يحدث بين أبناء الخالة عندما يكونون متقاربين في العمر، وأعي الآن أني أدركت منذ طفولتي تميُّز أنس عليَّ بأمور كانت لها أهمية عند كل أقاربي من طرف أمي.. جدتي وخالاتي وخالي. كان أنس أبيض البشرة أشقر الشعر أزرق العينين، جاء بعد انتظار تخلله إنجاب ثلاث بناتٍ، يتحدث بثقة ويطلق النكات ويقص الحكايات أمام كل أفراد العائلة في تجمعات العيد والمناسبات، وكنت الصبي الثاني الذي لا ينتظره أحد... كل ما فيَّ أسمر اللون بدرجات مختلفة. أكرت الشعر ضئيل الحجم خجول لا يكاد يُسمَع صوتي لو تحدثت. المقارنة كانت صامتة لكنها كانت واضحة في عيون الجميع، لم يكُن لدي مجال للمنافسة أصلًا. شعرت دومًا أني قد دخلت في المقارنة الخاطئة بطريقة ما، ولم أفهم مشاعري هذه إلا لاحقًا بعد أنْ كبرت قليلًا وفهمت ما لم أكُن أعيه في طفولتي.

في الابتدائية كُنا في الصف نفسه، وكان هذا يسبب لي المزيد من الحرج عندما تنتبه واحدة من «الآنسات»[1] إلى القرابة بيني وبينه ثُم أقرأ على

(١) الآنسات في هذا السياق هن المعلمات أو المدرسات، هكذا ينادين في سوريا عمومًا، بينما المعنى في أغلب البلدان العربية يشير إلى غير المتزوجة.

وجهها علامات التعجب والاستغراب، وأحيانًا كنت أتخيَّل وجود ابتسامة ساخرة أيضًا، كما لو أنَّها فطنت «السر» في الاختلاف.

حرصت أنْ أكون متفوقًا في الدراسة لعلي أعوض عن تميُّز أنس، لكن أنس كان متفوقًا أيضًا، أحيانًا يسبقني بعلامة أو اثنتين، وأحيانًا أسبقه أنا. كُنا متساويين دراسيًّا تقريبًا. لم يكُن هناك ما يضيف تميُّزًا لي.

عندما قررت خالتي نقل أنس إلى مدرسة «دوحة المجد» الخاصة، فرحت لأني سأتخلص من شبح المقارنة ولو في المدرسة فقط، وعندما حاولت أمي نقلي أنا أيضًا توسلت بها أنْ لا تفعل. لم تفهم أمي سبب إصراري على البقاء في مدرسة «عبد الفتاح قطيط» الحكومية، لكنها رضخت لي على كل حال.

في المرحلة الإعدادية، دخلنا إلى إعدادية «الثقفي»، ودخلنا في الوقت ذاته مرحلة المراهقة، وهي الفترة التي أصبحت فيها جاسوسًا لخالتي. لم أعد الفتى ضئيل الحجم نفسه الذي كنته، بل صرت طويلًا فجأة، لكن سمرتي بقيت على حالها، وزاد حجم أنفي على نحو غير متناسق مع كل الزيادات الأخرى في جسمي. في الوقت ذاته، بقيَ أنف أنس متناسقًا، وبقيت شقرته وبياض بشرته وعيناه الزرقاوان، وزاد على ذلك كله بطولات في السباحة والكاراتيه وحتى في دورات حفظ القرآن، ثُم -كما لو أنَّ ثقته كانت تحتاج إلى زيادة- دخل في دورات البرمجة اللغوية العصبية في مركز «آفاق بلا حدود» في «العفيف»[1]، وهي الدورات التي جعلت من ثقته بلا حدود حرفيًّا، كان يبدو «إيجابيًّا» و«كل شيء تحت السيطرة» عنده على نحو مستفز.. الدورات نفسها جعلتني أتخبط وأزداد شكوكًا

(١) العفيف: منطقة معروفة في دمشق، جنوب حي الصالحية على سفح جبل قاسيون.

ﾻ إمكانياتي وذاتي، وزاد الأمر أكثر وأكثر بأنَّ فَرْط وسامة أنس وثقته بنفسه منحتاه فرصًا ﾻ الحديث مع الفتيات وجذبهن، بينما كنت أنا ممثلًا شخصيًّا للفشل ﾻ هذه الأمور.

باختصار كانت مراهقتي جحيمًا بسبب مقارنتي المستمرة لنفسي مع أنس، ملأتني بشكوكٍ وعُقد ومشاعر نقص، وربما ساهمت ﾻ تحديد مساري المهني فيما بعد.

أفهم الآن عن نفسي أكثر بكثير مما كان يفهم المراهق الذي كنت. أدرك أنَّ دور الجاسوس الذي لعبته لصالح خالتي لم يكُن نتيجة كوني (مرضي وما شاء الله حولي) كما كانت تقول هي، بل كنت أحاول أنْ أنتقم منه بطريقة ما، ربما لم أكُن أكذب فيما أنقله من معلومات، لكن كانت طريقتي ﾻ نقل المعلومات مغرضة، وأدى الأمر كله إلى جعل عَلاقتي بأنس أسوأ وأسوأ، خاصة عندما شك ﾻ أني «العوايني» الذي يسرب أخباره إلى أمه. أعدَّ لي أنس يومها فخًّا وقعت فيه بغباء منقطع النظير. تحدث أمامي عن فتاة يكلمها على «الهوتميل ماسنجر» اسمها «سيدرا»، وبيتهم ﾻ «العدوي»[1]. نقلت المعلومة إلى خالتي بفرح شديد. اتضح أنَّه لا يوجد سيدرا من الأساس، وأنَّه قال ذلك فقط ليتأكد من كوني الجاسوس عندما تحدثه خالتي بثقة عن «سيدرا»، من يومها وهو يقول عني إني «عوايني»، بل أنَّ الأمر سار ﾻ المدرسة وبين الأصدقاء، وكان من سوء حظي أنَّ الأمر كله تزامن مع مسلسل باب الحارة، لذا أصبح الكل يناديني بـ«سطيف»[2]، وبقيَ الاسم معي حتى الجامعة، حتى

---

(١) العدوي: حي دمشقي راقٍ.

(٢) سطيف: شخصية من شخصيات مسلسل باب الحارة، وسطيف عادة مُحرف من اسم مصطفى، والدور كان لعوايني يعمل لصالح الفرنسيين.

أنَّ البعض كان يسألني إنْ كنت أفضّل اسم سطيف على اسمي الأصلي، يزن.

انتهى الأمر بانتصاري على أنس. ٢٣٨ علامة من أصل ٢٤٠ في البكالوريا[1]. كلية الطب جامعة دمشق. أما أنس فقد كان مجموعه ٢٢٨ وقبل في الهندسة المدنية التي لم يكُن يرغب بها، أعاد أنس البكالوريا في السنة التالية ورفع مجموع علاماته إلى ٢٣٢، ودخل كلية طب الأسنان. انتهى الأمر. انتصرت أنا. أو هكذا تخيَّلت. رغم ذلك بقيَ أنس مستفزًا. كانت شعبيته بين طلاب الطب وطالباته مزعجة جدًّا، الكثير من الفتيات في دُفعتي كُن يعرفنَنِي بأني «ابن خالة أنس»، بدلًا من أنْ يكون هو، الطالب في كلية أخرى، ابن خالتي أنا، زميلهن.

بعد عامين من دخول أنس الكلية، بدأت الأحداث، وشارك فيها أنس باندفاع.. وسارت الأمور بحيث انقطع عن الدراسة، ثُم ترك البلد، ولم يرجع لدراسة طب الأسنان قط.

بيني وبين نفسي، وجدت أنَّ هذا كان تأكيدًا نهائيًّا لانتصاري على أنس.

لم أَبُح بمشاعري هذه لأحد، رغم أنَّ عَلاقتنا كانت قد وصلت في تلك الفترة إلى أسوأ مراحلها، لكني خفت من مشاعري هذه، خفت أنْ تدور الدنيا. كانت أمي تقول دومًا: «مَن عاب ابتلى»، جزء صغير مني كان مُشفقًا على أنس وما حدث له. وجزء آخر كان يقول: هو الذي أوصل نفسه إلى هذا.

كنت أقمع هذا الجزء كيلا أسمعه يقول: يستاهل!

* * * *

(١) البكالوريا: الثانوية العامة في سوريا وبعض الدول العربية تسمى بكالوريا.

اتصلت بأنس قبل أنْ أغادر شقتي على أمل أنْ يرد وينتهي الأمر. لم يفعل. لم يكُن قد ترك خاصية «آخر ظهور» فعّالة على الواتس آب، لذا لم يكُن معرفة متى استخدم التطبيق آخر مرة ممكنًا. كم يبدو ذلك متوافقًا مع أنانيته. فقط الأشخاص الأنانيون لا يفعّلون هذه الخاصية. أو ربما الذين لديهم ما يخفونه. أنس كان غالبًا من النوعين. قلت لنفسي إنَّ انزعاجي من السيران يجعلني أظلم أنس، إذ كان بعيدًا تمامًا عن الأنانية.. لكن عادة أولئك الذين يخفون «آخر ظهور» لا يفكرون بقلق مَن حولهم عليهم.

بحثت عن رقمي إيهاب الأزعط، وسامر زينو، تعرفت إليهما عندما سكنت معه.. الأول لم يرد، والثاني قال ما قاله لخالتي، إنَّ أنس انقطع عن الجميع منذ أشهر، وإنَّه أصلًا ترك برلين، وأكد لي أنَّ كل شيء بخير حتمًا «لأنهم تعودوا على هذا من أنس».

غريب جدًّا بالنسبة لشخص مثل أنس. اجتماعي جدًّا وله أصدقاء في كل مكان يذهب إليه.

لم تنسَ أمي أنْ ترسل إليَّ رسالة تذكرني فيها أنْ أتناول إفطاري وألبس جيدًا قبل السفر إلى برلين وأنْ أطمئنها فور وصولي. كففت عن التذمر من ذلك من مدة. فقط يهمني أنْ لا تقول ذلك أمام أي شخص آخر. أخذت معي كتابًا في الطب النفسي (من تأليف تول ووندكازن) على أمل أنْ أستطيع أنْ أقرأ في القطار للتقليل قدر الإمكان من خسائري في «السيران المجقجق»[1] إلى برلين من أجل أنْ يرد الباشا على اتصالات أمه. كان القطار شبه فارغ مقارنة بالأيام الاعتيادية، مَن سيسافر إلى

---

(١) المجقجق: النكد.

برلين في هذا الجو في يوم عطلة؟ أراهن أنَّ حركة القطارات في ألمانيا لم تشهد في تاريخها مسافرًا يذهب من مدينة إلى أخرى لكي يطلب من شخص ما أنْ يرد على اتصالات أمه، اللهم إلا إذا كان سوريًّا أيضًا. هنا يصبح الأمر محتملًا جدًّا.

كانت تفاصيل مجزرة صلاة الجمعة في كرايستشرش في نيوزيلندا التي حدثت أول أمس لا تزال تسيطر على مواقع التواصل. في القطار تابعت تفاصيلَ جديدة ولم أستغرب أنْ أجد سوريًّا وابنه المراهق بين أسماء وجنسيات الضحايا. هذا هو قَدَر السوري. يفر من موت إلى آخر. ثُم انتبهت إلى أنَّ هذا ليس قَدَر السوريين وحدهم، كان هناك عدد أكبر من الباكستانيين والمصريين والفلسطينيين. وجدت نفسي أتعامل مع اسم عائلة القتيل السوري «الحاج مصطفى» كما تتعامل أمي مع أسماء «العيل»[1] بالتفصيل والتحليل. لكن دون قدراتها بالتأكيد. لست متأكدًا. أعرف من عائلة «الحاج مصطفى» طبيبًا معروفًا من حلب. وكذلك أعرف أنَّ الاسم لعائلة من أصل شركسي من مهجري الجولان. عمومًا كل الناس خير وبركة. كما ستقول أمي أيضًا بعد أنْ تتأكد من نسب العائلة. الله يرحمه بكل الأحوال. استغرقت في تفاصيل المجزرة ونسيت كل شيء عن الكتاب الذي أحضرته معي وعن سبب ركوبي في القطار إلى أنْ وصلت إلى برلين قرابة الثانية ظهرًا، نصف ساعة أخرى بالباص إلى «نويكولن» حيث يقيم أنس وحيث تشكل نسبة المهاجرين هي الأعلى بالنسبة لكل برلين، عرب أتراك، أكراد، العرق الجرماني لا وجود له تقريبًا في هذا الجزء من برلين، رغم أنَّ المهاجرين الأقدم نسبيًّا يعتبرون أنفسهم عرقًا جرمانيًّا خالصًا بمواجهة اللاجئين والمهاجرين الجُدد، وعنصريتهم لا تقل عن

---

(١) العيل: الأُسرَ أو العوائل.

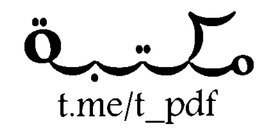
عنصرية النازيين الجُدد، بفارق أنَّك لا تستطيع أنْ تتفهم هذه العنصرية، على العكس من عنصرية النازيين، التي ستقول لنفسك أحيانًا إنَّك لو كنت مكانهم لصرت مثلهم.. ألمانيا كانت فوق الجميع ثُم صارت ألمانيا للجميع.. لا يمكن أنْ يمر هذا دون ردود فعل عنصرية. ربما كُنا سنفعل مثلهم وأكثر لو كُنا مكانهم. بل غالبًا سنفعل.

كنت أعرف المبنى الذي يقطن فيه أنس جيدًا، أقمت فيه معه عندما وصلت إلى ألمانيا قرابة شهرين، وكانت تلك أفضل مرحلة في عَلاقتنا، أصرّ أنس على أنْ أسكن معه وقرر على ما يبدو أنْ يتجنب الحديث عن خلافاتنا السياسية ومواقفنا المتباينة، ربما لأنَّه اعتبرني ضيفًا لا يجب إزعاجه أو لأنَّه يئس مني أو من جدوى الحديث معي. في البداية، اعتقدت أنَّ أنس يفعل ذلك إرضاء لأمه التي أخبرته ولا بد بوصولي وبضرورة أنْ يفتح بيته لي، لكن أنس طيلة المدة كان متعاونًا وودودًا أكثر من المتوقع.. ارتحت أنا لسكني معه مع استثناء أمرين.. سجائره التي لا تفارقه ورائحتها التي لا تفارق المكان، وهوسه في النظافة والترتيب الذي لم أكُن أعرف أنَّه وصل إلى هذا الحد مع الوقت. آنذاك، اعتبرت أنَّه يعاني «اضطراب الوسواس القهري»، وقلت له أكثر من مرة إنَّه «يعاني» الـocd[1]، وكان يرد عليَّ ضاحكًا: «ربما، ولكن هل تراني أعاني»؟ فهمت لاحقًا دقة ملاحظته. أصحاب هذا الاضطراب يعانون فعلًا، أما أنس فهو مستمتع بهذا الهوس. فهمت لاحقًا أنَّ هذا يسمى «اضطراب الشخصية الوسواسية» والتي تختلف عن «الوسواس القهري» بأنَّ الشخص صاحب الاضطراب يسعى للكمال في أدق التفاصيل، ولكن لا تطارده وتتسلط عليه «وساوس قهرية» كما مع الـ ocd. كل شيء يجب أنْ يبقى في مكانه كما

(١) Obsessive compulsive disorder: اضطراب الوسواس القهري.

وضعه وإلا فالعالم حوله سينهار. غالبًا كان هذا «الوسواس» جزءًا من حبه للسيطرة والتحكم بكل شيء. لا يستطيع النوم إنْ لم يكُن قد رتب المكان ونظفه حتى لو لم يكُن متسخًا بالأساس. مشهد معجون الأسنان مفتوحًا كان يحفر في أعصابه «حرفيًّا»، كذلك استعمالي لمعجون الأسنان بالضغط من المنتصف وليس من النهاية، والحديث هنا عن (معجون الأسنان) الخاص بي وليس به. ناهيك عن «المجلى» و«الصحون» ووجود أي ذرة غبار في أي مكان في البيت. الملابس النظيفة المُعلقة في الدولاب كان يعيد غسلها وكيها إذا مرَّ عليها شهر أو أكثر في الدولاب. شككت دومًا أنَّه كان يعيد تنظيف الشقة بعد أنْ أنظفها أنا، ومن المؤكد أنه كان يفعل ذلك مع الصحون والأطباق. حتى سريري، كان يعيد ترتيبه، لأنَّه كان يطوي الغطاء والشراشف بطريقة معينة، كما في الفنادق. كان سيصبح طبيبَ أسنان ناجحًا جدًّا، مع هذا الهوس.. لكنه كان قد طوى هذه الصفحة من حياته وبدأ دراسة الإخراج في معهد (متفيلم) في برلين مشددًا عليَّ أنْ لا أُسرِّب الخبر لأمه «التي ستمصع[1] رقبته» لو عرفت أنَّ ابنها «سيصبح مُخرجًا». التزمت بالأمر كي أحاول أنْ أزيل عني نظرة العوايني. ثُم عرفت أنَّه أخبرها بنفسه.

عمليًّا كُنا (شريكي سكن) أكثر من ابني خالة سكنا مع بعضهما، أنا كنت أعد لامتحان اللغة الألمانية للأطباء (Fachsprachprüfung فاخشبروخبروفنغ) -مجرد نطق اسم الامتحان يجب أنْ يضمن علامة نجاح- وهو كان يدرس وفي الوقت نفسه يعمل على جمع معلومات ووثائق تخص «المُعتقلين» أو هذا ما فهمته. تعرفت على جوانب لم أعرف بوجودها



(١) تمصع: تقطع.

عند أنس في هذه الفترة؛ إذ حدث أني أصبت بنزلة برد شديدة، وكان أنس يرعاني بلطف وحنان لم ألمسهما فيه من قبل.

دخلت المبنى الذي أعتقد أنَّه نجا بأعجوبة من الحرب العالمية الثانية، كانت شقة أنس في الطابق الثاني، كل شيء كما كان، لكنَّ هناك سُكانًا جُددًا في الطابق الأول لديهم على ما يبدو عدد كبير من الأطفال، روائح الطعام من المبنى تشير إلى أنَّ ألمانيا أصبحت مطعمًا كبيرًا يضم كل مطابخ العالم.

طرقت الباب على أمل أنْ ينتهي كل شيء بأنْ يفتح الباب ويقول إنَّه أضاع هاتفه أو إنَّه سُرِقَ أو أي شيء من هذا القبيل. لم يحدث. أرهفت السمع. من خلال الباب كنت أسمع صوت أصالة. مَن سواها؟ الباشا مهووس بها. 24 ساعة سبعة أيام في الأسبوع صوت أصالة في الشقة. كان يحب صوتها منذ البداية، لكن تأييدها للثورة جعل ذلك الحب يذهب إلى أبعادٍ أعمق. صارت بالنسبة له أيقونة شامية. عَلاقته بها كان فيها نوع من «الوجد الصوفي»، يمكنه أنْ يذوب تمامًا وهو يُحلق معها -كما يقول- في جواباتها وقراراتها. يمكنه أنْ يتحدث عن صوتها ومساحاته وأوكتافاتها إلى أنْ يمل الجميع حتى لو كانوا من محبيها. حتى الطبقات العالية في صوتها التي ينزعج منها البعض، كان أنس يقول إنَّها تحديدًا توصله إلى الذروة.. بل أنَّ أنس كان أحيانًا يقسم «وحياة صوت أصالة»، «ورحمة أبو أصالة» -كما تفعل هي في لقاءاتها- في ظاهر الأمر وهو يمزح، لكنني واثق أنَّه لا يكذب عندما يفعل ذلك.

ما دامت أصالة تغني في الداخل فأنس موجود. ربما كان نائمًا. لكن مَن ينام وصوتها يصدح؟ ربما نزل لشراء شيء. دققت على هاتفه. أرهفت

السمع مجددًا. هاتفه يرن في الداخل. لم يغير نغمته. أغنية «أكثر» لأصالة أيضًا. لم يُضِع الهاتف إذَن! هل هناك مَن يخرج دون هاتفه؟ نعم. ربما.

فكرت أنْ أسأل الجيران. طرقت الباب على الشقة المجاورة. يبدو أنَّ السيدة التركية نظرت لي من العين السحرية وقالت شيئًا بالتركية بصوت مرتفع. رددت عليها بالألمانية لأسألها عن أنس، فردت عليَّ بالتركية بشيء لم أفهمه لكن طريقتها كانت توحي أنَّها كانت تشتمنا نحن الاثنين، وربما كل العرب أيضًا. يئستُ منها وشتمت في سري «أنزعة»[1] الأتراك وأتاتورك وأردوغان أيضًا، ثُم فكرت أنْ أضيّع وقتي في انتظار أنس بالذهاب إلى مطعم الشاورما القريب في شارع «كارل ماركس». في حياتي ما تصورت أنْ يجتمع كارل ماركس مع الشاورما في جملة واحدة. ولكن السوريين في ألمانيا حققوا الأمر. شاورما وفلافل أيضًا. كانت هناك مطاعم شاورما سورية أيضًا في دريسدن، لكن هذا كان أفضل. نخب أول بلا منازع.

عدت بعد أقل من نصف ساعة. طرقت الباب مرة أخرى. لا رد مجددًا. أرهفت السمع. أصالة لا تزال تغني. ثُم انتبهت.. إنَّها الأغنية ذاتها. ركزت أكثر.. هذه شارة مسلسل نزار قباني. أغنية «الدمشقي». انتظرت أنْ تنتهي الأغنية لكي أفهم ما الذي يحدث بالضبط. انتهت، وبدأت فورًا من جديد. أنس تركها على الإعادة. شيء ما في هذا كله أثار قلقي. الهاتف في الداخل. وأصالة على الإعادة. وأنس لم يرد على الهاتف منذ ثلاثة أيام. أعدت طرق الباب مجددًا، هذه المرة فتحت السيدة التركية بابها وأغلقته بشدة كما لو أنَّها تعبر عن انزعاجها مني. فكرت أنَّها ربما ستتصل بالشرطة.

الشرطة!

---

(١) أنزعة: عجرفة.

نعم! عليَّ أنْ أتصل بالشرطة. أنس الآن في حكم المفقود. ماذا لو كان في وضع صحي حرج ولا يستطيع الرد. في هذه اللحظة بالذات اتصلت خالتي على الفايبر. لم أرد عليها. استلمت رسالة منها «قلبي فاير[1] على أنس. حاسة في شيء غلط. طمني الله يرضى عليك».

زاد هذا كله من توتري. نعم، هناك شيء غلط.

اتصلت برقم الشرطة. 110. أخبرتهم أني طبيب في دريسدن كما لو أني أريد أنْ أقول لهم إنَّهم لا ينفقون عليَّ من ضرائبهم. لم تبدُ المتحدثة مهتمة بذلك وبدوت أنا مثل طبيب مغرور بشهادته.

انتظرتهم عند باب المبنى في الشارع تخلُّصًا من نظرات الجارة التركية التي فرغت من طبخها وتفرغت لمراقبتي. لم يطل الانتظار. جاءت سيارة الشرطة ونزل منها ثلاثة رجال شرطة. أو بالأحرى رجلا شرطة وامرأة شرطية. أخذوا مني بعض المعلومات عني وعن عَلاقتي بأنس. سألوني إنْ كان يتعاطى المخدرات. بدا السؤال غريبًا لي وفكرت باحتماليته لأول مرة.

طرق الشرطي الباب بقوة، ثُم قال بصوت مرتفع: «هير[2] خزنجي، سنفتح الباب الآن، إنْ كنت موجودًا في الداخل وتستطيع فتح الباب فافعل أنت».

أصالة كانت مستمرة بالغناء.. «**لو فتحتم شراييني بمديتكم، سمعتم في دمي أصوات مَن راحوا**».

لحظات وفتح الشرطة الباب بأقدامهم.

---

(١) فاير: يغلي.

(٢) هير: سيد، تستخدم في الخطاب الرسمي في الألمانية.

حدث كل شيء بسرعة. لم أفهم ماذا شاهدوا لكنهم تدافعوا بسرعة إلى الداخل.

كان هناك شيء في وسط الغرفة، أمام الباب. لم أفهم ما هذا الشيء أولًا. العَلاقة بين بصري وعقلي عطلت فجأة. رأيت. ولكني عجزت عن الفهم. لم أستطع استيعاب ما هو ماثل أمامي. متدليًا من السقف.

صرخت. أعتقد أني صرخت. لم أسمع صوتي.

كان أنس متدليًا من السقف بحبل ملتف حول رقبته.

لا أعرف غير أني وجدت نفسي أصرخ وأنا أحاول أنْ أفك الحبل عن رقبته. تصرفت برد فعل فوري، أمسكني رجل الشرطة ودفعني إلى الحائط لكيلا ألمس أي شيء. زميله كان يفحص رقبة أنس وهو في وضعه. كنت أشاهد ما يحدث مذهولًا. لا أزال أصرخ لكن بذهول. أشحت وجهي وأنا لا أزال أصرخ.

وكانت أصالة لا تزال تغني. بدا صوتها مجروحًا أكثر من المعتاد.

أنا الدمشقيُّ ... لو شرحتم جسدي

لسالَ منهُ عناقيد ... وتفاحُ

الكلمات أمام جسد أنس المتدلي من السقف كان لها معنى آخر. أحسست أنَّ أصالة تبكي في غنائها. هل كانت تبكي دمشق أم أنس؟ أم الاثنين معًا؟

سمعت الشرطي يقول لصاحبه: غالبًا منذ يومين على الأقل.

رد الثاني: اتصلت بالبوليس الجنائي. سيأتون الآن.

سألت الشرطية: هل نغلق هذه الموسيقى؟

كنت مذهولًا. أنس جثة هامدة مُعلقة أمامي في الهواء. لم أفكر بذكريات الطفولة أو أي شيء. كنت عاجزًا عن التفكير أو التذكر أو الفهم أو أي شيء يتطلب تشغيل عقلي.

تكمل أصالة كما لو كانت تفكر بالنيابة عني:

مآذنُ الشّامِ تبكي إذ تعانقني

وللمآذنِ ... كالأشجارِ ... أرواحُ

لا أعرف كيف استطعت أنْ أسأل نفسي وأنا في هذا الموقف: كيف استطاع نزار أنْ يجد تشبيهًا كهذا؟ غالبًا كنت أهرب من صعوبة الموقف بالتفكير في قصيدة نزار وصوت أصالة.

قالت الشرطية لزميلها وهي تجول بعينيها في الشقة: المكان نظيف جدًّا بالنسبة لشخص منتحر... عادة المنتحرون يعيشون في مكان يكون أقرب إلى حظيرة خنازير.

نظرت لأول مرة حولي. بالفعل. كان كل شيء مُرتبًا كما هو متوقع من أنس.. المجلى نظيف كما لو أنَّه جلى الصحون ثُم انتحر. فكرت أنَّ خالتي يمكنها على الأقل أنْ تفخر بابنها «المعدل»[1] الذي جلى الصحون قبل أنْ ينتحر. ثُم فكرت: كيف أفكر بهذا الآن؟ لا بد أن عقلي الباطن يحاول أن يشتت ذهني عما أراه.

لكن خالتي! ماذا سأقول لها. وقلبها الذي أخبرها إنَّ ثمَّة شيئًا خطأ... ماذا سيفعل؟

---

(١) المعدل: المرتب، النظيف في هذا السياق، ولكنها تعني أيضًا الشخص المستقر الناجح في أموره.

اتصال من جديد مرة أخرى على الفايبر. قلب خالتي يزداد دقّه. رنة الهاتف نبهت الشرطة إلى وجودي، كانوا قد نسوني على ما يبدو. طلبوا مني الانتظار في الخارج.

أسمع واحدًا من الشرطة يقول: لا توجد رسالة انتحار. أصالة تكمل بكاءها، كما لو أنَّها ترد عليهم:

وكيفَ نكتبُ والأقفالُ في فمنا

وكلُّ ثانيةٍ يأتيك سفّاحُ؟

حملت شعري على ظهري فأتعبني

ماذا من الشعرِ يبقى حينَ يرتاحُ؟

جررت رجلي خارجًا وأنا أنظر إلى أنس. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما. كان ثمَّة نظرة غريبة. ليست نظرة رعب. لا. شيء آخر لم أفهمه كان في عينيه. كنت على وشك أنْ أتحدث معه. لكني لم أعرف ماذا أقول.

قبل أنْ أخرج انتبهت إلى سجادة الصلاة. طرفها كان ظاهرًا تحت مجموعة من الكتب. لم تُمَس منذ مدة طويلة.

-٢-

بعض سكان البناء جاؤوا لاستطلاع ما يحدث. لم أنتبه لاتصالات خالتي وأمي، وزاد ذلك من شكوكهما كما هو متوقع. فزادت وتيرة الاتصالات، لم أعرف كيف يمكن أنْ أخبرهما هذا الخبر. لا يمكن أنْ أقول لها: خالتي، قلبك كان محقًا. أنس مات. ليت الأمر كان هكذا فحسب. لقد انتحر. شنق نفسه.

أنا نفسي لا أستطيع استيعاب هذا. قبل ساعة كان يفترض أنْ ينتهي كل شيء بأنْ يفتح الباب ويقول لي: خير يزن «شو جابك»؟ ولكن ها أنا الآن أمام جثته متدلية من السقف.

لم أكُن مُهيَّأً لتبليغ أحد، على الأقل ليس الآن. لكن عقلي بدأ يعمل بمعزل عن صدمتي: كم يمكنني تأجيل الخبر؟ سينتشر الأمر عبر أصدقاء أنس على الفيس بوك خلال ساعات على الأكثر.

بقيت أنتظر في الخارج. في أثناء ذلك كان السكان يسألونني عما حدث وكنت عاجزًا عن الإجابة. لست متأكدًا بمَ رددت. ثُم جاء أفراد الشرطة الجنائية -الكريبو- الذين لم أشاهدهم سابقًا إلا في التلفاز.. حوطوا الشقة بالأشرطة الصفراء وأخذوا يفتشون في الشقة.. لا أعرف عن ماذا.. غالبًا أي شيء يمكن أنْ يساعدهم في التحقيق. بدأ عدد الناس يزيد خارج الشقة، وسمعت الجارة التركية تدلي بدلوها للشرطة بلسان ألماني فصيح دون أنْ يطلب منها أحد ذلك لتقول: «لم يكُن مُريحًا قط،

غريب الأطوار، لديه ما يخفيه.. إذا كنت تعلم ما أعني».. ثُم سمعتها تسأل بصوت منخفض: «هل هو متورط بعمل إرهابي»؟ واضح أنَّها لم تكُن تعرف ماذا حدث لأنس. كانت تستنتج فقط وتدلي بدلوها بناء على ذلك.

بعض المتجمعين كانوا سوريين، سمعت اسم أنس يتردد بينهم. الخبر حتمًا سينتشر بسرعة. قررت أنْ أتصل بأخي مأمون في دمشق لكي يتصرف بمعرفته وينجيني أنا من الأمر. لست بحالة تساعدني على التفكير. بالكاد أستطيع الوقوف الآن. مأمون هاتفه مغلق كالعادة. فكرت بأنْ أتصل بأبي، أو بوالد أنس. لكن أعرف عن حالتهما الصحية ما يكفي لكيلا أفعل ذلك. أبي يعاني ارتفاع ضغط دم مزمن. وزوج خالتي لديه قائمة من الأمراض، قلب وضغط وسكري. ليس على مسؤوليتي.

فكرت أنْ أتصل بواحدة من شقيقات أنس. الكبيرة التي في الشام لا أعرف رقمها أصلًا. لديه واحدة في أمريكا وأخرى في كندا.. لكن لا. الاتصال بخالتي أسهل. على الأقل ليست في الغربة ومعها أمي وحولها ناسها. خبر كهذا عند استلامه في الغربة يكون أصعب بكثير.

أتصل بخالي معتز في دبي؟ ماذا سيفعل؟ عليَّ أنْ أتدبر الأمر بنفسي. عليَّ أنْ أتمالك نفسي الآن وأمهد الأمر لخالتي.

قررت أنْ أتصل بأمي وأخبرها بأنْ تذهب إلى بيت خالتي لكي تكون معها، ثُم أتصل بخالتي وأخبرها بوقوع حادث، وإنَّ أنس في المشفى، ثُم يمكن أنْ أخبرها إنَّ وضعه حرج. لاحقًا سيكون خبر وفاته قد انتشر وستسمع الأخبار من سواي ولن أتحمل وحدي عبء الأمر.

نفذت أمي ما طلبته منها دون أسئلة كثيرة وقد حدست أنَّ ثمَّة شيئًا خطيرًا. أرسلت إليَّ رسالة تقول لي فيها إنَّها وصلت عند خالتي، المسافة

بين «المهاجرين»[1] و«المالكي»[2] قريبة جدًّا ولا تأخذ سوى دقائق. في أثناء ذلك كانوا ينقلون جثمان أنس من الشقة. مر أمامي وهو مُسجًّى على عربة وقد غُطِيَ بملاءة بيضاء. وسمعت البعض يتحدث بالعربية ويترحم عليه.

اتصلت بخالتي، ردت فورًا كما لو أنَّها تنتظر المكالمة، سألتني بلهفة: طمني يا يزن تقبرني.. طمني الله يرضى عليك.

قلت لها وأنا أحاول أنْ أتمالك نفسي: خالتي وقع حادث لأنس ونقلوه للمشفى.

سكتت خالتي لثوانٍ. تصورت أنَّ الخط قطع. سألت: خالتي تسمعينني؟

كانت تقرأ آيات معينة على ما يبدو، بصوت منخفض.

سألتني بصوت متهدج: مات؟

صدمني سؤالها. أردت أنْ أتدرج بالخبر، ولكن يبدو أنَّ قلب الأم قادرٌ في الأزماتِ على التحول إلى رادار وجهاز لكشف الكذب في آنٍ واحد.

قلت لها: خالتي لمَ تقولين هذا؟ قلت لكِ «حادث» ونقلوه..

قاطعتني: أبوس رجلك ترد عليَّ.. أنس مات؟

لم أستطع الرد.

سمعت صوتها يبتعد وهي تقول: مات، مات. أنس مات...

---

(١) حي المهاجرين: واحد من أعرق أحياء دمشق الحديثة، يقع على سفح جبل قاسيون من الجهة الغربية، وسُمي بهذا الاسم لأنَّ أول مَن سكن فيه مجموعة من المهاجرين البلقان والكريتيين والشراكس في العهد العثماني.

(٢) حي المالكي: حي راقٍ في قلب دمشق، سُمي بهذا الاسم نسبة للعقيد عدنان المالكي، الذي أُغتِيل عام ١٩٥٥.

صوت خالتي جعلني أعي وأفهم ما حدث. الآن بدأت باستيعاب أنَّ أنس مات.

أخذت أمي الهاتف: يزن! ما الذي تقوله خالتك؟ ماذا حدث؟

لم أجد صوتي لأرد عليها. اكتشفت أني أبكي لأول مرة في هذا اليوم: نعم أمي. وجدته ميتًا في شقته. دخلت مع الشرطة. يبدو أنَّه مُتوفى منذ يوم أو أكثر.

- كيف؟ كيف مات؟

سكتُّ. كيف أرد على هذا السؤال؟

- لا أعرف بعد يا أمي، وجدناه ميتًا في غرفته.

سمعت أمي تسترجع وتحوقل. كنت أسمع صوت خالتي وهي تبكي بصوت مرتفع. أعرف أنَّ انهيار خالتي سيجعل أمي قوية لكي تسندها. يتبادلان هذا الدور دومًا. ساعدني هدوء أمي على أنْ أتماسك.

- أمي ابقَيْ معها... وانتبهي على ضغطها.. وضغطك أيضًا.. اتصلي بأبي ومأمون قبل تبليغ عمو أبو أنس... عليَّ أنْ أذهب الآن.

أغلقت الهاتف وأنا لا أصدق أني أخبرتهما خلال أقل من دقيقة. ليس هناك أي مجال لأقول إنَّه انتحر. ربما ليس الآن وربما ليس لاحقًا أيضًا. سيموت أمامها كل يوم لو عرفت أنَّه انتحر. أم القاتل تنسى وأم القتيل لا تنسى. فماذا عن أم المنتحر!

والناس؟ سينهش الجميع جثته ويقررون مصيره في الآخرة. مات وانتهينا من الأمر. لن أقول شيئًا آخر. سكتة قلبية. هبوط حاد في الدورة الدموية. أي شيء. الموت لا يعرف شابًا أو شيخًا.

سكت صوت أصالة أخيرًا، لكن الصمت الذي ساد كان غريبًا. كما لو أنَّ صدى صوتها كان يتردد في المكان. أو كما لو أنَّها تغني في جمجمتي. أغلقت الشرطة باب الشقة بالشمع الأحمر.

قال لي رجل الشرطة أنْ أذهب إلى مركز الشرطة رقم ٤٥ في شارع زونن آلي sonnenallee المعروف أيضًا بشارع العرب لأكمل إفادتي وأتابع بعض الإجراءات. لا أذكر كيف وصلت إلى مركز الشرطة. هل ذهبت مع أحد السكان الذي عرض توصيلي أو أخذت سيارة أجرة؟ لا أعرف.

في مركز الشرطة عرفت أنَّ الأمر سيستغرق وقتًا. لا بد أنْ تُشرَّح الجثة لمعرفة سبب الوفاة والتأكد من عدم وجود شبهة جنائية، ومن ثَمَّ لا بد من تقديم طلب للدفن ويجب أنْ يوافق قاضي التحقيق على السماح بالدفن، بعدها يمكن استلام الجثة ودفنها. الإجراءات الألمانية معقدة في أبسط التفاصيل فكيف عندما يكون الأمر متعلقًا بحادثة انتحار؟

«كل هذه الإجراءات قد تأخذ وقتًا، ربما أسبوعًا أو أكثر». هكذا قال الشرطي وهو يسجل معلوماتي.

هل أعود إلى دريسدن إذا كان لا معنى للبقاء في برلين. لكن ألا يستوجب الأمر أنْ أبات قرب أنس في يوم كهذا؟

لا أستطيع التفكير. أريد مَن أتحدث معه عن الأمر. لن أستطيع الاستمرار في كذبة أنَّه مات وانتهى الأمر. اتصل بي أخي مأمون وأنا لا أزال في مركز الشرطة. فتحت الهاتف وصرخت: مأمون.. أنس انتحر. أنس انتحر.

لم أبكِ. كنت مرعوبًا عندما لفظت الكلمة. هذه أول مرة أنطق الكلمة فأسمعها بأذني مرتبطة بأنس. كانت أسئلة مأمون أيضًا تشير إلى أنَّه مصدوم.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.

- ربما هو شخص آخر؟

- لا. هو أنس.

- ربما لم يمت؟

- بل مات.

ثُم سألني:

- هل رأيته بنفسك؟

- نعم. مُعلقًا على الحبل.

ليتني لم أفعل..

أرسلت رسالة إلى كل من إيهاب وسامر، أخبرتهما بوفاة أنس في شقته دون تفاصيل. اتصل إيهاب بي فورًا وهو يقسم عليَّ أنْ أقول إنَّ الأمر مزحة. للأسف لا، ليس مزحة. قلت له إني في مركز الشرطة فقال إنَّه سيأتي خلال دقائق. سامر اتصل أيضًا بعد قليل، كان منفعلًا جدًّا وهو يسألني عما حدث. أخبرني إنَّه انتقل منذ أشهر إلى دوسلدورف، على بعد ٦٠٠ كيلومتر. ثُم سألني عن موعد الدفن. بدا لي السؤال غريبًا. كنت على وشك أنْ أسأله: دفن مَن؟ لم أفكر في الأمر. قدرت أني لا أزال في حالة صدمة. نعم أنس مات وسيُدفَن.

جاء إيهاب واحتضنني وهو يبكي. لم أكُن من النوع الذي يتبادل الأحضان. دومًا هناك مسافة أمان ضرورية بيني وبين الجميع. لكن الآن

بدا الأمر كما لو أنَّه الشيء الطبيعي الذي على إيهاب أنْ يفعله وعليَّ أنْ أتقبله. بل أحتاجه. بحثت عن دموعي فوجدتها كأنَّها تنتظر. أخذ يسألني عن تفاصيل ما حدث. وكنت أرد كما لو أني أريد أنْ أتخلص من المعلومات. كما لو أني كنت أزيحها عن ظهري لأحملها لإيهاب.

كان إيهاب يعتقد أنَّه يستطيع رؤية جثة أنس. مستحيل بالطبع. لا بد أنَّ الجثة في مكان آخر أصلًا. خرجنا من المركز وركبنا سيارة إيهاب. كان يتحدث عن انقطاع أنس منذ أشهر. قال إنَّه لم يعد يرد على أي اتصال أو أي رسالة منذ قبل الكريسماس الماضي، أي قبل ثلاثة أشهر. ذهب إلى بيته مرتين، مرة فتح له الباب واعتذر منه بأنَّه يجب أنْ يخرج، وفي المرة الثانية لم يفتح الباب.

- هل بدا لك مختلفًا؟ مكتئبًا؟

- لم ألاحظ شيئًا، شعرت أنَّه كان لا يرغب بالحديث معي فحسب، انزعجت مما فعل، وتحدثت مع الأصدقاء الذين قالوا إنَّه فعل الشيء ذاته تقريبًا معهم، قدرنا أنَّه يريد أنْ يبتعد عن الجميع لسببٍ ما، ولكن لم أتخيَّل أنَّه...

خيَّل لي أنَّ إيهاب لا يرغب في قول الكلمة. ثُم سألني:

- هل تعتقد أنَّه قام بذلك بنفسه؟

- ماذا تقصد؟

- أعني ربما هناك مَن فعل ذلك، مِن أعوان النظام مثلًا.

لم أفكر بالأمر. بدا لي كل شيء كما لو أنَّه انتحار واضح.

«لماذا يفعل أعوان النظام ذلك مع أنس تحديدًا»؟ سألته جادًا.

نظر لي إيهاب نظرة مختلفة ثُم سكت وكأنَّه يحتفظ بالجواب لنفسه. عرض عليَّ أنْ أبيت عنده هذه الليلة ونذهب غدًا لمتابعة الأمر، لكني أخبرته إنَّ الموضوع سيطول وإنَّ عليَّ أنْ أعود إلى دريسدن الليلة. أوصلني إيهاب إلى محطة الحافلات بعد أنْ تأكدنا من فوات موعد القطار الأخير من برلين إلى دريسدن.

قبل أنْ أهبط من السيارة سألني إيهاب: هل تحدثت مع نور؟

- مَن نور؟

- لا تعرفها؟ لا عليك إذن.. هي صديقة مقربة من أنس، اعتقدت أنَّك تعرفها.

كانت هذه أول مرة أسمع باسمها.

شعرت أنَّ إيهاب ارتبك وقرر أنْ يتراجع. مَن نور هذه؟ لكن ما أهمية ذلك الآن؟ لو كان الأمر في السابق، لكان هذا خبرًا يهم خالتي.

حجزت تذكرة على حافلة الساعة الثامنة مساء. لا يزال لدي مُتسع من الوقت. ذهبت إلى مطعم KFC قرب المحطة المركزية للحافلات لأقضي الوقت هناك. لم أستطع أنْ أتناول أي شيء. أخذت علبة سبيزي وشربت منها قليلًا. ثُم انتبهت إلى أني أضعت كتابي في مكان ما. لا أذكر أين تركته في خضم كل ما حدث. هذا أفضل. وجود الكتاب الآن سيكون تحديًا لي... ها هو ابن خالتي ينتحر، وأنا أكملت سنتين في التخصص بالطب النفسي، ولم أنتبه إلى أي علامة.

لم يتركني الهاتف فريسة لشعور الذنب طويلًا. اتصالات من كل مكان. أمي اتصلت مائة مرة. زوج خالتي نقلوه إلى المشفى الشامي فور سماعه

الخبر. نوبة قلبية أو شيء من هذا القبيل. متوقع للأسف. أنس هو الذكر الوحيد بعد ثلاث بناتٍ. لا يمكن لخبر موته أنْ يكون يسيرًا على أبٍ مُعتل الصحة أصلًا.

أبي اتصل ليسألني عن «مُلابسات الوفاة» -هكذا قال، مُلابسات، كما سيفعل أي مُحام في قاعة المحكمة- فلم أتردد في أنْ أخبره بأنَّ أنس انتحر، شنق نفسه. سكت أبي قليلًا ليستوعب ما قلته ثُم قال: «حسنًا فعلت بأنَّك لم تخبر خالتك بهذا. دع الأمر بيننا».

لكني لم أستطع أنْ أترك الأمر بيننا تمامًا. اتصلت بي شقيقة أنس من أمريكا وهي تصرخ وتسألني عما حدث. طلبت الحديث مع زوجها. لم أكُن أعرفه شخصيًّا ولكن قدرت أنْ سيكون متقبلًا للأمر أكثر منها. طلبت منه أنْ يبتعد عنها قليلًا ثُم أخبرته إنَّ أنس شنق نفسه. سكت مطولًا ثُم قال لي: «كيف تعتقد أنَّ هذا سيساعدها؟ ولا كلمة يا دكتور. ولا كلمة».

الأمر كان أسوأ مع شقيقته الأخرى في كندا. زوجها نهرني بعنف أكبر وتقريبًا اتهمني بالكذب والتلفيق. كان واضحًا أنَّ العائلة لن تتقبل فكرة انتحار أنس حتى لو رأت ما رأيت. هذه هي قوة الإنكار أمام المصائب. أحيانًا يساعد ذلك على تقبل جزء من صعوبة الأمر. لا يمكن تجاهل ذلك.

كان أبي محقًا. النظرة التي ينظرها المجتمع إلى الشخص المنتحر وعائلته سلبية ومُهينة على نحو يجعل عائلته ينكرون الأمر -ربما بوعي أولًا- ثُم يصدقون الإنكار ويتمادون فيه حتى لو شاهدوا بأعينهم ما حدث.

حاولت أنْ أتذكر أي علامة تركها أنس على أنَّه قد ينتحر. فتحت رسائل الواتس آب بيني وبينه. لم تكُن كثيرة. وأغلبها مجاملات وأسئلة عادية. آخر ما بيننا كان رسائل صوتية قبل شهر تقريبًا. أرسل واحدة،

ثُم رددت بواحدة، بعدها أَرسَل رسالتين وحذفهما. لم أكُن أذكر أي شيء عن هذا الحوار.

فتحت رسالته الصوتية. صوته متعب بوضوح. ويبدو أنَّه شارد الذهن. ناداني «حكيم»[1]. لم تكُن عادته في الكلام معي أنْ يناديني هكذا. لكنه لم يكُن رسميًّا في الحديث. «حكيم» تبدو أنَّها أفلتت منه. قال لي إنَّ صديقًا له وصل حديثًا إلى ألمانيا وهو يعاني الاكتئاب وقد وصف له أكثر من طبيب عدة أدوية وهو لا يشعر بتحسن ويسأل إنْ كنت أنصح بدواء آخر مختلف.

الآن أفهم أنَّه كان يتحدث عن نفسه. مفاهيمنا عن وصمة المرض النفسي جعلته يتحرج من الحديث معي بالأمر. ربما حاول ذلك عندما ناداني «حكيم». هل كان سينتهي عند الحبل في رقبته لو أنَّه كان أكثر وضوحًا وأقل حرجًا في الحديث عن حالته. أو لو أني سألته أكثر عن «صديقه».

فتحت رسالتي. تاريخ الرد يشير إلى أني أرسلتها بعد قرابة يوم. سمعت صوتي أتحدث بلا اهتمام كما لو أنَّه كان يسألني عن تحضير الزهورات[2]. قلت له إنَّ التشخيص لا يمكن أنْ يتم عبر الهاتف وعليه مراجعة الطبيب الذي وصف له الأدوية، وأنْ «لا يستعين لا بصديق ولا بغوغل».

هل صددت أنس؟ هل حاول أنْ يتحدث ويفتح معي وصددته دون قصد؟

رسالتان منه بعد رسالتي، ثُم حذفهما. لا أعرف ماذا قال ولا أذكر أصلًا إنْ كنت قد سمعت أيًّا منهما. لن أعرف أبدًا ماذا قال فيهما. ربما

---

(١) يقال للطبيب «حكيم» في دمشق وبعض أنحاء سوريا.

(٢) الزهورات الشامية: مجموعة من الأعشاب البرية والبذور التي تستخدم للعلاج والتطبيب في سوريا، وتشرب عادة مثل الشاي.

شتمني وربما صارحني بما يعاني منه. لكن غالبًا لهجتي في الرد جعلته يتراجع عن ذلك.

خربت كل شيء. ربما حدث ذلك بالفعل وربما كنت أبالغ. هل تصرفت بلا وعي لكي أدفع أنس إلى هاويته؟ هل شككت أنَّه يتحدث عن نفسه وحاول جزء شرير مني أنْ يشيح ببصره ولا يساعده؟ لا أعرف.

تذكرت أني لم أُصلِّ اليوم منذ الفجر. ذهبت إلى جامع الزيتونة في شارلوتنبورغ القريب على محطة الباصات. عندما دخلته ذكرني لون السجاد بمسجد سعد بن معاذ في المالكي بدمشق. هناك على ما أظن تعرّف أنس إلى صديقيه المقربين معاذ وكنان. كُنا أنا ومعاذ وأنس في الصف السابع، وكنان يكبرنا بعامين. من يومها والثلاثة لا يفترقون: أنس خزنجي ومعاذ الصدّاف وكنان أصفر، أينما يكون أنس لا بد أنْ يكون هناك معاذ وكنان، أين يكون أي منهم يكون الآخران هناك أيضًا. غالبًا كان اجتماعهم في بيت كنان في «المَزَّة ڤيلات» لأنَّ الأخير لم يكُن لديه أخوات «بنات» مما كان يسهل دخول أصدقائه على البيت دون تحضيرات من الأسرة.

دخل كنان كلية الطب قبل دخولي لها بعامين، وساعدني كثيرًا في أول سنة وعرفته جيدًا عن قرب وأحببته كثيرًا، شاب أكابر[1] جدًّا. معاذ دخل الهندسة المعلوماتية وبقيت عَلاقتي به سطحية.

ثُم أصيبوا جميعًا بعدوى الثورة، غالبًا بتأثير من كنان، أكثرهم ثقافة واطّلاعًا وتأثيرًا. وانتهى الأمر بهذه الرفقة نهاية حزينة. اعتُقل كنان بعد تخرجه بأشهر، وكان قد تزوج قبل شهر فقط من اعتقاله، ثُم حُكِمَ عليه

(١) أكابر: محترم.

بالسجن المؤبد، وعُثر على معاذ مقتولاً في السنة نفسها، ثُم ها هو أنس ينتحر في برلين.

تبًّا للثورة. هل كان الأمر يستحق كل هذا؟ لو كانوا يعرفون منذ البداية ماذا سيحدث لهم وللبلد أما كانوا كفوا عن هذا جميعًا؟ سامحهم الله جميعًا على ما فعلوا بأنفسهم وأهاليهم. لا أعرف إنْ كانوا قد غُرِّرَ بهم أم خُدِعوا أم كانوا على حق.. لكنهم كانوا أول مَن دفع الثمن باهظًا. وجعلونا جميعًا ندفع أيضًا...

ركبت الحافلة إلى دريسدن، الطريق يستغرق ثلاث ساعات، سأصل إلى دريسدن قبل منتصف الليل بقليل وسيكون عليَّ أنْ أستيقظ مبكرًا للذهاب إلى المشفى. كان يومًا متعبًا مؤلمًا. ذهبت إلى برلين لكي أقول لأنس أنْ يرد على أمه، ورجعت من برلين بصورته أمامي وهو يتدلى من المشنقة. غفوت وصحوت مائة مرة في الحافلة. كل مرة أستيقظ وأقول لعله كان كابوسًا. لكن، لا. أنس انتحر. شنق نفسه.

في الطريق اتصل بي خالي معتز من دبي، يريد مني أنْ أعرف كلفة شحن الجثمان إلى دمشق.

- لماذا يا خالي؟ مَن يريد أنْ يدفن أنس في دمشق؟

- خالتك سلمى تريده أنْ (ينزل)[١] على أبي وأمي في مقبرة (الدحداح)، لكي تنزل عليهم هي عندما تموت.

خالتي خططت لكل هذا وهي في هذا الوضع؟ وزوجها في المشفى؟ غالبًا مجلس العائلة قرر ذلك بالنيابة عنها. مقبرة الدحداح أصبحت الآن للأغنياء فقط وبريستيج العائلة يتطلب هذا.

(١) ينزل: يُدفَن في القبر نفسه، هكذا العادة في دمشق.

كنت على وشك أنْ أقول له إنَّ القبر سيكون مزدحمًا جدًّا هكذا.

- أريد أنْ أتكفل بكل النفقات...

كان خالي كريمًا في كل المناسبات العائلية، يعوض بكرمه عن غيابه الدائم منذ عقود، من المعروف في العائلة أنَّه كان يتمنى أنْ يتقدم أنس لخطبة ابنته، لكنه عدل عن ذلك عندما ترك أنس طب الأسنان ودرس الإخراج. على أي حال ابنته تزوجت قبل عامين وسافرت إلى زوجها في أمريكا.

- لكن هذا يحتاج إلى إجراءات مُعقدة يا خالي، وقد تأخذ وقتًا طويلًا. وإكرام الميت دفنه.

- أعرف صديقًا في ألمانيا منذ الثمانينيات يمكنه أنْ يساعدك في الإجراءات، سأرسل إليك رقمه.

استسلمت لخالي. سأفكر بالأمر غدًا. ربما يساعدني إيهاب في الأمر. لكن لم أستطع أنْ أمنع نفسي من التفكير: لو كنت مكان أنس اليوم، هل كان سيتكفل خالي بنقل جثتي إلى دمشق؟ لُمت نفسي واستسخفتها على هذا التفكير. لكن السؤال بقي يتردد في ذهني.

نمت بملابسي كجثة فور وصولي إلى البيت. وعندما استيقظت صباحًا كان رأسي مثل رأس جثة في الطب العدلي استيقظت من الموت للتو. وقفت تحت رشاش الماء لعله يزيح ما حدث أمس. ثُم أعددت قهوة سريعة. على الواتس آب كانت هناك رسائل أكثر من المعتاد. متوقع طبعًا. كنت وضعت مجموعة العائلة على حالة «صامت» لكيلا تصلني مئات الإشعارات كل يوم. فتحت المجموعة. كانت أخت أنس قد كتبت: قتلوه. قتلوه.

وكانت العائلة مجمعة على تأييدها. قولًا واحدًا.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

فتحت الفيس بوك. وجدت خبرًا يتصدر صفحات السوريين في ألمانيا بآلاف التعليقات ومئات المشاركات.

«النظام السوري يغتال الناشط المعارض أنس خزنجي داخل شقته في برلين».

-٣-

في الأيام التالية، وقبل أنْ تنتهي إجراءات التحقيق الجنائي، كانت صفحات التواصل الاجتماعي قد حولت أمر «اغتيال» النظام لأنس إلى حقيقة مؤكدة من الصعب التشكيك فيها، مقابل خبر مقتضب نشرته الصحف الألمانية في اليوم التالي لانتحار أنس «العثور على لاجئ سوري أنس خزنجي (٢٩ عامًا) مشنوقًا في شقته، الحادث يبدو أنَّه انتحار في انتظار نتائج التحقيق الجنائي».

جعل هذا الخبر المنشورات والتعليقات تنهال لتشير إلى وجود تواطؤ من قِبَل السلطات الألمانية للتغطية على التقصير الأمني، أو للتغطية على مخابرات النظام التي قد تستهدف أي ناشط بالأساس. بل وصل الأمر إلى المطالبة بتحقيق «دولي» في الأمر. حاولت أنْ أعرف إنْ كان لتسرب الخبر على هذا النحو عَلاقة بإيهاب، لأنَّه كان قد سألني عن احتمالية ذلك، لكن اكتشفت أنَّ إيهاب لا عَلاقة له تقريبًا بعالم التواصل الاجتماعي. المسألة كانت في طريقة تفكير سائدة تتعامل مع «الانتحار» بإنكار لأسباب دينية واجتماعية، ويزداد هذا عندما يكون «المنتحر» صاحب قضية أو ثائر، لأنَّ انتحاره سيكون مثل هزيمة شخصية للقضية. وهكذا تعامل «جماعة الثورة» مع فكرة انتحار أنس، خصوصًا أنَّ الخبر نُشر يوم (١٨) من مارس، وهو ذكرى انطلاقة الثورة حسب جزء كبير من جمهور الثورة، بفارق 3 أيام عن جمهور آخر للثورة، كبير أيضًا، يرى أنَّها انطلقت في (١٥) من مارس.

أنْ ينتحر أنس في ذكرى الثورة؟ وفي ظل ما يراه الجميع من تزايد سيطرة النظام على كل المناطق التي خرجت عنه؟ ثمَّة رسالة في هذا. ربما لم يتعمدها أنس. لكن جمهور الثورة لا يريد أنْ يقرأ الرسالة. لأنَّها رسالة نعي للثورة. بدلاً عن هذا من الأفضل أنْ نقرر أنَّ أنس لم ينتحر. بل النظام قتله. والثورة مستمرة.

كان هناك أيضًا في صفحات التواصل حديث مستمر عن «مشروع إعلامي كبير» يعمل عليه أنس كان سيحرج النظام لو خرج إلى النور. استبق زوج شقيقة أنس كل ما يمكن أنْ أقوله فحذر عبر الفيس بوك من «أنَّ بعض أقارب أنس من الشبيحة[١] أو مؤيدي النظام ربما يحاولون تأييد رواية الشرطة والزعم أنَّ أنس قد انتحر». وددت أنْ أعترض وأقول: لست شبيحًا. أنا «رمادي»[٢] فحسب. لكن تحذيره هذا كان كافيًا لكي أسكت ولا أضيف شيئًا عما قلته. كلمة أخرى مني وسيقال إني ساهمت في قتله.

كانت النبرة الواثقة في منشورات الناس عن الأمر كافية لتجعلني أشك فيما رأيت شخصيًّا. هل يعقل أنْ يكونوا قد اقتحموا الشقة عليه وشنقوه فيما بدا لي أنَّه عملية انتحار؟ لم يكُن هذا بعيدًا على النظام، وربما على أي نظام. لكن لماذا يفعل ذلك أصلاً؟ ما أهمية أنس بالنسبة إلى معارضين وناشطين أكثر منه تأثيرًا؟ وما هي الخطورة التي يمكن أنْ يشكلها لنظام يعيش لحظات انتصاره ويستعيد بالتدريج الأراضي التي سُلِبَت منه؟ وهل النظام أحمق لدرجة ارتكاب جريمة كهذه في دولة

---

(١) الشبيحة: مصطلح دارج في سوريا، بدأ بعصابات تهريب وتجارة ممنوعات مرتبطة بآل الأسد نافذة تقوم بابتزاز الناس وتستخدم العنف والتهديد، وأصل التسمية سيارات الشبح (المرسيدس S٦٠٠) التي كانوا يركبونها، لاحقًا أصبحت التسمية تشمل كل الميليشيات والأفراد الداعمين لنظام الأسد.

(٢) رمادي: محايد، واستُخدِمَ كثيًرا عن الذين لم يحددوا موقفًا مع أو ضد الثورة.

أوروبية في وقت يحتاج فيه إلى تلميع صورته تمهيدًا لعودته إلى المجتمع الدولي؟

هذه المبررات نفسها التي تبعد الجريمة عن النظام يمكن أنْ تدفع بعض «الثوار» إلى اليأس وربما الانتحار. بعضهم وضع كل حياته في رهان عندما شارك في هذه الثورة. وكان الرهان خاسرًا كما هو واضح. على الأقل كما هو واضح للكثيرين، أنا واحد منهم.

التحدي بالنسبة لي هو أنَّ أنس كان بعيدًا تمامًا في «الشخصية الانتحارية» كما درستها في الكثير من الكتب والمقالات الأكاديمية. أعرف أنس منذ أنْ وعيت على نفسي، وكنت أقرب إلى الشخصية الانتحارية منه بعشر مرات على الأقل. على العكس كان أنس في الطرف الأقصى، المناقض تمامًا للشخصية الانتحارية. الشخصيات التي تمتلك ميولًا انتحارية تكون بعيدة عادة عن الشخصيات المنفتحة وتسجل نقاطًا أعلى على الشخصية الانطوائية أو المنغلقة. هنا سأكون أنا مرشحًا للانتحار أكثر بكثير من أنس.

أغلب الذين يمتلكون ميولًا انتحارية، ويصلون إلى محاولة الانتحار أو تنفيذه يمتلكون بالأساس اضطرابات نفسية تجعلهم أكثر عرضة واستعدادًا للانتحار من غيرهم. قائمة هذه الاضطرابات بعيدة تمامًا عن أنس كما عرفته. بالتأكيد ليس الشيزوفرينيا ولا الشخصية الحدية ولا ثنائي القطب. هذه لا يمكن أنْ تظهر فجأة بل تكون واضحة منذ الصغر، أنس كان بعيدًا جدًّا عنها. الاكتئاب العام يمكن أنْ تظهر علاماته متأخرة. لكن حتى هذا لم تظهر ملامحه إلا في تلك الرسالة الصوتية، ولم تكُن ظاهرة لي إلا بأثر رجعي، الآن بعد أنْ حدث ما حدث.

هل يمكن أنْ يكون الأمر نتيجة اضطراب ما بعد الصدمة؟ لكن أيِ صدمة بالضبط؟ أنس ترك سوريا بعد بداية الثورة بأشهر بعد أنْ قُتِل صديقه معاذ ولم يُعتقل أو يتعرض للتعذيب.

هل يمكن أن تكون صدمة مقتل معاذ هي التي أدت إلى كل هذا؟ بعد سبع سنوات من مقتله؟ وبينما كان يبدو كما لو أنَّه بخير لسنوات.

في الفترة التي قضيتها معه في شقته، لم يتحدث عن معاذ قط. أذكر أني مرة عرضت عليه بعض الصور التي التقطت لنا في المدرسة، وكان معاذ في أكثر من صورة، ولم يبدُ عليه أنَّه تأثر لرؤية الصور قط. مرت صور معاذ كما مرت صور غيره. كما لو أنَّه لم يكُن أعز أصدقائه. هل يكون أنس من هذا النوع من الشخصيات. هل كان قادرًا على إخفاء مشاعره لهذه الدرجة؟ عرفته بما يكفي لأقول إنَّه لم يكُن من أولئك الذين يمتلكون وجه لاعب القمار (poker face) ويتمكنون من إخفاء مشاعرهم على طاولة اللعب. كانت مشاعره ظاهرة دومًا بلا تكلف. يفرح ويحزن ويغضب ويهدأ ويحب ويكره دون أي محاولة لإخفاء شيء. الإخفاء كان اختصاص الانطوائيين مثلي.

شعرت بنوع من الخجل لأني فشلت في الانتباه لوجود ميول انتحارية عند أنس. كما لو أنَّه قد خُلق ليشعرني بفشلي حتى عندما يموت. قرأت كثيرًا عن الأمر في الأيام التالية، ووجدت بعض المواساة في مقالات كتبها أطباء نفسيون انتحر أصدقاء قريبون منهم دون أنْ يلاحظوا وجود أي علامات منذرة.

طريقة انتحار أنس تدل على أنَّ الأمر لم يحدث نتيجة شعور قاهر باليأس في لحظة ضعف. لو كانت كذلك لاختار شَفَرات الحلاقة أو علبة دواء منوم يمكن الحصول عليها بسهولة. لكنه اختار الشنق، يحتاج الأمر إلى إعداد وتخطيط، لا يمكن أنْ يحدث ذلك خلال دقائق سريعة.

طريقة أنس في الانتحار تدل على معرفته بما يفعله. نسبة نجاح المحاولة مع الشنق عالية مقارنةً بالأدوية أو الشَفَرات. أنس كان يريد الأمر حاسمًا دون تردد. عندما قرأت عن «فضائل» الشنق مقارنةً بوسائل الانتحار الأخرى تأكدت من أنَّ أنس كان يعرف تمامًا ما يفعله.

الشنق نادرًا ما يتسبب بفوضى أو «وساخة» في المكان. لا دم. ونادرًا ما يؤدي إلى سوائل أو فضلات. الشخص الذي غسل الأطباق قبل أنْ ينتحر سيُفضّل بالتأكيد أنظف طريقة ممكنة للانتحار.

كنت مُمزقًا بين مشاعري (المُضطربة أصلًا) تجاه أنس، وبين رغبتي كطبيبٍ نفسيّ في تفحص كل ما فعله قبل أنْ ينتحر.

****

الطريق من محطة القطار إلى مركز التحقيقات الجنائي في شارع ميركشه أليه استغرق قرابة الساعة في زحمة برلين في أيام الأسبوع العادية.

بعد انتظار نصف ساعة سلمتني الشرطية نسخة من نتيجة التحقيق المصادق عليها من قِبَل لجنة التحقيق الجنائي. تشريح الجثة أثبت وفاة أنس بسبب انحباس الدم عن الدماغ نتيجة الضغط على الأوردة الوداجية والشرايين السباتية والفقرية، وكذلك انسداد المجاري التنفسية بسبب الضغط على القصبة الهوائية والحنجرة.

كما نفى التقرير الشبهة الجنائية بسبب عدم وجود أي أثر للمقاومة على جسد أنس، واتجاه الكدمات على رقبته واتجاه ألياف الحبل التي تختلف عادةً لو كان قُتل قبل تعليقه على المشنقة.

أكثر من هذا: أنس اشترى الحبل والكلاب المعدني الذي علق الحبل فيه من مخزن باهاوس للعدد والأدوات في نويكولن ودفع ببطاقته الائتمانية، وترك الإيصال على مكتبه، وبمتابعة كاميرات المراقبة في المخزن تأكد أنَّ أنس هو مَن اشترى الحبل والكلاب، وكان ذلك يوم الخميس الرابع عشر من مارس، قبل ثلاثة أيام من اكتشافي له، ثُم إنَّه في مساء اليوم نفسه عاد إلى المخزن وأبدل الحبل الذي اشتراه بآخر، بعدها عاد إلى المنزل وطلب من مُشرف البناية أنْ يُعيره مثقبًا كهربائيًّا وسلمًا، لكن المُشرف قال له أنْ لا يستخدم المثقب في الليل لكيلا يزعج أحدًا. المُشرف لم يسأله لماذا يريد المثقب والسلم وهو لم يقُل شيئًا. في وقت ما من صباح الجمعة أعاد أنس السلم والمثقب إلى المُشرف على البناء، ولم يره أحد بعدها. يتفق هذا مع تقرير الطبيب الشرعي الذي يحدد ساعة الوفاة في وقت ما بين ١٢ ظهرًا والسادسة مساءً من يوم الجمعة، قبل يومين من عثوري عليه.

البحث في تاريخ أنس على الإنترنت يشير إلى أنَّه بحث (خلال الشهرين الماضيين) عن طريقة الانتحار عبر الشنق، وكان آخر ڤيديو شاهده على اليوتيوب هو عن عقدة الحبل التي تؤمن وفاة سريعة، رغم ذلك يشير التقرير الطبي إلى تحرك الحبل في أثناء الشنق واحتمالية تأخر الوفاة إلى ما بين ٤ إلى ٧ دقائق.

كما أنَّ أنس قد ترك ورقة بخطه تفيد أنَّ جهاز الحاسوب الخاص به يعود إلى «شريكة عمل» اسمها نور نجار، الورقة مؤرخة بيوم تنفيذ الانتحار نفسه، مما يؤكد وجود نية مسبقة عند أنس لتنفيذ الانتحار.

كنت أقرأ التقرير كما لو أني كنت داخل كاميرا المراقبة أشاهد ما يفعل أنس خلال اليومين الأخيرين من حياته. يبدو هادئًا جدًّا، متماسكًا

لأعصابه، متخذًا قراره منذ فترة طويلة، دون أنْ يوجد علامة واضحة لانهيار عصبي أو حالة عصبية عابرة.

والحاسوب لنور؟ نور نفسها التي ذكرها إيهاب بالتأكيد. ما طبيعة عَلاقتهما يا ترى؟

طلبت نسخة من التقرير وخرجت أحمله وأنا غارق في أفكاري وقبل أنْ أصل إلى الشارع تذكرت أني يجب أنْ أقدم طلبًا لاستلام الجثمان من المشرحة كما قيل لي في المرة السابقة.

رجعت إلى الموظفة وسألتها إنْ كان التقديم على استلام الجثة للدفن يمر من خلالها، نقرت أكثر من نقرة على الحاسوب أمامها ثُم قالت: أحدهم قدم فعلًا على هذا الطلب، وقدم أيضًا طلبًا للحصول على جهاز الحاسوب الخاص بالمتوفى.

مَن؟ سألتها.

نظرت إلى شاشة الحاسوب وقالت: نور نجار.

مجددًا!!

-٤-

ذهبت إلى معهد الطب الجنائي في شارع تورم شتراسه، منطقة موأبيت، برلين. كنت قد تواعدت مع إيهاب أنْ ألتقي به هناك لكي ننجز إجراءات التعرف على الجثة. وعندما رأيتها واقفة مع إيهاب أمام باب المعهد، عرفت فورًا أنَّها هي، نور نجار.

كانت تضع حجابًا أبيض اللون، وترتدي بنطلونًا جينز وسترة زرقاء طويلة تصل إلى ركبتيها، تقف منتصبة دون أي انثناء. رأسها في زاوية واحدة مع جسمها تمامًا. أغلب من ينتظر وقوفًا يقدمون ساقًا أو يؤخرون أخرى ويستندون أكثر على واحدة منها. إيهاب كان قد مال بجذعه إلى الخلف قليلًا، وإحدى ساقيه إلى الأمام. هكذا يقف أغلب الناس. نور كانت تقف كما لو كانت عمودًا للنور. باستقامة تامة. أثار انتباهي ذلك من بعيد.

تقدم إيهاب مصافحًا وعرفني إلى نور بكلمتين فقط «نور نجار»، «د. يزن الغانم» ابن خالة المرحوم أنس قلت لها: «أهلًا وسهلًا.. تشرفت بك». ردت بحركة من رأسها دون أنْ تقول كلمة واحدة. حتى رأسها لم يكُن باتجاهي. كانت لا تزال تنظر باتجاه إيهاب. كما لو أني لا أستحق أكثر من حركة الرأس هذه، حتى دون أنْ تغير من اتجاه رأسها. حتى لم تقُل لي كلمة عزاء واحدة في أنس. كانت عدوانيتها تجاهي واضحة منذ اللحظة الأولى.

قال لي إيهاب: «عليك أنْ تمضي على بعض الأوراق في الداخل».

- نعم، بالتأكيد، ولكن قبل هذا، أحببت أنْ أبلغكم شيئًا بخصوص الدفن، الأسرة ترغب في معرفة إمكانية نقل جثمان أنس إلى الشام.

لا أعرف لمَ أثرت هذا الأمر الآن. غالبًا لأني شعرت من طريقة سلامها بأنَّها تستصغر وجودي، لذا فضلت أنْ أقول شيئًا مُهمًّا لا حقيقة له. الحديث المتكرر عن كون «النظام قد قتل أنس» جعل خالي يتوقف عن فتح موضوع نقل الجثمان إلى دمشق. صحيح إنَّها مجرد أقاويل على وسائل التواصل الاجتماعي، لكنها أقاويل مُضرة لأنس ولجثمانه فيما لو حاول أحد نقله، ومُضرة بالتأكيد لخالي فيما لو عرف أحد أنَّه «ممول» عملية النقل، ولدى خالي من أعمال ومصالح في سوريا ما يجعله حريصًا على أنْ لا يقترب من شيء كهذا.

التفتت نور إلى إيهاب وقالت له بانزعاج واضح: «الآن يقولون هذا؟ لقد اتفقت بالفعل مع مكتب لتولي إجراءات الدفن هنا في برلين. كان من المفترض أنْ يتحدثوا بالأمر قبل هذا».

وجهت كلامها لإيهاب، كما لو أني شبح لا مرئي.

«مَن الذي اتفق مع مكتب الدفن؟ هذا أمر يخص العائلة أولًا». وجهت كلامي لها مباشرة.

«وأين كانت العائلة في القصة كلها؟ عمومًا إنْ كان الأخ هنا قد اتفق مع مكتب آخر أو بدأ بإجراءاته لنقل الجثمان فأنا مستعدة لإلغاء كل شيء من طرفي، بكل الأحوال، نقل الجثمان يتطلب أخذ موافقة السفارة، يستطيع هو أنْ يذهب إنْ شاء». كانت لا تزال توجه حديثها لإيهاب.

يا للعجرفة. مَن تظن نفسها هذه الفتاة؟ لا تزال تتحدث مع إيهاب كما لو أني لا أقف أمامها. أريد أنْ أرفع يدي وأحركها أمامها وأقول لها: «الأخ الذي تتحدثين عنه يقف أمامك».

سألني إيهاب: هل راجعت السفارة؟

قلت مرتبكًا: لا.. توقعت أنَّ ذلك يبدأ بعد صدور شهادة الوفاة على الأقل.

- كان يمكن أنْ يتواصل معك ليخبرك برغبة العائلة... ولا يتسبب الآن بكل هذا الإرباك.. اضطررت للتواصل مع 3 جمعيات لتغطية مصاريف الدفن في برلين، ستة آلاف يورو.. فور صدور شهادة الوفاة سيكون كل شيء جاهزًا للدفن.

ستة آلاف يورو. مبلغ كبير بالفعل. كُلفَة دفن أنس في قبر جديد في الدحداح أكبر. القبر وحده سيكون أعلى. عدا كُلفَة النقل من ألمانيا إلى دمشق.

لكنها مستفزة فعلًا. كان يمكن أنْ يتواصل معك. بصيغة الغائب. ويتسبب بكل هذا الإرباك. انتبهت إلى وجود لدغة[1] في حرف الراء عندها. لدغة غير مناسبة للهجتها المستفزة. دومًا هناك طفولة في أصحاب اللدغة. لكن هذه النور فيها شيء مختلف تمامًا عن الطفولة. لا أعرف ما هو. نقل إيهاب أنظاره بيني وبين نور، أحسست أنَّه يشير لها أنْ «تهدّي». من الواضح أنَّ سلوكها معي أثار انتباه إيهاب.

---

(١) اللدغة أو اللثغة: اضطراب في النطق ينتج عنه تشوه حرف معين بحيث يبدو أضعف أو أقرب إلى حرف آخر.

- دعوني أقنع العائلة بعدم نقل الجثمان إلى دمشق، يمكنني أنْ أقول لهم إنَّ الكلام على الفيس بوك عن أنَّ أنس قُتِل من قِبَل النظام جعل السفارة تعرقل أمر الموافقة على نقل الجثمان.

«وهو أمر محتمل جدًّا» قال إيهاب، وكان على صواب.

- إنْ شاء الله سيوافقون، والده في المشفى ووضعه سيئ، لديهم ما يكفي من المشاغل أصلًا، لا ينقصهم مشكلة مع الأمن وجثمان ابنهم في المطار.

قال إيهاب:

- الله يعافيه يا رب، المصاب جلل بالفعل.

أما نور فلم يبدُ على وجهها أي شيء تجاه ما قلت. خارج التغطية تمامًا. فيها شيء «قبيسي» هذه الفتاة، رغم بنطلون الجينز الذي ترتديه. الكثير من القبيسيات[1] لديهن جمود في تعاملهن مع الرجال، ربما كيلا يكون هناك أي شبهة ميوعة ودلال في الكلام. أمي تكون قبيسية «أحيانًا»، تحضر معهن في دروسهن دون مواظبة، ولديها صديقات قبيسيات. أستطيع أنْ أرى ذلك واضحًا في نور. ربما هذا يفسر موقفها مني لا تريد أنْ تترك لي مجالًا لكيلا أتجاوز حدودي معها.

قال إيهاب: علينا أنْ نذهب للتوقيع لكي نحصل على التوتن شاين[2] الآن.

---

(١) القبيسيات: جماعة دينية نسائية منتشرة في سوريا خاصة في دمشق، أسستها منيرة القبيسي. قائمة على تحفيظ القرآن ودروس الفقه والوعظ، لا نشاط ولا موقف سياسي للقبيسيات، ويتهمن عادة بأنهن مع النظام، لكن لا يوجد موقف موحد فبعضهن مع النظام وأخريات ضده أو في حالة حياد، معروفات عمومًا بالتشدد الفقهي المذهبي. لديهن أيضًا انتشار محدود في دول أخرى.

(٢) شهادة الوفاة.

دخلنا جميعًا. وقعت على بعض الأوراق، ثُم قيل لنا إنَّ علينا أنْ ننتظر ساعة تقريبًا قبل أنْ نرى جثة أنس.

قال إيهاب: ما رأيكم أنْ نذهب إلى أي مقهى قريب لنشرب شيئًا ريثما يحين الوقت؟

قالت نور: نعم، كافيه إيلا على الزاوية من هنا.

لم أتوقع أنْ توافق. لكني سررت بذلك. ربما على أمل أنْ تعدل من سلوكها معي. أو أنْ يكون لدي فرصة للرد على سلوكها بسلوك مماثل. ما سر هذا السلوك العدائي؟ هل قال لها أنس شيئًا عني؟

في المقهى حاول إيهاب أنْ يدفع عنا جميعًا. حاولت هي أنْ يدفع كلٌّ منا لنفسه وانتهى الأمر بأنْ دفعت أنا.

جلست أمامها بالصدفة، كانت الطاولة صغيرة، تسع لثلاثة كراسي فقط. انتبهت إلى لون عينيها أول مرة هنا. عسليتان صافيتان. بشرتها صافية أيضًا. بيضاء جدًّا. وجهها دائري يوحي بسمنة أليفة لا أثر لها في باقي جسمها. كل ما فيها كان دمشقيًّا جدًّا. واللدغة تضيف سحرًا خاصًا على كل هذا. لكنها جامدة. وعدائية. يجب ألا أنسى هذا. ليست دمشقية جدًّا من هذه الناحية.

قلت موجهًا كلامي لها وأنا متأهب لمواجهة: مِن أين تعرفين المرحوم أنس؟ توقعت أنْ تقول لي: وما دخلك أنت؟ لكنها نظرت لي مباشرة وقالت: من الثورة طبعًا. كنت مع معاذ الصدّاف في الجامعة، ومن خلاله تعرفت إلى أنس، وعملت معه في عمل مشترك هنا في برلين.

من الثورة وطبعًا! الأخت ثورجية[1] إذن. ماذا كنت أتوقع! لكن الآن ليس لي أي رغبة في مناكفتها. في وضعي الاعتيادي كنت سأعلق: ارتحتم الآن؟ (هذه هي الحرية اللي بدكن ياها؟[2]) أما الآن فأنا على وشك أنْ أهتف: الله، سوريا، حرية وبس![3] فقط كي أتجنب ردودها العدوانية.

قلت: نعم، الله يرحمه.

سألها إيهاب: هل انتهى العمل على الفيلم؟

ردت هي: من الناحية الفنية هو جاهز. لكن موضوع عرضه مُعقد.

إذن الحديث عن «عمل إعلامي» يقوم به أنس صحيح. ليس مجرد كلام فيس بوك. كان لدي فضول كبير لمعرفة المزيد عن «الفيلم» لكن فضلت أنْ يحدث ذلك لاحقًا.

وجهت سؤالي لهما معًا: هل اطّلعتما على تقرير الطب الجنائي؟ هزت نور رأسها، وقال إيهاب إنَّ نور أرسلت إليه محتواه.

- وما رأيكما فيما توصل إليه، مقابل ما انتشر على الفيس بوك مِن أنَّ النظام هو مَن قتله؟

«الله أعلم، يمكن جدًّا لجماعة النظام أنْ يرتبوا الأمر كما لو أنَّه انتحر، خبرة وتاريخ في هذا الأمر، لكن نور مقتنعة بنتائج التقرير». قال إيهاب.

---

(١) ثورجية: ناشطة في الثورة.

(٢) واحدة من الجمل التي قيلت في ڤيديو منتشر في أثناء ضرب عنصر أمن لواحد من المتظاهرين وتحولت لتصير جملة رمزية لمعارضي الثورة.

(٣) واحدة من أولى هتافات الثورة السورية.

«أنس انتحر طبعًا. لا شك عندي في ذلك، ومن قبل أنْ يصدر التقرير.. لكن النظام قتله أيضًا». قالت نور بحسم. بالنسبة للثوار، النظام مسؤول عن ثقب الأوزون والاحتباس الحراري أيضًا، فهو مسؤول عن انتحار أنس من باب أَولى.

«انتحر والنظام مسؤول عن ذلك.. كيف»؟ كنت متأكدًا من المنطق الذي سترد فيه نور على سؤالي.

- أنس انتحر كنتيجة طبيعية لكل ما فعله النظام به وبغيره. النظام هو المتسبب الأول في ذلك.

لن أناقش هذا الأمر. لكن لماذا لم ينتحر الملايين غير أنس. هو لم يُعتقَل ولم يُعذَّب ولم يرَ ما رآه عشرات الألوف من الذين لم ينتحروا.

- لماذا أنتِ متأكدة من ذلك قبل التقرير؟ ماذا تعرفين عن الأمر؟

- أنس كان يعاني الاكتئاب، انقطع عن كل أصدقائه.. الأمر كان معروفًا لكل القريبين منه.. وكان قد بدأ بمراجعة طبيب نفسي...

أحسست أنَّ ذلك ضربة شخصية لي. أنا ابن خالته وأتخصص في الطب النفسي. ولا أعرف عن هذا الأمر. هذه خيانة مُهينة. لم أعرف ماذا أقول.

- أيضًا تعرض لنكسة ودخل المصحة لأيام قبل أشهر.

هذه مفاجأة!

- أنس دخل مصحة نفسية قبل أشهر؟! هل كنت تعرف بهذا يا إيهاب؟

هز إيهاب رأسه وقال:

- ليس مباشرة، أخبرتني نور بعدها إنَّ أنس دخل المشفى وإنَّه يحتاج أنْ نكون معه.

رغم ذلك، لم يخبرني بالأمر يوم انتحر أنس، كما لو أنَّ لا عَلاقة بين دخوله المشفى وانتحاره.

- ألا تعرف أني أتخصص في الطب النفسي؟ لمَ لم تخبرني؟

«بصراحة لا أعرف ما تخصصك يا حكيم. أعرف أنَّك في دريسدن.. وكان أنس قد انقطع عن التواصل مع الجميع تقريبًا». قال إيهاب محرجًا.

«لمَ لم يخبرني بنفسه»؟ كنت أكلم نفسي تقريبًا. دخوله إلى المصحة غالبًا كان بإرادته، كان مُدركًا إذن لخطورة وضعه.

«ربما لم يكُن يريد أنْ يتسرب الخبر إلى أهله». قالت نور بلهجة غريبة.

«لكن هذه خصوصية مرضى، بالتأكيد لم أكُن لأخبر أهله». لست متأكدًا جدًّا من هذا، ولكن كان يجب أنْ أقول ذلك.

رفعت نور حاجبيها كما لو كانت تستغرب من استغرابي، ثُم قالت:

- الله أعلم!

كانت تقصد شيئًا بالتأكيد.

«ماذا تقصدين»؟ سألتها مباشرة.

- ربما لم يخبرك لأنَّه لم يكُن يريد أنْ تعرف أمه بذلك.. ألست أنت سطيف العوايني؟!

يا الله. أنس أخبرها عني بكل شيء! أعتقد أنَّ لوني تغير فور هذه الجملة. هل يكون هذا هو سر سلوكها تجاهي؟

- فقط للتوضيح؛ هذا اللقب أطلقه عليَّ عندما كنا صغارًا في المدرسة.. عوايني هنا لا عَلاقة لها بأي شيء مما حدث في ٢٠١١ وبعدها.

«ماذا حدث في ٢٠١١ وبعدها؟ ذكرني يا إيهاب ماذا حدث في ٢٠١١»؟ سألت نور بطريقة ساخرة.

«نور، (هدّي شوي)، واضح ما يقصده الحكيم». قال إيهاب وقد بدا عليه أنَّه تورط بيننا.

«ثورة.. أزمة.. أحداث.. لن نختلف في المسميات، اللقب قديم ولا عَلاقة له بموقف من النظام أو من الثورة». قلت كما لو أنَّ إيهاب طلب مني أنا أنْ أخفف نبرة الكلام.

- نعم، أذكر أنَّه قال إنَّك من جماعة (كنا عايشين) أو (الله يطفيها بنوره)[1] ولم يقُل إنَّك (شبيح).

الحمد لله. على الأقل لست شبيحًا. أنا من جماعة (النظام سيحرق البلد)[2]. كنت في الحقيقة من كل هذه الجماعات في آنٍ واحد، وأحيانًا في النقاشات يمكن أنْ أكون من جماعة (المؤامرة ومحور الممانعة).. على حسب، لكني غالبًا كنت أنتمي لجماعة الأغلبية الصامتة. جماعة (خ××ي على الاثنين).. النظام والمعارضة.

«لو أنَّ جماعة (النظام سيحرق البلد) وقفوا موقفًا أفضل لربما ما كُنا وصلنا إلى أنَّه أحرق البلد فعلًا». قالت نور بتحدٍّ كما لو أنَّنا في نقاش على صفحة الفيس بوك في أول سنة من الثورة.

---

(١) كُنا عايشين، والله يطفيها بنوره؛ مقولات استُخدِمَت شعبيًّا لتبرير عدم دعم الثورة، أو تمنِّي عودة الأمور إلى ما كانت عليه.

(٢) مقولة أخرى كان بعض الذين لا يتعاطفون مع النظام يفسرون بها عدم وقوفهم مع الثورة، لأنَّه سيحرق كل شيء ولا يترك الحكم.

سندخل هنا في متاهة الأجوبة والأجوبة المضادة التي لا تنتهي. أردت أنْ أخفف لهجة النقاش. قلت:

- ربما معك حق، لم يكُن أحد يريد أنْ تصل الأمور إلى ما وصلت إليه.

جاءت النادلة بما طلبناه. إسبرسو لي ولإيهاب ونسكافيه لنور. كانت فرصة لتغيير الحديث. بدلاً من ذلك عمَّ صمت محرج متوتر كسره إيهاب قائلًا: هل تابعتم انتهاء مسرحية داعش أمس؟ آخر معقل لهم أمس سقط بيد قسد[1]. انتهى دورهم في تدمير الثورة فأنهوا وجودهم.

بقدر ما يتعلق الأمر بي، قسد وداعش كانتا مشمولتين بموقفي الحالي تجاه المعارضة والنظام. لذلك فضلت أنْ لا أعلق بأي شيء. لكن اعتراف أنَّ الثورة «دمرت» خطوة جيدة، أعرف أنَّ بعض الثورجية يرفضون الاعتراف بهذا. هل نور يا ترى منهم؟

قالت نور كما لو أنَّها عرفت بما أفكر: «ليست داعش وحدها مَن دمر الثورة، القائمة طويلة، داعش والنصرة ساهمتا في جعل الكثير من الناس في الداخل يفضلون بقاء النظام مقابل احتمالية دخول داعش أو النصرة، لا يمكن إنكار أنَّ سجون داعش بكل رعبها لا تنافس سجون النظام من ناحية الخبرة في التعذيب، لكن الحياة اليومية للناس أفضل عند النظام».

ثورجية إذن ولكنها عقلانية.

أكمل إيهاب: عدا عن أثر داعش على الغرب، بالنسبة إليهم ألف أسد ولا داعش واحد.

فكرت مع نفسي: ليس الغرب وحده يفضل الأسد على داعش. لكن مِن الأنسب أنْ لا أفصح عن هذا الآن. سلوك نور عدائي بما فيه الكفاية دون

---

(١) قسد مختصر لـ(قوات سوريا الديمقراطية) وهي فصائل مسلحة بغالبية كردية، مع وجود فصائل عربية وآشورية/ سريانية، وجماعات تركمانية وأرمنية وشركسية.

هذا التصريح. نظر إيهاب إلى ساعته: علينا أنْ نعود الآن إلى المشرحة، حان الوقت.

خلال دقائق كُنا مرة أخرى في معهد الطب العدلي، هذه المرة كان علينا أنْ نتعرف على جثة أنس ونوثق أنَّه هو.

دخلت أنا وإيهاب إلى صالة ثلاجات الجثث. بقيت نور في الخارج. الثلاجات مصفوفة على الجانبين. لحظات وفتح الموظف واحدة منها بلا مبالاة. أنس في الداخل. أكثر شحوبًا. العلامات على رقبته أكثر وضوحًا. عيناه مغلقتان. فمه مفتوح، كما لو أنَّه نائم. كان يتنفس من فمه في النوم، لكنه هنا لا يتنفس. شاهدت جثثًا كثيرة، منذ أنْ دخلت كلية الطب. أذكر مزيج الخوف والاشمئزاز والرهبة. ثُم تعودت بالتدريج. لكن هذه المرة، المزيج أُضيف له أنَّها جثة شخص قريب مني. هذه المرة أنا أمام جثة أنس. لكن لا مقارنة بين ارتباك الطالب المراهق، وبين فجيعة القريب.

سألنا الموظف إنْ كُنا نؤيد أنَّ هذا هو أنس خزنجي. هززت برأسي. طلب مني أنْ أقول ذلك بشكل مسموع. قلت. وقال إيهاب. وقّعنا على أوراق تفيد أنَّ هذا هو أنس خزنجي. أغلق الموظف الثلاجة. صدر صرير من الباب في أثناء الإغلاق. لو كان أنس حيًّا لهبّ لكي يضع الزيت في مزلاج الباب إلى أنْ يختفي الصوت. بالنسبة إليه صدور صوت كهذا كان مستفزًا. يحفر في أعصابه كما يقول. بالضبط كما يفعل معه الصوت الصادر عن تناول الطعام. لكن أنس الآن جثة. لا صوت في عالمنا قادر على إزعاجه.

خرجنا. كانت نور تنتظرنا. لم تقُل أي شيء. أظن وجهي ووجه إيهاب قالا أشياء كثيرة. لكن ليس نور. بدت جامدة جدًّا. قالت إنَّ عليها أنْ تنتظر الحصول على موافقة الدفن لكي تمررها لمكتب الدفن. ثُم قالت إنَّ هناك

فرصة لكي يُدفن أنس في مقبرة غاتو[1]، رغم صعوبة ذلك لامتلائها.

علق إيهاب لكي يوضح لي أهمية ذلك: «غاتو» يمكن الدفن بالكفن فيها. أغلب المقابر الأخرى لا تسمح بذلك، المتوفى يُدفَن مع التابوت.

أصبحنا الآن إذن نتحدث في الكفن والتابوت. وصلنا إلى هنا. كنت أعول على أنَّ الإجراءات ستأخذ وقتًا أطول كي أتجنب هذا.

شعرت أنَّ ثمة ما ينقص. لن ينتهي الأمر عند الكفن والتابوت وترتيب صلاة الجنازة. أريد أنْ أعرف لماذا انتحر أنس. عرفت كيف انتحر بأدق التفاصيل. التفاصيل التي لم تكُن ضرورية. لكن الـ(لماذا) بقيت غامضة. من الواضح أنَّ الجواب عند نور نجار.

قلت لها: لو سمحتِ، هل يمكن أنْ آخذ رقم الواتس آب الخاص بك من إيهاب؟ هناك الكثير مما ترغب الأسرة بمعرفته عن الفترة الأخيرة من حياة أنس، أرجو أنْ لا يكون ذلك مزعجًا لكِ.

ردت دون أي تردد: «لا مشكلة، خُذه من إيهاب أو سجله عندك».

حدث الأمر أسهل مما تصورت. أتعامل مع الأمر بمقاييس التلطيش[2] والتطبيق[3] في دمشق، وهي تتعامل مع الأمر كما لو أنَّها تعطي رقم هاتفها لعامل التوصيل في البقالة.

أكملت مستدركة: «سيكون علينا التواصل بكل الأحوال لكي تؤكد لي موافقة الأسرة خطيًّا على دفن أنس في برلين».

---

(١) غاتو: مقبرة للمسلمين تقع في جنوب غربي المدينة، أُنشِئَت في ١٨٦٦ للجالية التركية أولاً، ثُم توسعت لتشمل كل المسلمين.

(٢) التلطيش: التحرش عبر الكلام الغزلي.

(٣) التطبيق: بدء التعارف بعد التلطيش.

- خطيًّا؟

- نعم، لا أريد أي مشكلة معهم لاحقًا، وهذا أفضل للجميع، حتى لك.

قالتها بصرامة وحسم. كان يمكن أنْ تقول إنَّ هذا من متطلبات مكتب الدفن. ربما لو كنت مكانها لقلت شيئًا كهذا. أما هي، فرمت الجملة كما هي. كما لو أنَّها تقول إنَّها لا تثق بي أو بهم. الشوام عادةً لا يفعلون هذا. يقولون المضمون نفسه لكن بعد تغليفه بسوليفان لطيف. ربما اكتسبت شيئًا من (جلافة) الألمان. أو ربما كان الأمر فيه شيئًا من صرامة القبيسيات أيضًا.

خرجت مع إيهاب بينما قالت هي إنَّها ستنتظر الورقة المطلوبة. عرض عليَّ إيهاب أنْ يوصلني إلى محطة الحافلات. في الطريق قلت له: تبدو نور مألوفة. أين تسكن في الشام؟

- بيتهم في (ركن الدين)[1] على حد علمي، لكنك غالبًا تعرف والدها.

- مَن هو والدها؟

- الأستاذ نزار نجار. مدرس العربي.

طبعًا أعرفه. أستاذ اللغة العربية المعروف. مِن أهم مدرسي العربية في دمشق.. سجلت عنده في مركز التقوية في العطلة الصيفية التي سبقت الصف الثاني عشر. لكن إذا كانت نور ابنة نزار نجار.. فأمها هي...

هز إيهاب رأسه كما لو أنَّه قرأ ما في ذهني: «نعم، أمها هي هدباء حماصني».

---

(١) ركن الدين: حي من أحياء دمشق، إلى الشرق من سفح جبل قاسيون، وهو من أحياء دمشق القديمة ويعود إلى الفترة الأيوبية، والاسم يعود لأحد ولاة دمشق في العصر الأيوبي، وهو ركن الدين منكورس المدفون في جامع باسمه. يسكن الحي غالبية كردية.

-٥-

ـ في طريق العودة إلى دريسدن اتصلت بي خالتي، كانت هذه أول مرة تتحدث معي منذ اليوم الذي أخبرتها فيه بما حدث. بكت كثيرًا على الهاتف وقالت إنَّها وجدت نفسها مشتاقة للحديث مع أنس فلم تجد إلا أنْ تكلمني. تعودت أنْ تسمع مني أخبار أنس عندما كنا صغارًا، وتريد أنْ تسمع مني عنه أيضًا الآن... حتى لو أعدت لها الأخبار القديمة نفسها. بكت كثيرًا وأبكتني معها. قلت لها ما يجب أنْ يقال في هذه الأحوال. أنا مثل أنس يا خالة. أنا ابنك. كلنا أولادك. مجرد كلام يقال للمواساة. لا أحد يقتنع بفاعليته وصدقه. لا الذي يقول ولا الذي يقال له. لكنه ما يجب أنْ يقال. لا شيء سيعوض الثكلى عن ما فقدته. ربما ليس سوى أمل بلقاء في الآخرة.

لم أتمكن إلا أنْ أفكر مثل طبيب نفسي حتى في مواساتي لخالتي. ثمَّة خمس مراحل للحزن، وغالبًا خالتي في واحدة منها الآن. الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب، ومن ثَمَّ التقبل والاستسلام. مع الموت يصعب الإنكار التام، لكن يمكن لحالة الإنكار أنْ تستمر معها فيما يخص انتحار أنس. إذا كانت قد سمعت بذلك أصلًا. الغضب؟ ممكن جدًّا. الغضب على مَن قتله. أو مَن قاده إلى الهجرة وترك البلد. أبو الثورة على أبو النظام. لكنها لن تصرح بذلك علنًا. فقط «أبو الثورة» في العلن. ربما هي الآن في مرحلة المساومة. ربما اتصالها بي جزء من هذه المساومة. تريد أنْ تعرف المزيد من أخبار أنس كتعويض عن غيابه. تريد أنْ تحصل على أي شيء، ولو

مجرد اجترار ما تعرفه من معلومات وحكايات عنه. لا يزال أمامك الكثير يا خالة. لديك مرحلة الاكتئاب قبل أنْ تتقبلي الأمر وتذعني له.

لا أعرف إنْ كانت مكالمة خالتي أم منظر أنس في الثلاجة هو الذي أثر بي تلك الليلة كثيرًا. حتى أكثر من الليلة الأولى، ليلة رأيته متدليًا من السقف.. لم أفهم لماذا. اللاوعي يعمل بطريقة غامضة. يمارس انتقائية غريبة على ما يحدث حولنا. يختزن كل شيء ولكنه يقرر ما سيستخدمه معنا على نحو غير متوقع.

تلك الليلة حلمت به. حلمت بالثلاجة تُفتح لأجد أنس حيًّا. لكن بشكله كما كان طفلًا. فتح عينيه وقال: عاليمين زكاتك[1]، ثُم هبّ واقفًا وخرج من الثلاجة، خرج من صالة الثلاجات كلها. سرت خلفه، لكني وجدت نفسي في باحة مدرستنا الابتدائية. مدرسة الشهيد عبد الفتاح قطيط في المهاجرين. أرى أنس في طرف الباحة يعطي شيئًا للآذنة الفقيرة في يدها. غالبًا نقود. ثُم يختفي تمامًا. خرجت من المدرسة، تعثرت بدرجها وأنا ألتفت يمينًا وشمالًا بحثًا عن أنس. نزلت على درج جادة جرير المؤدي إلى شارع السكة، شارع ناظم باشا[2]. شممت رائحة الأشجار كما كانت أيام كُنا في المدرسة. الشوارع فارغة تمامًا. لا أثر لأنس. مشيت في الشارع إلى أنْ وصلت إلى موقف المصطبة[3]. فجأة الشارع مليء بناس كثيرين. أغلبهم ألمان. وهناك الصليب المعقوف على الجُدران. يخيَّل لي أنَّ هتلر

(١) عاليمين زكاتك: عبارة تقال لسائق الميكرو أو السرفيس عند الرغبة في النزول، وزكاتك تستخدم هنا من فضلك أو رجاء.

(٢) شارع ناظم باشا: هو الشارع الرئيسي لحي المهاجرين، سُمي على اسم الوالي العثماني حسين ناظم باشا مؤسس الحي والذي عُرِفَ بإصلاحاته، ويُسمى أيضًا بشارع السكة.

(٣) موقف حافلات في شارع ناظم باشا.

شخصيًا يلقي بخطبة في مكان قريب. لست متأكدًا. البيت الذي سكن فيه أنس في برلين فجأة على الشارع. قرب موقف المصطبة. أدخل البيت راكضًا. باب بيت أنس مغلق. أدق الباب بشدة. أستيقظ مرعوبًا قبل أنْ يُفتَح الباب، كما لو أنَّ عقلي الباطن يريد أنْ يحميني من الاصطدام بالمشهد مجددًا.

أحاول أنْ أفهم معنى الحلم، ما الذي يحدث داخلي؟ كيف يتعامل عقلي الباطن مع ما حدث؟ لماذا أنس الطفل ولماذا المدرسة ولماذا المصطبة؟

ربما في لا وعيي أرى أنس في ذلك السن الذي كنت أراه فيه متفوقًا عليَّ. أنس الأشقر الجميل في الابتدائية.

عاليمين زكاتك. اليمين في ثقافتنا هو الشيء الصحيح دومًا. الصواب. سرت خلفه. هكذا كنت دومًا، أحاول أنْ ألحق به. وهو يسبقني بحيث لا أكاد أراه. ليس في الشكل فقط. كنت أعرف تمامًا أنَّ أنس يتفوق عليَّ أيضًا بأخلاقه. كان يساعد الناس على نحو دائم كمبادرة منه. أنا كنت عضوًا في جماعة «نفسي نفسي». لا أساعد إلا إذا وضعت في زاوية «التخجيل» أو إذا رغبت في المحافظة على صورتي أو تحسينها أمام أحد. لكن عدا ذلك أنا منغلق داخل عالم موصدة أبوابه. وكان أنس منفتحًا على الجميع ليس بمعنى المزاح واللعب والقدرة على الكلام مع أي أحد فقط. بل بمعنى المساعدة أيضًا. وكان هذا يغيظني أكثر وأكثر من أنس. مثل زرقة عينيه وبياض بشرته. وربما أكثر.

لماذا المصطبة؟ لماذا ذهبت في المنام إلى هناك؟ حاولت أنْ أذكر إنْ كان هناك شيء محدد في المنطقة يكون له مغزى يربطه بأنس. ربما مركز شرطة المهاجرين؟ لأنَّ أنس «ثائر» على النظام، ومركز الشرطة يمثل النظام. أو لأنَّ الشرطة كان لها وجود في القصة منذ أنْ انتحر أنس.

حاولت أنْ أبحث في غوغل عن محلات أخرى في المصطبة ربما تكون سقطت من ذاكرتي. لكني وجدت شيئًا عن تاريخ الحي كنت قد نسيته تمامًا، وربما بقيَ في عقلي الباطن. المصطبة سُميت كذلك لأنَّها أُنشِئَت لاستقبال الإمبراطور الألماني «فيلهلم الثاني» الذي زار دمشق في ١٨٩٨. لا بد أنَّ هذه المعلومة قد بقيت في ذهني بطريقة ما، وربطتها بألمانيا وأنس، لقد مشيت خلف أنس إلى ألمانيا! ولا بد أنَّ هتلر الذي لم أكُن متأكدًا منه هو «فيلهلم الثاني» الذي سقط اسمه من ذاكرتي. عقلي الباطن يعيدني إلى مشاعري الأولى تجاه أنس ويربطها بكل ما حدث.

لا أعرف إلا أنَّ هذا يجعلني أشعر بالذنب تجاه أنس. أحاول أنْ أقنع نفسي منطقيًّا أنَّ انتحاره يبدو قرارًا منفذًا بوعي مسبق ومخططًا له بعناية. لا أفهم الدوافع الحقيقية لهذا حتى الآن، لكنَّ انتحارًا من هذا النوع من المستبعد أنَّه كان سيتوقف بسبب تدخل صديق أو قريب.

في الغالب كان حرص أنس على ألا أعرف بشيء من متاعبه النفسية لا يعود إلى أني عوايني كما قالت نور، ولكن لكي يمنعني من محاولة التدخل بالأساس. ربما لم يكُن يريد أنْ يظهر لي ضعفه، وهو الذي لم أره إلا قويًّا واثقًا من نفسه. أو ربما بسبب موقفي من الثورة. لم يرغب في أنْ أقول له: هذا ما فعلته ثورتكم.. للأسف مشاعر الذنب لا يمكن إقناعها بالعقل والمنطق. مثل أغلب المشاعر.

خالتي تريد أنْ أحكي لها عن أنس. وأنا أيضًا أريد من نور -رغم عدوانيتها- أنْ تحكي لي عنه.

من الواضح أنَّ صندوقه الأسود، عندها هي. هل كان بينهما شيء يا ترى؟ أم كانت مجرد صديقة عَمِلا معًا في الثورة؟ لا تبدو منهارة على

فقدان حبيب بأي حال. لا يبدو عليها أي شيء أصلًا. عدوانية وباردة ومستفزة هي، ولكن صندوق أسرار أنس عندها. سيكون عليَّ أنْ أتقرب منها لأعرف المزيد عما حدث.

* * * *

لم أجد الوقت مناسبًا للحديث مع خالتي عن «موافقة خطية» لدفن أنس في برلين كما طلبت نور. اتصلت بأمي في اليوم التالي وشرحت لها الأمر.

- خالك معتز قال إنَّ خالتك تريد أنْ يدفن أنس في الدحداح مع أمي وأبي؟

- نعم هذا ما قاله، ليلة اكتشفنا وفاته.

- لم أفارق سلوى لحظة أول خمسة أيام، لم تأتِ على ذكر الدفن من الأساس، أبو أنس في المشفى، وتعرف خالتك، ستتشاءم أصلًا من الحديث عن المقبرة في هذه الحالة.

ثُم سكتت قليلًا وقالت:

- أعتقد أنَّها لم تستوعب الأمر إلا مؤخرًا جدًّا، إذا كانت استوعبته من الأساس الآن.. لكن في الأيام الأولى لم تكُن قد فهمته تمامًا.. أقصد وفاة أنس.

- الله يكون بعونها، لكن لماذا تقولين هذا؟

- تعرف طبعًا أنَّها كانت تتفحص كل فتاة تراها وتسأل عن أصلها وفصلها لترى إنْ كانت مناسبة لأنس؟

- أعرف طبعًا.

وأعرف أنَّها لا تفعل ذلك بمفردها. بل أمي معها أيضًا. غالبًا كل الأمهات الدمشقيات عضوات تلقائيًّا في رابطة «البحث عن فتاة شامية للزواج» لأبنائهن، سواء وَعِينَ ذلك أم لم يعينه. مجسات البحث عن فتاة مناسبة تعمل تلقائيًّا فور تجاوز الابن سن العشرين تقريبًا، حتى لو كانت إمكانية الزواج مستبعدة. الاحتياط واجب.

- في العزاء رأيتها تفعل الشيء ذاته تقريبًا... كما لو أنَّها لا تزال تبحث لأنس... كان الأمر محرجًا جدًّا.

الله يعينك يا خالتي. عقلها الباطن في حالة إنكار أكثر مما تصورت.

- ماذا سنفعل الآن؟ أحتاج موافقة خطية من أحد أفراد الأسرة على دفن أنس في برلين.

- يريدونها يعني مترجمة ومصدقة وخارجية وهذا الكلام أم فقط ورقة بالعربية وفيها موافقة وتوقيع؟

كان يجب أنْ أسأل نور عن ذلك. لكن هذا مبالغ به جدًّا. الفتاة تبدو صعبة بالفعل ولكنها ليست مجنونة لهذا الحد. على الأقل هذا ما أتمناه.

- لا، فقط ورقة لإبرازها في حالة اعترض أحد من العائلة على دفنه في برلين.. الموضوع شكلي، يمكن أنا أنْ أكتبها، لكن أفضل أنْ يكون الخط لسيدة في سن خالتي.. أحيانًا هذه الأمور تكون واضحة.

- حسنًا، سأكتب أنا باسم أمه، وأوقع على أساس أني هي، هل هناك صيغة معينة؟

- فقط إنَّها فلانة والدة المرحوم فلان ولا مانع من دفنه في برلين.

- الله يرحمك يا حبيبي يا أنس ويقوي قلبك يا سلوى على هذه المصيبة.

بعد دقائق أرسلت أمي صورة على الواتس آب ورقة فيها ما طلبته منها، طرف يد أمي وهي تمسك الورقة كان واضحًا، وكذلك جزء من أثاث غرفة المعيشة في بيتنا في المهاجرين، الصوبيا واضحة وكذلك الكرسي الذي يجلس عليه أبي مواجه التلفاز. هذا مقنع أكثر لنور على ما أعتقد. الصورة من الشام بالتأكيد. لم ألفقها هنا في ألمانيا.

أعدت إرسال الصورة إلى نور. قلت لها إنَّ الأسرة شاكرة جدًّا لها ولكل ما تفعله، كانوا يعتقدون أنَّ أحد أصدقاء أنس الشباب هم من يقوم بذلك.

في الحقيقة الأسرة لم تكُن قد سمعت بنور وما تفعله. كان هناك توقع أني أنا وإيهاب نقوم بمتابعة الموضوع. وكان هناك تصور مسبق أنَّ الأمور مُيسرة في ألمانيا، وأنَّ الأمر يعمل عبر الضغط على الأزرار لا أكثر، لكني فضلت «تمسيح جوخ»[1] نور لتلطيف الأجواء لا أكثر.

جوابها جعلني أندم.

- لماذا أحد أصدقاء أنس الشباب هم مَن يقوم بذلك؟ هل الفتيات لا يتحملن المسؤولية مثلًا؟ أم إنَّهن أقل من الشباب بشيء؟

اكتملت محاسنها الآن. قبيسية وثورجية وأيضًا فمنست[2]. مَن يفكر في التورط بالزواج منها؟ لا عجب أنَّها عزباء حتى الآن.

- تعرفين كيف هي نظرة المجتمع التقليدي لهذه الأمور..

قلت وأنا متشبث بمحاولة المجاملة. أرمها على المجتمع التقليدي وأنفد من الأمر. سيبدو هكذا أني لست من هذا المجتمع. كنت على وشك أنْ

---

(١) تمسيح جوخ: تملق.

(٢) فمنست: نسوية.

أقول «المجتمع الأبوي» أو «الذكوري الحقير» بدلًا من التقليدي، لكن هذا سيبدو «تمسيحًا للجوخ» على نحو مفضوح جدًّا.

لم ترد وكأنَّها لم تصدق ما قلته عن المجتمع التقليدي. لو كنت مكانها لِما صدقت أيضًا وقلت في نفسي: هذا ذكر شرقي آخر يحاول التقرب. كان عليَّ أنْ أغير مسار المحادثة.

- آنسة نور.. أشعر بتأنيب الضمير لأني لم أكُن مع أنس في أزمته النفسية. ليس لأني ابن خالته فقط، بل لأنَّ هذا هو تخصصي، أشعر أنَّ مسؤوليتي مضاعفة.

لم ترد أيضًا. كما لو كانت تقول: قصّر. هات من الآخر.

- أرغب في أنْ أعرف المزيد عما مر به أنس، كان في منتهى الإيجابية والنشاط.. كيف وصل إلى الانتحار.. هو لم يُعتقل أو يُعذب، آلاف الأشخاص مروا بأكثر مما مر به أنس، ورغم ذلك هو انتحر بينما سارت الحياة بهؤلاء.

- آلاف الأشخاص؟ رقم متفائل جدًّا دكتور، حسب تقرير منظمة حقوق الإنسان، الأرقام تصل إلى ٩٠ ألفَ مُختفٍ قسري عدا الذين عُلِم بمقتلهم أو حُكِمُوا بالسجن.

لا تدع شيئًا يمر دون أنْ تصححه.

- ربما، لكن فكرتي ستبقى نفسها.. لم ينتحر الجميع، لمَ أنس هو الذي انتحر؟

- أنت الدكتور النفسي.. أنت مَن يعلم كيف تجري هذه الأمور على نحوٍ مختلف مع أشخاص مختلفين.. وأنس لم يُعتقَل فعلًا، لكنه بحكم عمله اقترب جدًّا من أشخاص مروا بتجارب مؤلمة، وأثر هذا عليه.

«هل بدأ الأمر مع استشهاد صديقه معاذ»؟ تعمدت أنْ أكتب استشهاد لكي تحسب لي نقطة عندها.

ردت بعد قليل:

- ربما، لكنه تعرّف لاحقًا إلى أشخاصٍ كثيرين وسجل ما مروا به.

- هل الحديث عن مشروع إعلامي كبير يحرج النظام كان مبالغة فيسبوكية أم أنَّها حقيقة؟

سكتت قليلًا كما لو أنَّها تفكر بما يمكن أنْ تقوله ولا تقوله لي. أنا الرمادي الذي لا موقف حقيقي له بالنسبة إليها.

- أنس عمل فعلًا على إخراج فيلم وثائقي مهم لتسجيل جرائم النظام، لكن هل سيحرج هذا النظام؟ هل هناك شيء يحرج النظام أصلًا؟ لا أعرف.

أذكر أنَّ إيهاب سألها إنْ كانا قد «أكملا العمل في الفيلم». كما لو أنَّه مشروعهما معًا.

- هل أنجز العمل في الفيلم؟

- أنجز فنيًّا. ولكن دخل في الكثير من المواجهات مع الجهة المنتجة...

- أي نوع من المواجهات؟

سكتت قليلًا ثُم كتبت «قصة طويلة».

- هل يمكن أنْ يكون لهذه القصة الطويلة عَلاقة بانتحار أنس؟

- أعتقد أنَّ ذلك سيضاف إلى قائمة أسباب طويلة، لكنه عمل على الفيلم أكثر من ثلاث سنوات، ثُم.. كان بمواجهة احتمالية أنَّ الفيلم لن يرى النور.

- هل يمكنني أنْ أطَّلِع على الفيلم؟

- لا أعرف إنْ كان هناك أي أحدٍ سيطَّلِع على الفيلم!

- يهمني أنْ أعرف ما مر به أنس.. أنْ أطَّلِع على التجارب التي اطَّلِعَ عليها.. أنس ابن خالتي ويهمني أنْ أعرف كيف انتقل من إيجابيته وتفاؤله في الحياة إلى الانتحار.

ردت كما لو أنَّها تريد أنْ تنهي الحديث: إنْ شاء الله.

أكملت أنا: «وأيضًا كسوريّ يهمني أنْ أعرف الحقيقة بحياد وموضوعية بعيدًا عن التسييس الذي حدث».

ردت بحزم: «أي تسييس؟ عملنا يركز على انتهاكات حقوق الإنسان دون أي إشارة سياسية.. لم نجمع إلا ما يحدث من انتهاكات حتى لو كانت من أطراف معادية للنظام، وأنس كان يرفض التمويل من أي جهة يمكن أنْ تكون مرتبطة بجهة سياسية».

انتبهت إلى أنَّ اللدغة تزداد وضوحًا؛ كلما زادت حدة الحوار.. بالفعل. كان أنس يشتم كل أطياف المعارضة بلا تمييز. الإخوان والعلمانيين والدواعش والنصرة وهيئة التنسيق. في واحدة من نقاشاتنا النادرة عن الأمر هنا في ألمانيا قال لي إنَّه بقيَ منتميًا للثوار، لا للمعارضة. عندما سألته عن الفرق.. قال إنَّ الثوار هم الشباب الذين خرجوا ليهتفوا ضد النظام في سوريا دون أي أجندة سياسية. فقط حرية وكرامة. يريدون لسوريا أنْ تكون مثل بقية دول العالم. قال لي إنَّ شعاره المفضل في المظاهرات كان «لا سلفية ولا إخوان، ثورتنا ثورة شبان» شبان ولا شيء غير ذلك، طموحات وأحلام الشباب في عيش كريم في بلد حر.

أما المعارضة فلكل طيف منهم أجندات، لا أجندة واحدة.

- ما هي هذه الشهادات التي غيرت من أنس إلى درجة أنَّه انتحر! هل يمكنني أنْ أطَّلِع عليها؟

- كل الشهادات في الحاسوب عندي. تعرف أنَّه كتب ورقة تفيد أنَّ الحاسوب لي.. لكي أستطيع أنْ أنهي العمل أو الاستفادة مما فيه من مواد... يمكنني أنْ أرسل إليك بعض الشهادات... ربما هناك صور شخصية لأنس سيكون أفضل لو ترسلها إلى أسرته.

في اليوم التالي أرسلت إليَّ لتحدد موعد الدفن. الأحد القادم، المُصادف 31 من مارس، في مقبرة غاتو. الصلاة عليه ستكون في جامع دار السلام، بعد صلاة الظهر. وبعدها نذهب إلى الدفن.

****

في مساء السبت الذي سبق الدفن، تذكرت أنَّ نور ربما لم تعرف ما لم يذكر في التقرير الجنائي.

أرسلت إليها: هل تعرفين أنَّ أنس عندما انتحر كان قد وضع أغنية على الإعادة، ظلت تصدح بصوت عالٍ لثلاثة أيام؟

أجابت: لا لم أكُن أعرف.

ثُم سألت: أي أغنية كانت؟

أجبتها: أغنية أصالة، تتر مسلسل نزار قباني.

ردت بوجه مستغرب. ثُم بوجهين مستغربين. ثُم كتبت: هذه رسالة منه.

- ماذا تقصدين؟ كيف؟

- لا أعتقد أنَّ اختيار هذه الأغنية ووضعها على الإعادة كان صدفة أبدًا.

- رسالة؟ ماذا يقصد بها؟

- رسالة انتحار بالتأكيد.. ولو فتحتم شراييني بمديتكم.. سمعتم في دمي أصوات مَن راحوا.

- لماذا يرسل رسالة مشفرة كهذه؟ لماذا لا يكتب شيئًا واضحًا عن سبب انتحاره؟

- بشعر نزار وصوت أصالة أقوى بالتأكيد. أصبح مسكونًا بأصوات مَن راحوا ولم يعد يحتمل هذا.

- هل تحدث معك عن الانتحار؟

- الانتحار لا طبعًا. لم يقُل إنَّه سينتحر. لكنه كان يقول كثيرًا إنَّه (مخنوق) وقال أكثر من مرة إنَّه يتمنى الموت على هذه الحياة، في الفترة الأخيرة، من شهرين تقريبًا، لم يعد يرد على الاتصالات، فقط يرد برسائل مقتضبة جدًّا.

- هذه علامة أكيدة على تدهور وضعه، هل حاول أحد أنْ يخرجه من وضعه؟

- حاول كثيرون، لكنه قفل على نفسه تمامًا، قال إنَّه يذهب إلى طبيب نفسي وإنَّه يتناول علاجه.

- أعرف أنس منذ الطفولة، كان دائمًا يصلي وحريصًا على الصلاة، لم يكُن ملتزمًا دينيًّا جدًّا بالمعنى السائد، لكنه كان يصلي ومواظبًا على الصلاة، خالتي وزوجها كان لهما تأثير كبير في ذلك، عندما أقمت معه في شقته قبل سنوات هنا في ألمانيا، كان لا يزال حريصًا على الصلاة، ربما يؤخر ويجمع، لكنه كان يصلي دائمًا.

أرسلت هي إشارة استفهام كما لو أنَّها تسأل أين أذهب بهذه المقدمة.

- يوم وجدناه.. انتبهت إلى أنَّ سجادة الصلاة عليها أشياء كثيرة، غالبًا هذا يعني أنَّها لم تُمَس من مدة، لا يعني هذا أنَّه لم يكُن يصلي.. لكن.. هل تعرفين شيئًا عن هذا؟

- أنت على حق. سبق أنْ قال بوضوح إنَّه توقف عن الصلاة، وقال أشياء أخرى كثيرة عن هذا الأمر.

- هل ألحد؟

- لم يعلن عن ذلك، لكن ما عرفه من قصص وحكايات من المُعتقلين جعلته يسأل أسئلة كثيرة، أسئلة هددت إيمانه، ولا أعتقد أنَّه وجد أجوبة، ولا وجد بديلًا.

- لو أنَّه حافظ على إيمانه لربما ما وصلنا إلى هنا.

- بالنسبة إليه، لو أنَّ كل هذه الأشياء التي حدثت والتي عرفها لم تحدث، لِما فقد إيمانه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا لست ملتزمًا جدًّا، أصلي وأصوم ولي أخطائي كما الكثير من الناس، لكني أعي كطبيب أهمية الإيمان في مراحل كهذه، الإيمان والالتزام بالشعائر لا تمنع الاكتئاب أو الاضطرابات النفسية، لكنها تقلل فرص الوصول إلى الانتحار على الأقل.

- حاول معه كنان كثيرًا في هذا الأمر، ولم يفلح.

- كنان! أي كنان؟

- كنان أصفر. الطبيب صديق أنس.

- أعرفه، وهو صديق لي أيضًا، وصديق عزيز، لكن كيف حاول معه؟ هل خرج من السجن، الذي أعرفه أنَّه حُكِم بالمؤبد.

- لا لم يخرج. لكن السجون في سوريا درجات، والسجون المدنية وضعها أهون من سواها.. وبالفساد الإداري والرِّشى ومدير للسجن أقل سوءًا من سواه كل شيء ممكن، لديه هاتف واتصال إنترنت، وكان يتواصل مع أنس ومع سواه.

- كنان الذي في السجن، يواجه حُكمًا بالسجن مدى الحياة، يحاول أنْ يقوي إيمان أنس، الذي لم يُسجَن، والذي يعيش بأمان في ألمانيا؟!

- نعم، سبحان الله. هذا ما حدث، ليس مع كنان فقط، بل مع آخرين مروا بأهوال، ولكنهم لم يفقدوا إيمانهم، هناك كثيرون أيضًا مروا بأهوال وفقدوا كل شيء وجاهروا بإلحادهم.. لكن يبدو أنَّه لا توجد قاعدة عامة مع البشر في هذه الأمور.

- لا توجد قاعدة عامة مع البشر في أي شيء على الإطلاق.

- نعم. صحيح.

- هل يمكنني أنْ أعرف رقم كنان؟ يهمني أنْ أتواصل معه شخصيًّا وأعرف منه أكثر.

- سأستأذن منه أولًا دكتور، وأخبرك.

شعرت أنَّها تغيرت ناحيتي بعد هذه المحادثة. لم تعد عدائية ولا حتى مقتضبة. أصالة أذابت الجليد أو حركت شيئًا. بركاتك يا أصالة. ربما أصبحت نور متقبلة أكثر لي من ذلك اليوم الذي عاملتني فيه كعوايني.

- أرجوكِ، بلا دكتور، يزن فقط.



لم ترد على ما قلت. كما لو أنَّها لم ترَ الرسالة أصلًا. تخيَّلت وجهها بلا ملامح وهي تقرأ طلبي هذا. ربما ستقرر أنْ ترجع إلى أسلوبها الأول في تعاملها معي.

-٦-

ظهيرة الأحد، كان موعد الصلاة على أنس، ومن ثَمَّ دفنه. حضر كثيرون رغم المطر الشديد، شعبية أنس كانت لا تزال قوية رغم فترة عزلته الأخيرة، لم يكُن عدد المصلين عليه يقِل عن خمسين شخصًا على أقل تقدير.

في أثناء حمله في التابوت إلى المدفن هتف بعض الشباب بهتافات «ثورية» كتلك التي كانت تطلق أيام المظاهرات «حرية للأبد، غصبًا عنك يا أسد».. و«يلعن روحك يا حافظ». اختلطت تلك الهتافات مع صيحات «لا إله إلا الله» التي تقال في أثناء حمل التابوت. ساءني شخصيًّا أنْ يتحول الدفن إلى مناسبة سياسية ولكن ما كان يمكن أنْ أعترض. كلهم يعرفون أني رمادي. غالبًا كلهم. وقفت مع إيهاب الأزعط. جاء سامر من دوسلدورف لغرض حضور الدفن. لاحظت أنَّ عَلاقته تبدو رسمية جدًّا بإيهاب. فهمت لاحقًا أنَّ سامر تزوج وابتعد عن رفاقه قبل ابتعاد أنس عنهم.

قبل الدفن تقدم أحد الرجال، وقال موعظة قصيرة عن الموت أنهاها بالتأكيد إنَّ الثورة ستنتصر والنظام سيسقط عما قريب. أبدى معظم الحاضرين تفاعلًا مع الكلمة كما لو كانوا متيقنين من ذلك. فكرت أني كطبيب نفسي ربما لن أرى هذا العدد الكبير من المصابين بحالة الإنكار مجتمعين في مكان واحد كما الآن.

كانت نور ومجموعة أخرى من الفتيات يقفن منعزلات على مقربة منا. لم أستطع أنْ أشاهدها جيدًا ولم يكُن ممكنًا أنْ أقترب منها في أثناء ذلك. مكاني كأقرب شخص إلى أنس كان يحتم عليَّ أنْ أكون في المقدمة. لكني استرقت النظر لها. وجدت نفسي أفعل ذلك مرارًا دون سيطرة على نفسي. كانت تبدو جميلة للغاية. بشرتها ليست بيضاء فقط. بل «مضيئة» أيضًا. ترتدي مانطو داكن اللون. وغطاء رأس أزرق أبرز النور في بشرتها. من بعيد تبدو أجمل. ربما لأني أكون بعيدًا عن مرمى قنابلها.

بعد مراسيم الدفن قيل لي إنَّ «الشباب» سيذهبون إلى مطعم «رزقة» لتناول الغداء، وافقت على الذهاب على أمل أنْ أكون أقرب من نور، لكنها جلست بعيدة عني، تحدث الجميع عن أنس وعن النظام وعن فيلمه الذي لا بد أنْ يرى النور، ووجدت نفسي أتمنى لو أنْ أتحدث مع نور، لكن عبثًا.

أخيرًا، ومع انفضاض الجميع عن المائدة، اقتربت منها بحجة السؤال عن الحاسوب ومحتوياته وما يمكن أنْ ينفع للأجوبة عن أسئلتي. لا أعرف إنْ كنت جادًا في أسئلتي. ربما كنت أريد التحدث معها.

اعتذرت وقالت إنَّها كانت منشغلة في الأيام الماضية لكنها وعدت بأنْ تحضر لي ما طلبته.

قالت: تحضر.. وليس «ترسل».. فرحت أنا لأنَّ هذا قد يعني لقاء آخر.

* * * *

خلال اليومين التاليين وجدت نفسي أفكر في نور عشرات المرات. لم يعد الأمر مجرد هروب من موقف حزين وصادم كما تصورت أول الأمر، بل صار أكثر من هذا بوضوح. كنت منجذبًا لها كما ينجذب أي رجل لفتاة.

وجهها، طريقتها في الحديث، قوتها، حتى لدغتها، كلها أمور جذبتني لها بشدة.

جزء المحلل النفسي مني كان يقول لي إنَّ الأمر أعقد بكثير من مجرد جاذبية أنثى لرجل. المنافسة مستمرة مع أنس بطريقة ما، حتى بعد وفاته.. وهناك فكرة الارتباط بفتاة دمشقية من أسرتين دمشقيتين مائة بالمائة، الفكرة تشبع جزءًا من مشاعر اللاأمان التي عايشتها طيلة عمري، وهناك أيضًا الرغبة في إرضاء أمي وعموم الأسرة بالزواج من فتاة من أسرة شامية عريقة.

حاولت أنْ أجمع أي معلومات عن نور. بحثت عن صورة لها على الواتس آب. لكن الصورة المصاحبة كانت لخريطة سوريا مغطاة بعلم الثورة. وجدت حسابها على الفيس بوك ولكنه كان مغلقًا للأصدقاء فقط، وصورة الحساب كانت ذاتها؛ سوريا وعلم الثورة، ولم تتغير منذ سنوات.

****

بعد يومين تحدثت مع أمي.

- أمي، أريد أنْ أسألك عن فتاة.

ستسألني الآن: مِن أين؟

- ألف إنْ شاء الله خير يا حبيبي، مِن أين؟

تزوجت هي من أبي القادم من دير الزور[1] لأنها أحبته. أما ابنها فيجب أنْ يأخذ شامية.

---

(١) دير الزور: مدينة دير الزور مركز محافظة دير الزور شرق سوريا، وتعتبر قريبة من غرب العراق في اللهجة والعادات.

- مِن الشام، هنا في ألمانيا.

ستسألني الآن: مِن بيت مين؟

- مِن بيت مين؟

- مِن بيت نجار.

- نجار الشام؟

- نعم، نجار الشام.

- إي والنعم والسبعتنعام[1]، بنت مين من بيت نجار.

- بنت نزار نجار.. أستاذ العربي.

لو كان للصدمة صوت لكان هذا الصمت الذي خيم لثوانٍ.

- بنت هدباء؟

- نعم، هدباء حماصني أمها.

- هدباء عندها بنت غير متزوجة؟

- نعم، نور.

- على حد علمي لديها بنت واحدة متزوجة في الإمارات.

سقط قلبي بين قدمي.

- لا يوجد خاتم في إصبعها وهي في ألمانيا، في برلين.

قلت لنفسي إنَّ أمي الآن تهنئ نفسها على ابنها الذي تعرف إلى فتاة ولا يعرف أنَّها متزوجة أو لا، إلا من وجود خاتم في إصبعها.

---

(١) والنعم وسبع أنعام: ونعم القوم سبع مرات.

- طيب. سأسأل لك عن الأمر.. لكن كل هذا غريب جدًّا.

- ما الغريب؟

- خالتك سلوى ذكرت أنَّ أنس الله يرحمه تحدث معها عن بنت هدباء حماصني أيضًا، منذ سنوات.

اللعنة!

- حقًا.. لم أعرف ذلك.. لكني تعرفت إليها من خلال ما حدث لأنس.

- وقت قصير جدًّا.. تربته لم تجف بعد.

فجأة أصبحت أمي من مناصرات المعرفة الطويلة، بينما في الأحوال العادية هي مستعدة لسؤال بنت في السرفيس[1] عن بيت أهلها لتزورهم بغرض الخطبة. فعلت ذلك مرارًا وتكرارًا في رحلة البحث عن زوجة لأخي مأمون، دون نجاح يذكر إلا بعد سنوات.

- ....

- سأسأل لك عنها على أي حال.. ولا داعي للاستعجال.. العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن.

الآن فقط أصبحت العجلة من الشيطان؟ في عيد ميلادي الماضي قبل شهرين ألقت لي أمي بموعظة عن أني قد بلغت التاسعة والعشرين ولا بد أنْ أخطب على الأقل قبل الثلاثين.

أحبطتني أمي. زواج سابق في الإمارات؟ وأنس كان «عينه عليها»! كما لو أنَّ كونها ابنة هدباء حماصني لا يكفيها غموضًا.

---

(١) السرفيس: أو الميكرو، حافلات المواصلات الصغيرة.

-٧-

ينقسم الذين يعرفون هدباء حماصني إلى نوعين. النوع الأول، يحبها جدًّا لدرجة التقديس حرفيًّا. والنوع الثاني، يكرهها ويتهمها بشتى الاتهامات، وإنْ كان في الوقت ذاته يهابها ولا يتحدث عنها علنًا.

كانت هدباء تنتمي لتيار القبيسيات، لم تكُن من الصف الأول من «الآنسات» فيه، لكن كان لها وضعها الخاص بسبب شخصيتها القوية وربما كانت ستصبح من آنسات الصف الأول يومًا ما.. لكنها انشقت عن التيار وأسست مجلسها الخاص وصار لها جيش من النسوة اللواتي لا يحضرن الدروس الدينية إلا عندها، حدث ذلك بعد عام ٢٠٠٠، تحديدًا بعد زواج بشار الأسد من أسماء الأخرس؛ حيث استغلت هدباء قرابة بعيدة تصلها بآل الأخرس لكي تصل إلى زوجات المسؤولين وكبار الضباط في الدولة وعَبْر ذلك وطدت عَلاقتها وتمكنت فعلًا أنْ تحقق شبكة عَلاقات أوصلتها إلى أسماء الأخرس، وإلى شقيقة بشار بشرى الأسد كذلك. كانت شبكة العَلاقات هذه تضمن الكثير من التسهيلات و«الوساطات» التي حصلت عليها هدباء واستخدمتها لزيادة نفوذها، وأيضًا تطّلَب كل ذلك الكثير من «التملق» و«النفاق».

محبوها كانوا يرون وصولها إلى هذه الأماكن علامة قبول ورضى منه عز وجل، وكانوا يروون عنها إنَّ زوجة المسؤول الفلاني قد ارتدت غطاء الرأس وذهبت إلى العمرة على يدها، وزوجة الضابط الكبير العلاني خطبت فتاة محجبة لابنها عن طريقها، وفلانة من الطبقة الحاكمة قد

أعدت وليمة إفطار للفقراء في رمضان، كانت هذه القصص الصغيرة تُروى كما لو أنَّها من كرامات هدباء حماصني التي دخلت إلى «عرين آل الأسد».. حرفيًّا.

أما مَن يكرهها، فقد كان يراها انتهازية منافقة تمردت على آنساتها لتستأثر بالوصول إلى سيدات الطبقة الحاكمة والتسلق للحصول على النفوذ والقوة من خلالهن.

كانت هدباء حافظة للقرآن، ومجازة بعشر قراءات، تعرف الكثير من الأحاديث وتتقن إلقاء المواعظ الرقيقة المؤثرة، وإذا كانت قد عرفت بتساهلها مع زوجات الطبقة العليا وإسماعهن ما يرغبن بسماعه من فتاوى، فإنَّها في الوقت ذاته معروفة بشدتها مع تابعاتها وتلميذاتها وكل من حولها، حريصة على أنْ يطبق كل شيء حسب الشرع والفقه الشافعي، كما يقال إنَّها متجبرة أيضًا على زوجها نزار نجار الذي استفاد هو الآخر من زيادة نفوذ زوجته بالترويج لدروسه، رغم أنَّ أحدًا لم يشكك في قدراته التدريسية وخبرته.

هدباء حماصني لم تكُن فقط محسوبة على النظام، بل كانت من «عظام رقبة»[1] النظام، اجتماعيًّا على الأقل. لذا فانخراط ابنتها في الثورة ضد النظام أمر مستغرب جدًّا، بل وصادم.

ليس هذا فقط، لكن نور تبدو «متحررة» جدًّا بمقاييس أمها المتشددة. صحيح أنَّها ترتدي غطاء للرأس، لكن أي فتاة ترتدي كما تفعل نور وتدخل إلى مجلس هدباء ستواجه بغضب شديد ولوم وتقريع من هدباء ومن حولها، وقد تُطرَد من المجلس.

---

(١) تعبير دارج في سوريا للدلالة على شدة القرب.

زاد كل ذلك من جاذبية نور عندي. موقفها هذا يعني أنَّها قوية الشخصية، صلبة، لا يهمها نفوذ أمها ولا جبروتها. المرأة القوية قد تخيف بعض الرجال، لكنها قد تكون جذابة أكثر للبعض الآخر. كل الذين أعجبت بهن كن قويات الشخصية، شخصية المديرة أو المحامية، لا شخصية السكرتيرة المغناجة الضعيفة. أحببت مرتين في حياتي، أو ربما كان إعجابًا توهمت أنَّه حب، وفي الحالتين كانت الفتاة قوية الشخصية، جميلة نعم.. لكن قوة شخصيتها جذبتني أكثر من جمالها. شيء ما في المرأة القوية كان يجذبني.

طالما حاولت أنْ أفهم سر انجذابي للمرأة القوية. وصلت إلى أنَّ المرأة القوية تشعرني بأني قوي، كأنَّ مجرد قبولها بي سيجعلني أكثر قوة. كأنَّ قبولها بي سيقنعني بقوتي أنا. لكن رفضها لي سيكون له آثار كبيرة على تصوراتي عن نفسي.

غالبًا الأمر مرتبط بأمي. كانت قوية هي الأخرى. أحبت أبي وكان زواجهما يبدو مستحيلًا. دمشقية من «القنوات»[1] وهو قادم من دير الزور وفي بداية حياته المهنية. تحدت الجميع وتحملت رفض الجميع ومن ثَمَّ احتوت الجميع. ومن ثَمَّ دعمت أبي ليصبح محاميًا ناجحًا وفرضته على كل مَن رفضه في البداية.

والآن.. نور نجار بدت لي قوية منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. من وقفتها.. ثُم تتكشف الأمور أنَّها قوية بالفعل. قوية لتتحدى هدباء حماصني في أمر لا بد أنَّ هدباء اعتبرته في منتهى الخطورة. هذا زاد من جاذبيتها.

---

(١) القنوات: من أعرق أحياء دمشق، كان يعتبر حي الأثرياء ابتداء من العهد العثماني.

حتى فكرة أنَّ أنس كان قد تحدث لخالتي عنها. من الواضح أنَّ الأمر لم يتم. ربما كانت نور قد وضعته في منطقة الصداقة، وهو وضعها في منطقة (الحديث مع الأم). مجرد احتمال أنَّ أنس كان يحبها وهي لم ترتبط به تمنحها جاذبية أكثر.. ربما ستقبل بي أنا.

لكن، زواج سابق في الإمارات؟ هنا لست متأكدًا. هذا يعني أني لن أكون الرجل الأول في حياتها. هذا ليس بعدل. أنْ تكون هي المرأة الأولى في حياتي بينما لست كذلك بالنسبة إليها. في الشرق عادةً، الأمر يجيء معاكسًا. في الغرب يكونان متساويين ربما. لكن، هنا، معي ومع نور.. جاء معاكسًا لِما في الشرق والغرب.

جزء مني قال: معك ومع نور؟ يبدو أنَّك عشت الدور أكثر مما يجب. نور ربما تضعك في دائرة «غير المفكر بهم» أصلًا.

جزء آخر قال: ربما كونها مطلقة يزيد من إمكانية قبولها بك. ليس شرطًا أنْ تقبل بك دمشقية. في النهاية أنت ديري[1] حتى لو كانت لهجتك شامية وأمك شامية. لكن دمشقية مطلقة؟ غالبًا لن تمانع.

لم أعرف إنْ كان عليَّ أنْ أشعر بالسعادة أو الإهانة لهذه الاحتمالية.

على فرض أنَّ نور ستقبل بي.. هل أستطيع فعلًا أنْ أتخطى عقدة «الرجل الأول»؟

* * * *

أرسلت نور رقمًا بمفتاح سويدي، ثُم كتبت: هذا رقم الواتس آب لكنان أصفر. سألته ورحب بالتواصل معك، وذكرك بخير كثيرًا.

---

(١) نسبة إلى دير الزور.

فرحت كطفل تقول له أمه إنَّ الآنسة في المدرسة أثنت عليه.

أردت أنْ أسألها فورًا عن حكاية زواجها في الإمارات. لكني نجحت في منع نفسي.

شكرتها، وأنا حائر ماذا عليَّ أنْ أكتب لها بعد الشكر، أريد أنْ أكتب أي شيء، أنْ تكون لدي حجة في الحديث معها، وفي الوقت نفسه كنت ممتلئًا بأسئلة عن كل شيء.

- هناك شيء يجب أنْ تعرفه عما حدث لكنان، وربما يجب أنْ تتجنب السؤال أو الحديث عنه.

- ماذا حدث؟

- زوجته طلقته. أجبر على الطلاق منها بالأحرى.

رباه! روان طلقت كنان؟ كانت قصة حبهما هي الأجمل في الكلية. عندما دخلت الكلية كانا في المرحلة الثالثة، كان منظرهما في الحديقة تحت الأشجار بين مبنى عمادة الكلية ومبنى المدرجات من المشاهد المألوفة المحببة بالنسبة إلى كل الطلاب. كانا حرفيًّا «النموذج» الذي يسعى أغلب الطالبات والطلاب إلى الحصول على «نسخة» منه.

والآن، الطلاق!

«لا يمكن لوم روان بسهولة. حُكِم عليه بالسجن المؤبد. وهي شابة ولم يحدث حمل لهما، لا بد أنَّ أهلها قد ضغطوا عليها». كتبت مُغالبًا صدمتي.

- صحيح، لكن الطريقة التي حدث بها.. ليست مناسبة جدًّا.. لم تجد من يتعاطف معها في الطريقة.

- كيف؟

- نُودِيَ عليه. وجدها عند المحقق. قال له السجَّان: طلق الآن. لم تعلق هي. لم تنطق بكلمة. سكت كنان. هدده السجَّان فورًا بالكرسي الألماني.

- الكرسي الألماني؟

- وسيلة تعذيب معروفة في معتقلات النظام، هل تريد أنْ تعرف التفاصيل؟

- آسف، لا. شكرًا جزيلًا.. لا أريد.

- هذا أفضل... وجد كنان روان غير معترضة على ما يحدث.. فرمى كنان عليها يمين الطلاق، ووقّع ووقّعت. وانتهى كل شيء.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. كنان لا يستحق أيًّا من هذا، ورغم كل شيء هو من كان يحاول تثبيت أنس على الإيمان؟

- نعم. سبحان الله. كلما أصابني يأس أو ضعف أنظر إلى كنان الذي لا يترك حمد الله فلا أستطيع إلا أنْ أحمد الله أنا أيضًا.

هل هذا دور كنان لكي أشعر بالغيرة منه؟ لا. لن أصل إلى هذه المرحلة. أنا أغار من أنس فقط لأنَّه يمثل عُقدي الطفولية ومشاعر اللاأمان الداخلية التي أحاول تجاهلها أو السيطرة عليها.

مرت ثوانٍ لم يرسل أحدٌ منا أي شيء. لكنها كانت لا تزال أونلاين كما لو كانت تنتظر أنْ أرسل إليها شيئًا. أو ربما كانت تتحدث أصلًا في الوقت ذاته مع أيٍّ كان ولكني فضلت أنْ أتصور أنَّها كانت أونلاين لأنَّها تتحدث معي فقط.

- لدي سؤال لو سمحتِ: هل تعملين هنا في مجال تخصصك: الهندسة المعلوماتية؟ أحتاج إلى شخص خبير بإنشاء المواقع على النت.

لم أكُن بحاجة إلى شيء في هذا المجال، ولم أكُن واثقًا من عَلاقة الهندسة المعلوماتية بإنشاء المواقع على النت. لكني كنت أرغب بإطالة الحديث معها.

- لا. لم أُنْهِ دراستي للأسف. كنت في السنة الثالثة وفُصلت من الجامعة بسبب اشتراكي في الثورة، أدرس الآن الإعلام في جامعة برلين الحرة.. مع تخصص فرعي في العلوم السياسية.. أتخرج خلال فصلين إنْ شاء الله.

ابنة هدباء حماصني تُفصل من الجامعة؟! ماذا فعلتِ يا ترى بحيث لم تشفع لك أمك وعَلاقاتها.. أم أنَّها فضلت أنْ تنأى بنفسها عن حمايتك كيلا تتأثر هي؟

- وعلى ذكر الدراسة.. عليَّ أنْ أذهب الآن كي لا يتأخر تخرجي فصلًا آخر.

-٨-

في الأيام التالية، حاولت أنْ أتجنب الاتصال بنور. لا أعرف تمامًا إنْ كنت أختبر نفسي أم أختبرها. كنت أنتظر أنْ ترسل هي برسالة أو تتصل. لكن ذلك لم يحدث.

رغم ذلك، كنت أفتح حسابها على الواتس آب لأرى إنْ كانت متصلة أو لا، أو أتحقق من آخر ظهور لها. صرت أعرف أنَّها تنام تقريبًا في الحادية عشرة مساءً، أو على الأقل هذا آخر ظهور لها في المساء، تستيقظ في السادسة صباحًا.. تختفي تقريبًا لثلاث أو أربع ساعاتٍ في النهار دون أي ظهور، غالبًا تكون في الجامعة لكن لا وقت محدد لهذا الاختفاء، دخلت أيضًا على جدول الدروس في الجامعة لكن بما أني لا أعرف المواد التي سجلت فيها فلم يكُن هناك فائدة من ذلك.

عندما أراها متصلة أشعر بالحرج كما لو كانت قد ألقت القبض عليَّ متلبسًا بالتلصص، رغم أنَّ احتمالية انتباهها إلى كوني متصلًا أيضًا تكاد تكون معدومة.

شعرت ببعض الارتياح الداخلي لأني قاومت الاتصال بها. لكن هذا الارتياح تبخر عندما واجهت نفسي بحقيقة أني قد أعد «متلصصًا» حسب تعريف جمعية الأطباء النفسيين الأمريكية. صحيح أنَّ التلصص درجات، تبدأ عند ما أفعله (أونلاين) وتنتهي عند الملاحقة الفعلية والإزعاج أو الأذى المباشر، لكنه «تلصص» على أي حال.

تذكرت ما كنت درسته عن وصف المتلصصين لأحوالهم، من أنَّ الأمر بالنسبة إليهم «قهري» تمامًا، وأنَّ قيامهم به يشبه الإصابة «بنوبة ذعر» تجبرهم على تلصصهم لكي يشعروا ببعض الراحة.

قارنت نفسي بذلك، ووجدت الأمر للأسف صحيحًا، الأمر يشبه «نوبة ذعر» بدرجة ما، ولو أنَّ نور كانت قد ألغت خاصية آخر ظهور، لكان وضعي أصعب وذعري أشد، ولربما اضطررت للتواصل معها مباشرة.

لكن هل يمكن أصلًا أنْ لا يحتوي الحب -أو الإعجاب أو أيًّا كان هذا الذي أشعر فيه- على درجة من درجات التلصص؟ على الأقل في مراحله الأولى.

أصلًا، ما هو الحب من وجهة نظر «علم النفس»؟ غالبًا ليس سوى مجموعة من العقد ومشاعر اللاأمان التي تجتمع لتجعلنا نتمسك بالقرب من شخص ما، لأنَّ القرب من هذا الشخص يحفز سيالات عصبية معينة في أدمغتنا، وهذه السيالات بدورها تجعلنا نشعر بالسعادة.

ربما عليَّ أنْ أقرأ المزيد عن هذا، لكي أفهم هذا الذي يحدث معي.

* * * *

أرسلت رسالة إلى كنان عبر الواتس آب. فعلت ذلك بحذر، كما سيفعل أي سوري إذا اتصل بشخص في السجن... لم أعرّف بنفسي باسمي كاملًا، بل قلت بدلًا عن ذلك: «أنا زميلك، قريب المرحوم أنس خزنجي، كنت بعدك بسنتين في الكلية».

بعد قليل رد كنان بوجه ضاحك، كأنَّه يضحك على خوفي وأنا خارج سوريا، ولا مبالاته وهو في داخل السجن في سوريا. لكنه كان متفهمًا

لمخاوفي، لم يذكر اسمي خلال كل المحادثة كيلا يحرجني. تدارك ضحكته أولًا بتعزيتي بأنس.

سألته بعد الكلام التقليدي: كيف أنت؟

كنت أعني «كيف أنت حقًا».. لا السؤال بالطريقة التقليدية التي هي جزء من السلام والتحية.

رد عليَّ برد جعل الشعر يقف في كل جسدي.

كتب: «الله من فوق طامرني برحمته وكرمه وفضله من رأسي إلى قدمي».

لم أستطع الرد. شخص محكوم بالسجن المؤبد يقول هذا! ليس أي شخص.. بل طبيبًا حديث التخرج كان يفترض أنْ تكون حياته المهنية أمامه، أو على الأقل هذا ما يفترضه الأطباء حديثو التخرج.. شخص تزوج لمدة شهر فقط من حبيبة عمره، ثُم أُجبِر على تطليقها وهو في المُعتقل.

ثُم يقول: «... الله طامرني برحمته وكرمه وفضله...».

قلت لنفسي: هذه حالة نموذجية للإنكار النفسي في أقصى حالاتها. أنْ يشعر شخص كهذا بأنَّه بخير -بل بأنَّه بخير للدرجة التي عبر عنها- أمر لا يمكن فهمه إلا من خلال أنَّه لجأ دون وعيه إلى «الإنكار» كحيلة للتأقلم مع واقعه السيئ.

حتى لو كان يكذب فيما يكتبه أمامي، لا يمكن أنْ يفعل ذلك دون وجود الإنكار.

كتبت: الله يديم رحمته وفضله يا رب. ثُم محوتها. قد تبدو كسخرية. هكذا قرأتها شخصيًّا بالنظر لظروف كنان.

كتبت بدلًا عن ذلك: ونعم بالله، أرحم الراحمين.

هكذا أفضل.

كنت مرتبكًا ومحرجًا. كيف يمكن أنْ أتجاذب أطراف الحديث مع شخص في وضع كنان. محكوم بالمؤبد. أضاع مهنته وزوجته وحياته.

سألته: «أحببت أنْ أسألك عن أنس، قالت لي نور إنَّك كنت تتواصل معه، ولا أعرف إنْ كانت قد أخبرتك عن حقيقة ما حدث له»؟

قياسًا على حالة الإنكار التي قدرت أنَّه يعيش فيها، من المنطقي جدًّا أنَّه يعتبر أنَّ أنس قد قُتِل من قِبَل النظام.

- نعم، أخبرتني، للأسف، أعرف أنَّه انتحر، رحمه الله.

هذه خطوة جيدة على طريق... طريق لا أعرف ماذا.

- نعم، رحمه الله وغفر له، لكن يهمني أنْ أعرف كيف ولماذا.. أنس كان شخصًا إيجابيًّا للغاية كما تعرف، ولم يكُن يعاني أي اضطرابات نفسية، عرفته عن قرب لأكون متيقنًا من ذلك، وأعتقد أنَّك تتفق معي في هذا، كيف يتحول شخص كهذا كل هذا التحول، بحيث ينتحر؟

لم يأتِ رد من كنان. ثُم أرسل إليَّ بوجه يبكي. كما لو أنَّه يتفق معي ويريد مني أنْ أستمر. «وكان مؤمنًا أيضًا. ربما لم يكُن متدينًا جدًّا، لكنه كان مؤمنًا حريصًا على الصلاة». هنا لم يرسل كنان بشيء، كما لو أنَّه لا يرغب بتأكيد شيء أو نفيه.

- كنت لاحظت ما قد يدل على أنَّه انقطع عن الصلاة في شقته، يوم وجدناه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- وقالت لي نور إنَّ الأمر كان معروفًا بينكما، وأنك حاولت معه كثيرًا.

- بالفعل، حدث هذا، لكني لا أعرف إنْ كان يمكنني الحديث عن ذلك وقد أصبح أنس عند ربه.

- يهمني أنْ أعرف ليس بصفتي قريبًا له، بل طبيبًا أدرس تخصص الطب النفسي، يهمني أنْ أعرف أثر الصلاة والانقطاع عنها على مَن يعانون من آثار ما بعد الصدمة، على فرض أنَّه كان منهم.

- حسنًا، تفضل وإنْ شاء الله أبذل كل ما وسعي.

- متى بدأ الأمر في تصورك، متى بدأ أنس يفقد إيمانه؟

- لا أعتقد هناك نقطة فاصلة في ذلك، غالبًا كانت هناك تراكمات صغيرة وكبيرة جعلته بالتدريج يفقد إيمانه، لم يحدد هو في أثناء الحوار معي نقطة صدمته. كانت هناك تفاصيل كثيرة في رأسه. لكن لم يذكر حدثًا كبيرًا واحدًا بدأت بعده الأمور تتدهور بالنسبة إليه.

- هذا غريب. تعرف أنَّ أنس لم يُعتقَل أصلًا، وأنَّ كثيرين جدًّا تعرضوا للاعتقال والتعذيب ولكنهم لم يفقدوا إيمانهم.. بينما أنس...

- لكن لا يمكن قياس الأمور هكذا، (أصابيعك) مو مثل بعض.

- صحيح.. لكن أنس وصل إلى الانتحار... أليس هذا كثيرًا؟

- كثير أكيد... لكن تماسه مع قصص المُعتقلين كان مباشرًا والتفاصيل التي رواها لي كانت مؤلمة جدًّا.

- المُعتقلين الذين رووا له ما مروا به لم ينتحروا.. وهو انتحر.

- كانت جرعة مكثفة من قصص الاعتقال تلك التي تعرض لها أنس.

- هل تعتقد أنَّ الأمر بدأ مع استشهاد معاذ؟

- ماذا تعرف عن هذا الأمر؟

- لا أعرف الكثير.. وُجِدَ مقتولاً وجثته مُشوَّهة. رحمه الله.

- صحيح. كانت صدمة كبيرة لأنس، كنت قد اعتُقِلت وقتها ولم أعرف إلا لاحقًا.. بعدها بسنوات، لكن أنس عندما تحدث معي بالأمر كان متألمًا غاية الألم، تستطيع أنْ تتخيَّل طبعًا، أنا أيضًا صُدمت من الأمر.

- نعم، لهذا سألتك، ربما كان هذا هو الحدث -الصدمة- الذي جعله يتفاعل مع قصص المُعتقلين على نحوٍ مختلف، على حد علمي، معاذ وأنت كنتما أقرب شخصين له، ولعلّ ما حدث لمعاذ هو أكبر حدث يتعرض له شخص قريب من أنس.. كل المُعتقلين الذين رووا ما حدث لهم لم يكُن لدى أنس عَلاقة شخصية بهم.. على حد علمي.

- يمكن أنْ تصبح هناك عَلاقة شخصية في أثناء اللقاء وتحضيراته.. هناك لقاء ما -ربما في ديسمبر أو أواخر نوفمبر الماضي- أحدث أثرًا كبيرًا في أنس.

- كيف حددت هذا التاريخ؟

- أرسلت إليه رسالة أبارك فيها بفوز ريال مدريد على فالنسيا، كانت المباراة في أوائل ديسمبر، فاكتشفت أنَّه لم يتابع المباراة وأنَّه كف عن متابعة الدوري الإسباني... وأنت تعرف أنَّ هذا غير طبيعي بالنسبة إلى مشجع مدريدي متحمس مثل أنس، علمًا أنَّه كان حزينًا جدًّا لخسارة ريال مدريد أمام إيبار قبل أسبوع واحد فقط.

صحيح. لا بد أنْ يكون هناك شيء قد حدث بين المباراتين. بداية ديسمبر، بعدها بثلاثة أشهر ونصف انتحر أنس.

- هناك عامل مهم آخر صدم أنس.. يتعلق بداعش والنصرة وما يشابهها من تنظيمات. لم يكن لدى أنس أي تعاطف مع أي تيار سياسي... أظنك تعلم هذا؟

- صحيح كان يسب الجميع من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وكانت نظرته إلى هذه التنظيمات أسوأ أساسًا... لذا لا أعتقد أنه قد صُدم بها...

- لم يُصدم بها. لكن ما صدمه كان تأثر الناس بها، صُدم بوجود مَن يصدق خطابهم ويعدّه ممثلًا عن الإسلام. بعض هؤلاء كانوا أصدقاء لنا، ربما تعرف بعضهم، كانوا أشخاصًا عاديين تمامًا، مثلنا، بل أنَّ واحدًا منهم كان يؤمن بشدة باللاعنف، ويقرأ لجودت سعيد[1]، ثُم فجأة، حصل هذا الانقلاب المخيف، من جودت سعيد والورود والبالونات في المظاهرات إلى خطاب داعشي صادر من شخص يتحدث من اليوتيوب ولم يطأ سوريا يومًا بقدميه...

---

(١) جودت سعيد: (١٩٣١) مفكر سوري لا عنفي، يعتبر من أهم مفكري اللاعنف بين الإسلاميين.

- عمن تتحدث؟ مَن انتقل مِن جودت سعيد إلى داعش؟

- عبادة الآغا!

- عبادة أصبح داعشيًّا؟

أذكره تمامًا من المدرسة. مهذب ورقيق ومحبوب، من الصعب جدًّا وضعه في سياق الصورة الذهنية للدواعش.

- عبادة التحق بفصائل مسلحة عديدة... ثُم التحق بالنصرة، ثُم تركها والتحق بداعش، قتل بعدها في مواجهة مسلحة بينهما.. حروب بين «إخوة المنهج» ممهورة بفتاوى وتنظيرات من مُلهمه الذي يرشد هذا التنظيم أو ذاك من خارج سوريا.

«عبادة داعشي»! كتبت وأنا لا أزال أحاول استيعاب الأمر.

- كل هذا كان صادمًا لأنس، كيف يمكن لإنسان أن يتحول هذا التحول السلبي.. كيف يمكن أنْ تطوع النصوص الدينية لتستخرج الوحش داخل الإنسان هكذا؟

- مفهوم.. مفهوم تمامًا.

- اعذرني يزن.. مضطر الآن لتركك، ليس الوضع متاحًا لدي دومًا للحديث على الواتس آب. سأرتب أفكاري فيما يخص سؤالك عن أنس وآخرين، وأرسلها إليك لاحقًا.

شكرته بصدق. كنت سعيدًا أني تحدثت معه. رغم أنَّ ما قاله لم يكُن باعثًا على السعادة. أحببت كنان دومًا واعتبرته مثالاً وقدوة، وشعرت منذ البداية أنَّه تعرض لظلم كبير في كل ما حدث له. لأول مرة في حياتي شعرت

أنَّ للإنكار فوائد كبيرة. حتى لو كان ما يشعر به محض إنكار ليتأقلم مع واقعه، ليكن. هذا أفضل من الاكتئاب والموت البطيء.

أرسلت إلى نور، كتبت لها إني تواصلت مع كنان، وشكرتها على رقمه.

سألتني إنْ كان قد قال شيئًا يمكن أنْ يساعدني في فهم ما حدث لأنس.

رددت بأنَّ الوقت لم يكُن متسعًا للحديث بالتفصيل عن أنس، لكنه وعدني أنْ يرسل إليَّ بعض التفاصيل. قالت: إنْ شاء الله. ثُم أرسلت ما جعل الدم يجمد في عروقي.

كتبت: «وأنت؟ وين مختفي»؟

****

لا أعرف كم مضى من الوقت قبل أنْ أرد عليها بأني مشغول في المشفى وأني أخشى أنْ أشغلها عن دراستها إذا راسلتها كثيرًا.

لم أكُن أصدق أنَّها كتبت هذا لي. وين مختفي. بدت الكلمة كما لو كانت أجمل غزل يمكن أنْ أسمعه في حياتي. لو كان هذا مشهدًا سينمائيًّا لوضع المخرج فيه موسيقى رومانسية ولرأيت فراشات تخرج من الهاتف.

ثُم قالت كما لو أنَّها تخفف مما كتبته:

- قلت إنَّك تريد أنْ تطلع على بعض ما جمعه أنس من مشاهدات ووثائق.

- نعم، بالتأكيد.

«لكني أحتاج أنْ تطلع أنت على العمل أو أجزاء منه» شعرت بسرور غامر. تحتاج رأيي في عملها.

- هذا أمر يشرفني طبعًا.

- قصدت أنَّ الفيلم موجه لمن -لا تؤاخذني في الكلمة- لم يتخذ موقفًا مما حدث في سوريا، لذا يهمني معرفة رد فعلك شخصيًّا.

أوف. ستجعل مني فأر تجارب لقياس تأثير الفيلم إذن.

سقطت من سابع سماء. الموسيقى الرومانسية ماتت بسكتة قلبية والفراشات تبخرت.

- لست بلا موقف لهذه الدرجة يا نور. هذا ظلم. يهمني عمومًا الاطلاع على الفيلم.

كنت فعلًا كما قالت. موقفي الوحيد حاليًا كان سب الجميع. الثوار والنظام. بمقاييس نور كان هذا حيادًا و«لا موقف». ربما كانت على حق.

- ظلم؟ ستعرف ما هو الظلم فعلًا لو رأيت تلك المقاطع.

- لا بأس.. على راسي، تكرم عينك.

- سأرسلها إليك عبر روابط على الإيميل أو الواتس آب، لكن يجب أنْ تقوم بتحميلها.

رأيك يهمني بالفعل أيضًا لأنك طبيب نفسي... تستطيع أنْ ترى ما لا يراه الآخرون.

شعرت أنَّها تريد أنْ تهون على فأر التجارب حقيقة واقعه.. تعطيه وسامًا فخريًّا يوهمه بأهميته.

رغم كل شيء، لقد قالت لي: «وين مختفي» وهذا شيء مهم.

ليلتها، وأنا أتقلب في السرير، طرأت على ذهني فكرة مفاجئة. قمت من تقلُّبي إلى الحاسوب، لم أنِر المصابيح، شاشة الحاسوب وحدها كانت مضيئة في عتمة الغرفة. خلال أقل من ساعة عدت إلى السرير. قدمت للعمل في ثلاثة مستشفيات في برلين.

سأنتقل إلى هناك. لم أحب دريسدن على أي حال. إنَّها معقل حركة «بيغيدا»[1] المعادية للمهاجرين. كانت كذلك منذ أنْ وصلت إلى ألمانيا تقريبًا. لكني أريد أنْ أبرر انتقالي إلى برلين بشيء لا عَلاقة له بنور.

(١) بيغيدا pegida: حركة «وطنيون أوروبيون ضد أسلمة الغرب»، انبثقت في دريسدن عام ٢٠١٤ .

شهادة -١-

أيوب الشامي/ اسم مستعار/ وجه مموه/ صوت دون تغيير

فرع ٢١٥ أمن عسكري

«اعتُقِلت عندما ذهبت لأسأل عن أخي. دخلت بقدمي إلى الفرع وقابلت العقيد ***** لكي أقابل أخي... طلب مني أنْ أرجع في اليوم التالي مع نقود وطعام لأخي... وفي اليوم التالي ذهبت ومعي المطلوب فاعتقلوني... لم يكُن لي أي عَلاقة بشيء، لا بالمظاهرات ولا بثورة ولا شيء إطلاقًا. لكنهم اعتقلوني أيضًا».

«سألني المحقق إذا كنت أعاني متاعب صحية معينة. فقلت له لدي متاعب مزمنة في الجيوب الأنفية. فكان جوابه: اطمئن. سنضبطها لك».

«علقوني من أنفي بالشنكل[1]. كانوا يضعون طرفه الحاد في فتحة أنفي، ثُم يسحبونه بالتدريج حتى أرتفع عن الأرض. ليس ارتفاعًا كاملًا. أصابع القدمين كانت تمس الأرض بأطرافها. أحاول أنْ أستند عليها بينما كانوا يرفعونني من أنفي. تهشم أنفي تمامًا وأصيب بجرثومة لا علاج لها. أجريت أكثر من خمس عمليات في فرنسا الآن حيث أقيم كلاجئ، ولا علاج لأنفي».

«كانوا يربطون الخصيتين والقضيب بحبلين، ويربطوهما بكيس بينما أكون معلقًا... ويتضاحكون خلال ذلك قائلين لي إني لن أستطيع الإنجاب

---

(١) الشنكل أو الجنكل: الخطاف أو الكلاب المعدني الذي تعلق فيه الذبيحة في محلات الجزارة، واللفظ تركي ويعني مخلب في الأصل.

بعد الآن. عملت أكثر من عملية في خصيتي بعد ذلك، لكني أنجبت بعدها، الحمد لله».

«كان هناك صوت فتاة تصيح وتستغيث. تجرأت وقلت للسجَّان أنْ يعتبرها أخته. جلبها، وتناوب أربعة عساكر على اغتصابها أمامي. أمامي. اسم الفتاة ياسمين[1]. وكانوا يقولون لي لن نكف عن اغتصابها إلا إذا سخرت منها وشتمتها. كانت تتوسل بي أنْ أفعل ما يريدون».

«كُنا نسمع صوت نسوة يستَغِثنَ طيلة الوقت.. وكانوا يقولون لي هذه أختك فلانة تُغتصب الآن، والآن دور أمك.. أو دور زوجتك، هل تريد أنْ نغتصبها أمامك؟ كانوا يقولون الأسماء. اسم شقيقاتي وزوجتي وأمي. ولم يكُن ممكنًا تمييز أصوات الاستغاثة. كنت مقتنعًا تمامًا بأنَّهم قد اغتصبوا أمي وشقيقاتي وزوجتي».

«كلما كنت أفقد الوعي بعد التعذيب كنت أتمنى أنْ لا أستيقظ أبدًا. كنت أدعو الله أنْ يأخذ أمانته لكي أرتاح. أعتقد أنَّ هذا كان دعاء الجميع».

«بقيت ٤٦ يومًا في المُعتقل. أُفرج عني دون توجيه أي تهمة لي...».

«لا أعرف ما حدث لياسمين. كانت لهجتها تدل أنَّها من دمشق. أتمنى أنْ تكون بخير. لكن لا أعرف ما حدث لها لاحقًا».

«مات أحد المُعتقلين أمامي بعد أنْ عاد من التعذيب. وكُنا نسمع صوت «شحط» الجثث ورميها في الخارج دومًا».

«طيلة فترة المُعتقل كنت أتمنى شيئًا واحدًا فقط. أنْ يناديني أحدهم.. أي أحد.. باسمي الكامل وكنيتي. أنْ لا أصبح رقمًا.. أنْ أرجع إلى مَن كنت عليه قبل المُعتقل».

---

(١) الاسم مستعار.

«أخي الذي دخلت الفرع لأقابله استُشهِدَ تحت التعذيب. اتضح أنَّه استُشهِدَ بعد عشرة أيام من اعتقاله في منتصف ٢٠١٣، بينما اعتُقِلت أنا في مطلع ٢٠١٤. وعدوني بلقائه وكان قد مات منذ أشهر. أخبرني بذلك أحد العناصر في أثناء التعذيب. قال لي: «أخوك فطس»[١]. حاولت أنْ لا أصدقه. قلت ربما هذا جزء من التعذيب.. لكن عندما أُفرج عني أعطوني هُويته وطلبوا مني أنْ أراجع دائرة معينة في منطقة القابون، ومن هناك أعطوني شهادة وفاة مؤرخة بعد ١٠ أيام من اعتقاله...».

«ثُم وجدنا صورته مع صور قيصر[٢].. يداه مكسورتان بوضوح. أثر الخنق على رقبته. وطعنات في كل مكان... لديه أربعة أطفال. ثلاثة صبيان وبنت».

«قدمت شهادتي والأسماء التي أعرفها إلى الجهات الدولية المختصة، ربما يكون بعض مَن عذبني قد ذهب إلى أوروبا».

«عندما أفرجوا عني، سلمني المحقق أغراضي، وقال لي بلهجة المتفضل الذي يمن عليَّ حريتي: تخرج الآن كمَن رجع من الحج، لا ذنب له، لكننا أفضل من (وقال لفظ الجلالة، أستغفر الله)، غفرنا لك ذنوب الدنيا والآخرة... كان يقولها بلهجة متكبرة آمرة، وكنت في وضعٍ كسيرٍ إلى أبعد حد، شكرته، وقبلت يده.

لن أنسى أبدًا هذا الذل الذي أذاقوني إياه. أفهم ما حدث معي.. أفهم بأي وضع كنت. لا ألوم نفسي. لكني لا أنسى هذا الذل. طعمه لا يزال مرًا على فمي».

---

(١) فطس الحيوان: نفق أو مات. وتستخدم للحيوانات فقط أو لتحقير الإنسان الميت والحط من شأنه.

(٢) قيصر: هو الاسم المستعار لمصور عسكري سوري يعمل في توثيق صور الموتى كجزء من أرشفة النظام، هرب إلى خارج سوريا وسرب أكثر من ٥٠ ألفًا من صور الضحايا، وعلى إثر ذلك تم المصادقة على «قانون قيصر لحماية المدنيين السوريين» من قِبَل مجلس النواب الأمريكي.

«لن أنسى. لا أستطيع أصلًا أنْ أنسى حتى لو أردت. لا أزال أعاني مع كل نَفَس آخذه بسبب ما حدث لأنفي. لا يمكن لي أنْ أنسى. ولن أسامح. وسأقابلهم وأحاسبهم جميعًا أمام رب العالمين يوم القيامة».

شهادة -٢-

لولا الآغا - تصوير مباشر - فرع الأمن العسكري حلب

«متزوجة وعندي أربعة أولاد. زوجي كان موظفًا حكوميًّا لا عَلاقة له بشيء. شاركت بمظاهرة واحدة في حلب، لم أكُن أعرف عنها مُسبقًا.. شاهدتها أمامي وشاركت فيها، وساعدت المتظاهرين بالماء في مظاهرة أخرى، وكان زوجي ضد هذا كله وطلب مني التوقف عن أي شيء له عَلاقة بالمظاهرات.

اعتُقِلت وبعد ثمانية أيام من التعذيب بالتعليق والضرب وحرق الأصابع، وجه لي أول سؤال: هل شاركت في التظاهرات»؟

«في أثناء التحقيق كنت أقف بحيث يكون وجهي مواجهًا للجِدار، دون شعور مني التفت ناحية المحقق، فلم أعد أعرف من أين تأتيني الضربات والركلات».

«عندما كان يغمى عليَّ كانوا يوقظونني بالركل في بطني».

«قالوا لي إنَّ زوجي اعترف إنَّه كان ضمن الجيش الحر، وإنه مسلح، وإني حرضته على ذلك وإني كنت أنقل المعلومات للجيش الحر. قلت لهم: «زوجي موظف في الحكومة ولم يتغيب يومًا واحدًا عن عمله فكيف يكون في الجيش الحر». فقالوا لي لدينا مفاجأة لك.

بعدها سمعتهم يسألون شخصًا عن اسمه، فجاء صوت زوجي. «الطماشة»[1] كانت على عيني لكني ميزت صوته. طلبوا منه أنْ يدلي

(١) الطماشة: عصابة من القماش توضع على العينين وتلف على الرأس بحيث تمنع الرؤية.

بالاعترافات التي سبق وأدلى بها. فقال إنَّه مسلح في الجيش الحر. سألوه عني. فقال إني أنا من حرضته على ذلك. ثُم رفعوا عن عيني وعن عينيه الطماشة وصُدم بوجودي أمامه وأخذ يصرخ بأنَّها اعترافات تحت التعذيب، وكان واضحًا إنه تعرض للكثير منه. كانوا يضربونه في كل أنحاء جسمه ويضربون رأسه بالجِدار. ثُم أخبروه أنْ يشاهد ما سيحدث لي. جردوني من ملابسي واغتصبوني أمامه. لم أعد أنظر إليه. كان يصرخ طيلة الوقت. ثُم سكت، تصورت أنَّه قد أغمي عليه. سحبوه خارجًا».

«بعد يومين، قال لي المحقق زوجك (فطس)».

«مات أمامي ولم أعرف أنَّه مات. لا أعتقد أنَّه مات من الضرب. بل مات من الذل. مات مما فعلوه بي أمامه».

«بقيت مُعتقلة ثلاث سنوات. كل أملي خلالها كان أنْ لا أنسى شكل وجوه أولادي. أحاول أنْ أتذكرهم طول اليوم كيلا أنساهم. كنت أخاف أنْ تهرب ملامحهم من ذاكرتي».

«يمكن أنْ أسامح على الضرب والتعذيب. لكن لا يمكن أنْ أسامح أبدًا على ما حدث لي أمام زوجي».

«كثيرون يعتقدون أنَّه لا يمكن أنْ يُعتقَل أحد أو يُعذب إلا لو كان متورطًا بشيء. لا. لم يكُن هناك لدي أو لزوجي شيء أكثر مما قلت. المُعتقل كان مليئًا بأمثالنا. يقولون (يا ما في الحبس مظاليم). أغلب من شاهدتهم في المُعتقل كانوا مظاليم».

-٩-

طيلة سنواتٍ، كنت أتجنب الاطِّلاع على شهادات كهذه. دومًا كان هناك حاجز نفسي يحميني من ذلك. وأعتقد أنَّ أكثر الذين لديهم موقف مثل موقفي -الذين تعتبرهم نور بلا موقف- كان لديهم نفس هذا الحاجز النفسي الذي مكَّنهم من الحفاظ على حيادهم.

الأمر في هذه الحالة يتدرج عادةً مِن (مَن قال إنَّهم لا يكذبون؟ الشهادات قد تكون كاذبة أو مُبالِغًا بها على الأقل) إلى (نعرف أنَّ النظام مجرم، لماذا عرضتم أنفسكم إلى كل هذا)؟

وفي حالات نادرة يصل الأمر إلى (يستحقون). وتكون هذه المرحلة غالبًا مرتبطة بتصديق أنَّ هؤلاء وأسرهم قد فعلوا جرائم مماثلة للتي فُعلت بهم. وهذا يعني أنَّ الجزاء من جنس العمل. وصلى الله وبارك.

كنت دومًا في منطقة ما بين المرحلة الأولى والثانية.

إذا سمعت مثل هذه الشهادات وهي تنقل من شخصٍ لم يمر بها، كنت أستسهل المرحلة الأولى. أرتاح إلى أنَّ الأمر كله يمكن أنْ يكون كذبة تتداولها أو تُبالغ بها بعض الجهات لمصلحة ما.

لكن في المرات النادرة التي كنت أجد نفسي في مواجهةٍ مع تسجيل لشخص يعرض شهادته بنفسه، كنت أضطر إلى المرحلة الثانية.

ما كنت لأخطئ في تمييز الصدق في النبرات، الملامح، طريقة الكلام. لا عَلاقة للأمر بكوني أدرس الطب النفسي، رغم تأثير الخبرة الناتجة

عن التخصص، لكن الأمر أقرب إلى فهم البشر بشكل عام. لا يمكن أنْ يكون كل هؤلاء ممثلين بهذه المهارة التي تجعلهم يستحقون الأوسكار. هؤلاء يتحدثون عن تجربة حقيقية عاشوها في المُعتقل، وهذه التفاصيل لا يمكن أنْ تنشأ من خيال محض. واتفاق الجميع على تفاصيل متشابهة تجعل احتمالية الكذب مستحيلة.

ثُم، لم نختبئ خلف أصابعنا؟ أنا سوري وأعرف تمامًا ما يحدث حتى قبل الأحداث. كل السوريين يعرفون طبيعة النظام. كان هذا جزءًا من كونك سوريًّا. جزء من المعلوم بالضرورة. ما لا يسع سوري أنْ يجهله.. شيء مثل إعدادات المصنع. لا يمكن لمواطن سوري أنْ يعيش في سوريا دون أنْ يعرف هذا الأمر لكي يتمكن من تجنب أنْ يحدث هذا له.

نعم النظام وحشي وسادي. لكن لمَ تتحرشون به وأنتم غير مستعدين لمجابهته؟ هو وحشي ومجرم، وأنتم ماذا؟ أغبياء. أغبياء وحمقى.

لم أقُل ذلك مباشرة لنور. أرسلت إليَّ في اليوم التالي تسألني رأيي في المقاطع التي أرسلتها.

أجبتها:

- رأيي في ماذا؟ في المونتاج والتقطيع؟ في الخلفية الموسيقية؟

- في المحتوى طبعًا. في الشهادات.

- شهادات صادقة لا أشك في ذلك. النظام مجرم بطبيعة الحال.

- إذن؟

- لماذا نتمرد على نظام بإمكانه فعل كل هذا الشر؟ هل تتوقعون أنَّه سيسلمها دون أنْ يفعل كل ما بإمكانه؟

- هذا له جواب في وقت لاحق، لكن هذه الشهادات لم ترتبط حتى بأشخاص تمردوا على النظام، بل بأقرباء لهم.. هناك زوج كان ضد مشاركة زوجته في تظاهرة، وأخ دخل ليسأل عن شقيقه المُعتقل.

- صحيح، وهذا يجعل الأقرباء مسؤولين عما حدث لأصحاب الشهادات، على الأقل جزئيًّا.

- أشخاص لهم رأي وموقف، هل على أقربائهم تحمُّل النتائج هكذا؟

- للأسف هذه هي الغابة التي نعيش فيها. هل كان هؤلاء الأقرباء لا يعرفون ذلك حقًا؟

- لا. ليست غابة. هذه حظيرة حيوانات. وكنا نتمنى أنْ نغير هذا الواقع.

- لم تكونوا مستعدين بما فيه الكفاية، زادت خرابًا بما فعلتم.

- مَن كان سيتركنا نستعد؟ النظام الذي نريد تغييره باستعدادنا؟

- لا أدري.. لكن أتمنى أنْ لا تتصوري أني مؤيد للنظام بهذه الطريقة...

- اطمئن. ما كنت سأتواصل معك أصلًا لو كنت أتصور ذلك. الفئة المستهدفة من الفيلم ليست مؤيدي النظام بالطبع.

- الحمد لله. كل ما أريد قوله إنَّ الثمن الذي دُفِعَ كان باهظًا جدًّا، دون أي مقابل.

- لعل الذين دفعوا هذا الثمن أحق مِن سواهم بالندم أو التعبير عنه. هل تراهم كذلك؟

- لا.. لكن لا يمكن الركون إلى ما يقولونه.. ربما هي مكابرة.. ولا حتى إلى ما يشعرونه... ربما هو محض إنكار.. حالة تأقلم نفسية.

- لكن أليست حالة التأقلم النفسية هي نفسها المسؤولة عن بقاء الملايين تحت هذا النظام.. إذا كان الإنكار لا معنى له في الحالة الأولى فهو أيضًا لا معنى له في الحالة الثانية.

أعترف.. نور ليست ذكية فحسب، بل لديها مخًا نظيفًا. تجيد لعب الشطرنج بالحوار. بفارق أنَّها لا تلعب، بل هي مقتنعة بكل ما تقوله بشغف ولهفة.

يمكننا أنْ نستمر في الحوار إلى ما لا نهاية، وكنت أعرف أنَّها -في اللحظة التي سنتجه في الحديث إلى القيم والأخلاق- ستكون أقوى.. أحاول أنا التقوّي بالمنطق بمواجهتها. لكنها بارعة في اصطياد الثغرات في المنطق الذي أستخدمه، ومِن ثَمَّ كانت تستخدم سلاحي ضدي.

قالت إنَّ هذه المقاطع التي أرسلتها ليست سوى إحماء لما هو قادم، وعليَّ أنْ أستعد.

ثُم تذكرت شيئًا بخصوص الشهادات.

- ما قاله أيوب في شهادته، طبيًّا لست متأكدًا من إمكانية حدوثه أصلًا.

- تقصد تعليقه بالشنكل من أنفه؟

- نعم بالضبط، لا أعتقد أنَّ هذا ممكن، لا أقصد تكذيبه، ولا أشعر إلا بصدقه، لكن.. التعليق من الأنف؟! كيف يمكن أنْ يحدث هذا من الناحية التشريحية؟

- هذا نفس ما قاله له أنس وقتها.

- وماذا كان رده؟

- أرسل إليه تقارير طبية عن حالته وصور أشعة تؤكد ما قال.. سأبحث عن التقرير وأرسله، لا بد أنْ يكون موجودًا في حاسوب أنس.

لاحقًا أرسلت إليَّ التقرير وصور الأشعة. كان التقرير بالفرنسية، لكن مع الأشعة وبعض المصطلحات المشتركة و«غوغل ترجمة» فهمت المضمون. تهشُّم كلي في الجزء العلوي من المحارة الأنفية، وجزئي في الجزء السفلي منها، وتهشُّم في الحاجز الأنفي، وإصابته نتيجة التهاب أنفي مزمن من النوع الضموري، وهو نوع أعرف أنَّ نسبة شفائه ضئيلة، يستمر الأنف بالسيلان والنتن، وعليه أنْ يستمر بالعلاج طيلة عمره. مضادات حيوية وغسول يومي.

قال التقرير أيضًا إنَّ ذلك كان نتيجة «إدخال أداة حادة» في التجويف الأنفي. تمنيت لو أنَّه كان يكذب. كان ذلك سيكون مريحًا أكثر.

****

في اليومين التاليين وصلني رد من أحد المشافي التي راسلتها في برلين. مشفى سانت هيدفيغ. أقدم مشفى عام في العاصمة، وفي الوقت ذاته مشفى جامعي تعليمي له سمعته العالية في مجال الطب النفسي.

ذهبت إلى المشفى للقاء مدير قسم الطب النفسي، كان الأمر أسهل مما تصورت، ألمانيا تعاني قلة عدد الأطباء المتدربين على الطب النفسي. الكل يتجه إلى فروع تجني أرباحًا أكثر. بعد بعض الأسئلة عن اهتماماتي في التخصص وعن الأطباء الذين تدربت معهم في دريسدن؛ قال لي يمكنني أنْ أُوقِّع العقد فورًا إنْ أحببت. عليَّ فقط أنْ أنهي ارتباطي بالمشفى الحالي في دريسدن.

ألمانيا التي اخترعت البيروقراطية تتخلى عن التعقيدات عندما يتعلق الأمر بانتقال طبيب من مشفى إلى آخر. افسخ عقدك ووقع عقدًا جديدًا وينتهي الأمر.

انتهزت الفرصة لأتصل بنور، سألتها إنْ كان يمكن أنْ أراها لأني في برلين، سألتني: لماذا؟ بطريقتها التي بدأت أتعود عليها، فأخبرتها إني لدي المزيد من الأسئلة عن أنس، فحددت لي موعدًا بعد انتهائها من دروسها في الجامعة في مقهى آينشتاين شتامهاوس القريب.

جاءت متأخرة قليلًا عن موعدها، وكانت تبدو منهكة.

قلت لها إني سأنتقل قريبًا إلى برلين وسألتها عن الأماكن المناسبة للسكن. بدت مهتمة بالأمر واستغربت أني لم أخبرها عن ذلك من قبل. فرحت باستغرابها لأنَّ ذلك جعلني كصديق يفترض أنْ يقول كل شيء عن تحركاته. لكن ساءني أنَّ مقترحاتها عن أماكن السكن كانت بعيدة عن الحي الذي تسكن فيه. كانت تتحدث عن أحياء برلين كما لو أنَّها نشأت فيها وليس في حي ركن الدين في دمشق.

- منذ متى وأنتِ في برلين؟

- أكملت أربع سنواتٍ قبل أشهر.

وجدت الفرصة مناسبة لسؤال أصعب.

- هل جئتِ مباشرة من سوريا؟ أم أنَّ محطتك كانت سوريا - تركيا - ألمانيا مثل كثيرين؟

- لا، خط سيري تضمن الإمارات. ذهبت من سوريا إلى الإمارات ثُم إلى تركيا فألمانيا.

تكررت اللدغة في هذه الجملة بوضوح. ذوبتني اللدغة. فجأة أصبح الإسبرسو أحلى مذاقًا.

- الإمارات، ماذا فعلتِ هناك؟

- تزوجت، لثلاثة أشهر، ثُم طلقت.

هكذا ببساطة.

- هل يمكن أنْ أسألك عن الأسباب؟

- أسباب الزواج أم الطلاق؟

- الاثنين!

- السبب الرئيسي للطلاق واحد في كل الحالات.. الزواج طبعًا.. لكن دعني أسألك إنْ كنت حقًا لا تعرف أني مطلقة، لأنَّ لو كان هذا صحيحًا فهذا يعني أنَّ العرب في ألمانيا كفوا عن النميمة، وهذا إنجاز.

- لا، لا داعي للتفاؤل هكذا، أنا فقط قليل الاختلاط بمن يمكن أنْ يكون مصدرًا للمعلومات.

- نعم هذا منطقي أكثر.

- إذن، ما الأسباب، يخيَّل لي أنَّك تحسبين كل خطوة بدقة، من الصعب تَخيُّل أنَّكِ ستدخلين في زواج لا يمكن أنْ يعمر أكثر من ثلاثة أشهر.

- معك حق «هير فرويد»، أنا من هذا النوع بالفعل. لكن سبب زواجي لم يكُن الزواج، كنت أريد أنْ أهرب من سوريا، ومن النظام، ومن... أمي أيضًا.

هل يُعقَل هذا؟ فتاة مثلها تتزوج فقط لتخرج من سوريا.

- لهذه الدرجة؟

- نعم، لم تكُن هناك أي فرصة لحدوث ذلك دون زواج.. وأغلب مَن كان معي في (التنسيقية) اعتُقِل.. وبعد فصلي من الجامعة لم يبقَ لي شيء في سوريا.

- وكيف كان الزواج؟

- تقليديًّا جدًّا، لم يكُن هناك بيننا سوى مكالمتين سكايب، عقدت القران وانتظرت التأشيرة وسافرت له، كان ابن ناس ومحترمًا، ولكن.. ما كان يمكن لهذا الزواج أنْ يستمر.

- لماذا؟ ما دام كان ابن ناس ومحترمًا؟

- ما كان يمكن أنْ أظلمه أكثر، صارحته بكل شيء، وكان متفهمًا.. ليس بسهولة، لكنه تفهم.. وطلقني.. بقيت نحو سنةٍ في تركيا، ثُم حصلت على قبول جامعي في جامعة برلين الحرة، وجئت.

قالت كل هذا بحيادٍ. كما لو كانت تتحدث عن شيءٍ حدث لشخص آخر لا يمت لها ولو حتى بصلة قرابة. لو أنَّها تتحدث عن أشياء حدثت لجدتها المُتوفَّاة منذ نصف قرن لظهر تفاعل أكبر على وجهها.

- أحييك على شجاعتك في الحديث عن الأمر بهذه البساطة.

هزت رأسها كما لو أنَّها تشكرني على تحيتي لها.

- شكرًا.. لكن يتطلب الأمر أكثر بكثير من مجرد الشجاعة.

تساءلت مع نفسي: هل أملك ما يتطلبه الأمر لكي أقبل بها كما هي؟

بدت لي نور كما لو كانت أقوى مما يجب. أقوى حتى مما أحب أنا أنْ تكون المرأة. بدت جامدة، جبارة، تذكرت أنَّ هذه الكلمة تستخدم عادةً في وصف أمها، هدباء حماصني. قررت أنْ أسألها عن الأمر في أقرب فرصة.

****

قبل أنْ ترسل إليَّ المزيد من الشهادات المصورة فكرت أنْ أسألها عن أمها. فأرسلت إليها على الواتس آب:

«هل يمكن لي أنْ أسألك سؤالاً شخصيًّا نور»؟ مع وجه القرد الذي غطى عينيه.

تجاهلت القرد المحرج وأرسلت علامة استفهام.

- كيف حدث أنْ خرجتِ مع الثورة وأنتِ ابنة هدباء حماصني؟!

بقيت ساكتة. أونلاين لكن دون رد. أرسلت وجهًا محرجًا بدمعة واحدة.

- هل خربت الدنيا بسؤالي هذا؟

ردت هي:

«لا، أبدًا. عادي جدًّا. لكني فقط استغربت أنْ يأتي منك تحديدًا. عادةً يأتي هذا السؤال من مؤيدي الثورة، لا مِن...» وأرسلت وجهًا يفكر بعمق.

لا من الرماديين أمثالك، هكذا أرادت أنْ تقول. لدي فرصة واحدة لتصليح الأمر أو تدميره نهائيًّا.

«سؤالي يخصك أنتِ. يخص نور التي تهمني. كيف استطعتِ أنْ تكوني بهذه القوة»؟ شددت على «نور التي تهمني» كما لو أني أريد أنْ أتأكد من خراب الدنيا».

سكتت لثوانٍ. لا تزال أونلاين. لم تقُم بعد بحظري.

- أيضًا مستغربة السؤال منك. أنت الطبيب النفسي. يفترض أنت أنْ تفهم كيف ولماذا!

نقلة ذكية. تقريبًا كش ملك. أو ربما قتلت الوزير على الأقل.

- حسنًا. سأستخرج «فرويد» الذي في داخلي فتحمّليه. لا أعرف والدتك شخصيًّا، لكني سمعت أنَّها قوية الشخصية جدًّا إلى درجة -لا تؤاخذيني في الكلمة- التسلط.

أرسلت وجهًا ضاحكًا لا يمكن أنْ تظهره في الحقيقة وكتبت:

- التسلط شخصيًّا يطلب من والدتي أنْ تخف على الناس قليلًا، لكن لا بأس.

- ... هل أستطيع أنْ أقول إنَّ ثورتك على النظام كانت تعبيرًا عن ثورتك على والدتك، التي ربما كانت تمارس تسلطها عليكِ كجزء من شخصيتها عمومًا.. وإنَّك كبتِّ التمرد لسنوات طويلة إلى أنْ جاءت الثورة فانفجر كل كبتك السابق ولكنه توجه هذه المرة ضد النظام. لا يمكنك أنْ تكوني عاقة مع والدتك. فهي والدتك في النهاية. أما النظام، فأمره مختلف.

- أنت تصور الأمر كما لو كنت أخاف من أمي أكثر مما أخاف من النظام!

- هل الأمر كذلك فعلًا؟

- هل يفترض أنْ أكون واعية تمامًا بدوافعي؟ ألا يمكن أنْ تكون هذه الأمور قد أثرت فيَّ بالفعل لكني لست على وعي تام بها؟

- بالتأكيد. هذا ما يحدث عادةً. هذا هو عمل (اللاوعي).. لكن عادةً الشخص المعنِي يجد في التفسير المطروح رابطًا يوضح له سلوكه.

- أنت تتعامل مع الأمر كما لو أنَّ انضمامي للثورة كان (حالة نفسية) أو تعبيرًا عن (اضطراب نفسي).. لا أنكر أنَّ جانبًا من دوافعي يمكن أنْ يُفسَّر هكذا، لكن بالنسبة لي كان الأمر أبسط من كل هذا... انضممت للثورة لأنَّ ذلك كان الشيء الصواب بالنسبة لي.

- مفهوم، هذا كان الدافع الأساسي لأغلب مَن انضم للثورة.. لكن الاختلاف معكِ أنَّ والدتك أنتِ هدباء حماصني.

- أنتم لا تعرفون هدباء حماصني حقًا. هي قوية جدًّا بالفعل. جبارة. ربما أكثر مما تتخيَّلون. وهي مؤيدة حقيقية للنظام. لا تنافق في هذا. ليست بوجهين؛ لكنها ليست مؤيدة له لأنَّها تعتبره مثاليًّا، بل لأنَّها مقتنعة تمامًا أنَّ معارضته ستجلب الدمار للجميع، وأنَّه الوحيد القادر على الإمساك بالأمور في البلد، لذلك فهي تعتقد أنَّ مسايرته هي الحل الأمثل، ومن خلال هذه المسايرة يمكن أنْ تحصل على فوائد للناس. هكذا ترى الأمور.

- أعتقد أنَّ هذا ليس رأيها بمفردها.. الكثير من الشوام ليسوا مؤيدين له إلا بهذا المعنى.. لا أكثر.

- لكن والدتي أيضًا ربتني على فعل الصواب، ربتني على (الصح)، جزء كبير من دوافعي للثورة كان بسبب ما زرعته في داخلي بالأساس.. إذا كان هناك من تمرد عندي تجاه والدتي فقط كان بدفعٍ منها أيضًا.

- جميل أنَّك لم تصطدمي بها.

- اصطدمت بها طبعًا. حياتي كانت سلسلة مريرة من الاصطدامات المتتالية بها.. لكن في النهاية هي أمي... وأنا واثقة تمامًا أنَّها الآن تكره النظام ربما أكثر مما أكرهه أنا. لكنها لن تعترف بذلك أبدًا.

- لماذا هذه الثقة؟

- لأنَّه من الصعب جدًّا على أي إنسانٍ يملك ذرة من الأخلاق أنْ يعرف ما فعله هذا النظام، ثُم يبقى مؤيدًا له.. يمكن أنْ يحاول البعض التجاهل، الإنكار، الادعاء إنَّ كل ما يفعله النظام مجرد أكاذيب من أعدائه.. لكن لو عرف... يستحيل أنْ يبقى على تأييده.

- هل والدكِ له الموقف نفسه مثل والدتك، أم هو أقرب لكِ؟ عرفته أستاذًا مُتمكنًا للغة العربية، وكُنا نهابه جميعًا، كان (أكابري) جدًّا في سلوكه.

- والدي حنون جدًّا. لم ولن يقف بوجه أمي.. حنانه كان عامل توازن مُهم في حياتي، خفف من أثر صداماتي مع أمي علينا نحن الاثنين.

كنت سعيدًا جدًّا بأنَّها فتحت لي قلبها وتحدثت عن أسرتها هكذا. عندما انتهت المحادثة بيننا، وجدت نفسي أعيد قراءتها مرة أخرى وأخرى. عندما نِمت حلمتُ بها. وعندما استيقظت فكرت بها. الآن أعرف؛ لم يَعُد الأمر مجرد إعجاب بنور. بدأ يصبح ما هو أكثر من ذلك، ثُم تذكرت؛ متزوجة سابقًا.

شهادة -٣-

رنيم معتوق

مكان الاعتقال: فرع الأمن العسكري ٢٢٧

اسم صريح / وجه صريح

«نشأتُ في عائلة علمانية تقدس قيم الحرية. عندما صرخت المظاهرات في الثورة «حرية» لم يكُن ممكنًا إلا أنْ أنضم لها. لم أكُن خائفة من أنَّ المظاهرات خرجت من المساجد. كان المتظاهرون أشخاصًا طبيعيين. والجامع مكان التجمع الوحيد المسموح به. هل كنت خائفة من أنْ يحاول المتطرفون ركوب ما تنتجه الثورة؟ نعم. لكن لم أكُن أعتقد أنَّهم سيكونون مسنودين لهذه الدرجة، من الأنظمة خصوصًا».

«اعتُقلت مرتين. الأولى في ٢٠١١، في أثناء مظاهرة أمام كلية الاقتصاد في دمشق. كنت أبلغ العشرين من العمر، طالبة في المرحلة الثالثة، اتصالات بصرية».

«والثانية في عام ٢٠١٤ من منزلي في صحنايا في حملة اعتقالات واسعة».

«في ٢٠١٢ اعتُقل والدي المحامي والناشط في قضايا حقوق الإنسان خليل معتوق».

«لفترة طويلة بقيت عاجزة عن الحديث عما رأيته في المُعتقل. بقيت أعاني خوفًا مزمنًا وقلقًا مستمرًا، لا أستطيع مثلًا أنْ أبقى في مكان واحد

لفترة طويلة، تنتابني نوبات من الفزع. خف الأمر قليلًا عندما بدأت أتحدث علنًا عما رأيته في المُعتقل. في كل مرة أتحدث فيها، أشعر أنَّ كل ما حدث لا يمكن أنْ يمت إلى كوكب الأرض بصلة. لكنه رغم ذلك حدث في كوكب الأرض. الآن أستطيع أنْ أعبِّر عن أفكاري أكثر، خاصة عبر الرسم، الذي أدرسه الآن أكاديميًّا».

«لا أستطيع أنْ أنسى موقفًا لا يزال يطاردني بشعور الذنب حتى الآن. كنت قد أعلنت إضرابي عن الطعام. وصل الخبر إلى مدير السجن. جاء في أثناء التحقيق معي وكانت هناك فتاة أخرى يتم التحقيق معها. فتاة في السادسة عشر من عمرها. أمر أحد العناصر أنْ يأتي بقنينة. أجبر الفتاة على خلع بنطالها، ثُم أجلسها على القنينة. للوهلة الأولى، الفتاة لم تكُن تفهم ماذا سيحدث. توقعت أنَّه سيضربها. ثُم سألني إنْ كنت أنوي الاستمرار في الإضراب. كان يعرف أني ربما أتحمل التعذيب، لكن أنْ تتعذب فتاة صغيرة بسببي، فهذا أمر آخر».

«حفل الاستقبال كان يتم دون تحقيق. فقط ضرب وتعذيب. بالنسبة لي تم ضربي بالأخضر الإبراهيمي[1] على أسفل قدمي وبطني. التفتيش كان يتم عبر العناصر ويشمل كل أجزاء الجسد دون استثناء. في التحقيق كسر أنفي. أهون ما في التعذيب هو الصفعات على الوجه التي تأتي من كل مكان».

«لأني أنتمي إلى عائلة مسيحية، وخانة «الولادة» في هويتي تشير إلى منطقة يصنفها النظام أنَّها موالية، فهذا يجعل ضربي يتم بشدة

(١) أنبوب التمديدات الصحية أخضر اللون الذي يستخدم في الضرب والتعذيب، انتشرت عليه تسمية الأخضر الإبراهيمي نسبة إلى سياسي ودبلوماسي جزائري شغل منصب مبعوث الأمم المتحدة في أفغانستان والعراق وسوريا، لا علاقة له بأنبوب التمديدات أو بالتعذيب.

إضافية. لست ثائرة فقط. أنا أيضًا «خائنة» بالنسبة إليهم. كما لو أنَّ خيانتي مزدوجة بالنسبة إليهم وحسب فهمهم للأمور. أدرك تمامًا أنَّ الأمر في الواقع أعقد من هذا التصنيف السطحي، لكن جزءًا مِن تعامُل العناصر الأمنية كان مبنيًّا على هذا التصنيف السطحي».

«عندما حُوّلت إلى سجن عدرا، ضربني السجَّان في اللحظة التي رأى فيها هُويتي».

«الصورة النمطية لم تكُن عند العناصر الأمنية فقط، بل عند المُعتقِلات أيضًا للأسف، كان المحامي قد هرَّب لي دفترًا صغيرًا أخفيه عندي لكي أرسم فيه أو أكتب خواطري. وتصورت المُعتقِلات أني أكتب شيئًا عنهن أو ما يَقُلْنَه فيما بينهن. واجَهْنَنِي بالأمر، واعْتذَرنَ عندما شَاهَدنَ الرسومات والخواطر. حدثت مشاجرة صغيرة مع المُعتقِلة التي بدأت بالأمر، ولكن تسترنا جميعًا على الأمر كيلا نعاقب بالتحويل إلى الزنزانة الانفرادية».

«أمام بعض المواقف، عشت حالة الإنكار كأوضح ما يمكن أنْ تكون. هناك صديق للعائلة، مروان حاصباني، اعتُقل معي في الحملة نفسها. شاهدتهم في المُعتقل وهم يضعونه داخل كيس أسود. لم أفهم الأمر. لم أفهم أنَّه مات. عندما أخبرني المحامي إنَّ مروان حاصباني قد مات تحت التعذيب، قلت له إني لا أعرف من هو مروان. لم أكُن أكذب أو أتظاهر بالإنكار. دماغي آنذاك حذف مروان من ذاكرتي كيلا أشعر بالألم. لفترة طويلة بعد خروجي كنت عاجزة عن الحديث عن هذا الأمر. بالمناسبة؛ مروان حاصباني درزي، من مدينة السويداء».

«في طريقي إلى الحمام مرة شاهدت جثة رجل كبير السن ملقاة بين أكياس الخبز الذي يوزع لنا. شاهدت أيضًا في أثناء التحقيق شاب يضربه

المحقق بشدة على قلبه إلى أنْ توقف قلبه ومات. شاهدت أطفالًا في الثالثة عشر أو دون ذلك، على ظهورهم وُشِمَت أرقام. لم أكُن شاهدة على حوادث اغتصاب، لكني سمعت عن حوادث كثيرة».

«المحقق كان اسمه منذر. لا أعرف إنْ كان اسمه الحقيقي أو وهمي. لم أفكر به كإنسان قط. لم أشعر أنَّه كذلك.. أحد العناصر، كان متقدمًا في السن بالنسبة للآخرين، اسمه أبو يعقوب، كان يعطي المُعتقلين أحيانًا «نَفَس سيجارة»، عوقب بالسجن عندما اكتشفوا عنه ذلك.

لم أتخيَّل قط أنْ يكون لهؤلاء المحققين والعناصر حياة إنسانية طبيعية خارج المُعتقل. كنت أعتقد أنَّهم كائنات بشرية مهجنة بطريقة تتيح لها استيعاب الأوامر وتنفيذها فقط».

«أحيانًا كنت -ومَن معي- ننفصل عن الواقع. ننفصل تمامًا. نغني. نرقص. نزغرد. كُنا ست فتيات في منفردة واحدة. ٢ متر في ١,٥ متر وارتفاع مترين. سمعنا السجَّان. سأل: مَن كان يزغرد؟ اعترفت. أخذني عند المدير. سألني المدير: هل كنت تزغردين؟ هززت رأسي أنَّ نعم لأنَّ صوتي ذهب خوفًا. أمسكني من حنجرتي. ليس من كل رقبتي. فقط من حنجرتي، ورفعني إلى الأعلى، ثُم ضربني بكف يده الأخرى بحيث جرحني بأظفره. عندما أعادوني إلى المنفردة، انفجرنا نضحك».

«كان لدينا وقت دقيقتين فقط للحمام. الماء بارد وهناك صابون ولكن لا يمكن استخدامه لأنَّ الوقت غير كافٍ. دقيقتان. لو تأخرنا سيُفتَح الباب. كانت هناك فتاة تأخرت أكثر من دقيقتين، فتح العنصر الباب عليها، سحبها على الأرض، ثُم أخرج ماءً من المرحاض، ماء قذر، وسكبه عليها».

«كان المحقق يسألني عن أشخاص لا أعرفهم بالفعل. وكنت أرفض الحديث تمامًا. هددني بأنْ يعتقل أمي وأخي الأصغر. أعادني إلى المنفردة

وانهرت بالبكاء. ثُم دخلت في حالة هستيرية. ارتفعت درجة حرارتي وصرت أهذي وأتخيَّل وجود سيارات أجرة أمامي فأشيرُ لها كي تقف. الفتيات معي طرقن على الباب وقُلن للعنصر إني سأموت. أخذوني على المحقق، صبوا الماء عليَّ فهدأت قليلًا. ثُم قلت له سأعترف بكل ما تريد، أنا مسؤولة عن التظاهرات والتفجيرات وكل شيء وقتلت. لكن أمي وأخي لا عَلاقة لهما بشيء. لا يعرفان أي شيء غير الأدب والفن والموسيقى...

بعد تلك الحادثة، قطعت جزءًا من (سحّاب) الجاكيت، واستخدمته كقلم، أكتب به على الحائط، واكتشفت أنَّه يعطي خطًّا جميلًا وكأنَّه قلم رصاص فحمي... فأخذت أرسم...».

«اعتقدت أني لن أخرج أبدًا من المُعتقل. لذا كنت أتجنب أحلام اليقظة أو التفكير بأي شيء خارج المُعتقل. كنت محاصرة بكل شيء. الجثث في الطريق إلى الحمام. أصوات التعذيب القادمة عبر الممر. الحشرات. ألم الورك بسبب النوم على الأرض. البرد. بالتدريج طورت طرِيقة للهروب من كل ذلك. كنت أتخيَّل أني في صندوق، وأنَّ هذا الصندوق أُغلق، ورُمي في المحيط، وأنَّه يهبط بالتدريج في المحيط، إلى أنْ يصل إلى أعمق نقطة ويتبدد الضوء تمامًا إلى أنْ أصل إلى ظلام فارغ. بعد هذا كنت أغرق في النوم لساعات إلى أنْ توقظني زميلة من أجل التحقيق أو لدخول الحمام؛ حيث كان يحق لنا الدخول للحمام مرتين في اليوم بأوقات محددة. هل كان هذا نومًا أم كان غيبوبة أو إغماءة يختارها جسدي لكي يتخلص من كل ذلك. لا أعرف».

«بين اعتقال والدي في ٢٠١٢ وإلى ٢٠١٤ كانت هناك أخبار غير مؤكدة عنه. لا أخبار عنه منذ أكثر من خمس سنوات».

-١٠-

رسالة صوتية من كنان أصفر:

«فضلت أنْ أسجل رسالة صوتية لأنَّ هذا قد يكون أسرع من الكتابة، فكرت كثيرًا بما قلت، بما حدث لأنس رحمه الله وما حدث مع كثيرين.. لماذا انتحر رغم أنَّه كان يبدو أبعد الأشخاص عن الانتحار أو اليأس، لماذا فَقدَ أنس وكثيرون إيمانهم بينما لم يتأثر آخرون؟ أنت تقول إنَّ البعض قد زاد إيمانه، والبعض فقده، بالنسبة لي لم يكُن هذا أو ذاك. إيماني بقي كما هو. ولا يعني هذا أنَّ إيماني كان أقوى من إيمان أنس أو غيره من الذين فقدوا إيمانهم، على العكس، ربما كان إيمانهم أكبر، وربما كان التزامهم الديني بالشعائر أقوى، لكن جوهر إيماني كان مختلفًا عن إيمانهم، طبيعته، وهذا جعل إيماني يصمد، بينما إيمان الآخرين، بسبب طبيعته، لم يساعدهم في هذه المحنة».

«إيماني كان يركز على أنَّ هذه الدنيا امتحان، وأنَّ الله خلقنا لكي نجتاز هذا الامتحان، صعوبة هذا الامتحان أمر طبيعي، تعرض البعض منا لصعوبات أكثر من غيره أمر طبيعي أيضًا، وسيكون جزاؤه أيضًا أكبر لاحقًا، في الآخرة».

«ربما كان للأمر عَلاقة بقراءاتي الكثيرة في الفكر والتصوف، لا أعرف كيف وصلت إلى هذا الإيمان تحديدًا، لكن فكرة أنَّ الدنيا دار ابتلاء كانت من بديهيات إيماني».

«غالب الذين اهتز إيمانهم، أو الذين فقدوه كان إيمانهم قائمًا على أنَّ الله سيحقق لهم دعواتهم، صعوبات الامتحان سيتم تجاوزها عبر تدخل إلهي، لذا فبالنسبة إليهم ما يحدث من ابتلاءات وظلم واضطهاد أمر لا يمكن فهمه من خلال إيمانهم. لماذا لا يتدخل الله لوقف هذا الظلم؟ لماذا لا يستجيب لنا؟ لماذا لا نرى يومًا في الظالم الذي فعل وفعل بنا؟ بالنسبة لي، دعائي لله يقربني منه، يشعرني بدفء وحماية حتى لو لم يتحقق دعائي.. أنا أثق أنَّه يسمعني وأنَّه سيعوضني خيرًا لاحقًا، وكلما تألمت الآن أكثر، كان جزائي أكبر في الجنة».

«إيمان المرحوم أنس كان من النوع الذي ذكرته، حسب حواري معه كانت أسئلة: أين الله؟ ألا يرى ما يحدث؟ لماذا لا يتدخل؟ ثابتة ومتكررة في كل الحوارات، أستطيع أنْ أطلعك على بعضها إنْ شئت، لم يعلن قط أنَّه ألحد، أو أنكر وجود الله.. لكن هذه الأسئلة هدمت إيمانه القديم، وللأسف لم أستطع أنْ أساعده في الوصول إلى إيمانٍ جديد، ربما توقعت أنَّ الأمر مرحلة وستمر، وأنَّه ربما يعاني أزمة في إنتاج الفيلم ويريد أنْ يوصل صوته بسرعة أكبر. للأسف لم آخذ الأمر جديًّا، ربما لو عرفت ما سيفعله لكُنت ركزت أكثر معه.. لكن...».

«أنت على حق في موضوع معاذ، ربما كان البداية لنكسة كبيرة في حياة أنس. لكن هذا الأمر لم يكُن له عَلاقة في تصوري بإيمانه في الله، بل كان ضربة كبيرة لإيمانه بنفسه.. لاحقًا، كل ما حدث، وكل تلك التفاصيل التي أطَّلِعُ عليها عن قرب عبر جَمْعِه لمادة الفيلم الذي عمل عليه، جعلت إيمانه بالله يهتز، ويبدو لي أنَّ أيًّا منا عندما يفقد إيمانه بالله، وبنفسه، ولا يجد بديلًا لأي منهما، فالطريق قد يكون أسهل نحو ما فعله أنس.. غفر

له الله ورحمه.. وغفر لنا تقصيرنا جميعًا. أرجو أنْ أكون قد وضحت ما قصدته... وآسف على الإطالة. نهارك سعيد».

****

كنان ليس في حالة إنكار كما اعتقدت سابقًا عندما حمد الله بتلك الطريقة. هذا مؤكد. حديثه ليس حديث شخص في حالة إنكار ومنفصل عن الواقع. على العكس، يبدو مُدركًا جدًّا لبشاعة الواقع، لكنه يتعامل مع هذه البشاعة على أنَّها أسئلة صعبة في امتحان مصيري، وأنَّ اختياره هو بالذات للإجابة عن هذه الأسئلة نوع من التفضيل له، بما أنَّ الجزاء سيكون كبيرًا لاحقًا.

إيمانه لم يخذله لأنَّه بُنِيَ ليتحمل هذه الأسئلة. تشكلت رؤيته للعالم على هذا الأساس. هو يقول إنَّ هذا كان إيمانه أساسًا، ولا أملك إلا أنْ أصدق ما يقول، ولكن من المؤكد أنَّ هذا الإيمان لم يُختبَر إلا في هذه الظروف. الحياة اليومية في أحوالها الاعتيادية لا يمكن أنْ تبرز هذا الإيمان أو تختبره. هل كان يمكن لكنان أن يكون إيجابيًّا تجاه كل ما مر به، صابرًا مُتحديًا، لولا هذا الإيمان؟ أشك في ذلك.

جعلني الأمر أفكر بإيماني أنا. مِن أي نوع يا ترى؟ أخذتُ الإيمان وراثة كما يفعل الجميع. الشعائر كانت أهم من تفاصيل الإيمان في نشأتي. كان الأمر مثل الحب الذي يأتي بعد الزواج. أَقِمْ الشعائر أولًا؛ والإيمان سيكون تحصيلًا حاصلًا. أظن أنَّ هذا ما يحدث مع كثيرين. وأظن أنَّ جزءًا منه قد حدث بالفعل. أمي كانت دقيقة جدًّا في محاسبتنا على الصلاة. أبي كان أقل اهتمامًا بذلك. وكانت أمي تقول إنَّ «الديرية»[1] غير ملتزمين

(١) الديرية: نسبة إلى مدينة دير الزور.

بالصلاة مثل «الشوام»، وكان أبي يرد عليها بأنَّهم يصلون لكنهم لا يتحدثون عن ذلك طيلة الوقت.

على أي حال، الأم تأثيرها أكبر في هذه الأمور، وكان استمرارنا أنا وشقيقي بالصلاة دليلًا على أنَّ أمورنا بخير، جنبًا إلى جنب مع علاماتنا المدرسية.

كانت الصلاة بالنسبة لي جزءًا مُهمًّا مما تعودت عليه لإرضاء أمي أولًا، ومن ثَمَّ أصبح الأمر مُهمًّا لرضاي عن نفسي، جزء مني لا يمكن أنْ يكون راضيًا عني ما لم ترضَ أمي عني، وما دامت أمي ليست راضية إذا أخرت في صلاتي، أو إذا قطعتها -أعوذ بالله- فلا بد أنْ أصلي، لكي أرضي نفسي، لأنَّ نفسي لا ترضى إلا برضا أمي، وأمي لا ترضى إلا إذا صليت وأرضيت الله. وهكذا. دوائر متداخلة من الدوافع لا يمكن فهمها إلا بسبر هذه الدوائر واحدة تلو أخرى.

لم أفهم دوافعي في الصلاة مبكرًا، ولا أذكر متى وصلت إلى هذا التحليل، لكن غالبًا بدأ الأمر مع سفري وقدومي هنا إلى ألمانيا. أمي ليست هنا لتنتبه أو تؤنب. لكنها زرعت كاميرات مراقبة في داخلي. قد يمر الوقت وأنسى الصلاة ولكنَّ شيئًا ما سيبقى مزعجًا لي. لست مرتاحًا. انتبهت على نفسي أكثر من مرة وأنا في هذه الحالة، متلبسًا بحالة من عدم الارتياح دون أنْ أفهم السبب، ثُم ربطت بين الأمر وبين تأخيري للصلاة أو لتفويتي لها. لم تخف صلاتي بعد هذا التحليل؛ بل ازدادت انتظامًا. ربما لست المُتدين المثالي خالص النية، لكن صلاتي تريحني، تحافظ لي على توازني النفسي.

لم يكُن هناك خشوع في هذه الصلاة. لم يكُن من السهل دخولي إلى هذه المنطقة. ربما أحيانًا في صلاة التراويح في رمضان، متأثرًا بقراءة الإمام؛ لكن هذا كان نادرًا بالنسبة لي، ولم يقلقني على إيماني يومًا. لستُ من جماعة «الروحانية»، هذه لغة لا أجيدها، أنا أجيدُ التحليل وفهم الأسباب والدوافع. العالم الروحي ليس منطقتي، لست ضده ولا مشكلة عندي معه، فقط ليس (اختصاصي).

ضمن كل هذا، كانت الشعائر أهم من الإيمان بطبيعة الحال، لكن الإيمان نفسه لم يتعرض لهزة عنيفة. لو أني مررت بما مر به كنان أو أنس وغيرهما؛ لربما فقدت إيماني، لكني نجوت من كل هذا لأني أصلًا لم أدخل في اختبارٍ.

يبدو شَرْح كنان لكل شيء فيما يتعلق به صائبًا جدًّا ومتماسكًا تمامًا. لكن رأيه في أنَّ إيمان أنس بنفسه اهتز أولًا بسبب ما حدث لمعاذ لم يكُن مفهومًا بالنسبة لي. معاذ كان صديقًا مُقربًا جدًّا لأنس، اعتُقِل من قِبَل الأمن أو أعوان للنظام ومن ثَمَّ وُجِد مقتولًا ومُشوهًا.. لماذا يهتز إيمان أنس بنفسه؟ ما عَلاقة اعتقال معاذ بإيمان أنس بنفسه؟

****

بحثت عن صور معاذ بعد مقتله. وجدت صفحة رسمية تحمل اسم «الشهيد معاذ الصدّاف - فتنت روحي يا شهيد». عدد معجبي الصفحة لم يصل إلى المائة. أكثر من صورة لمعاذ في تابوته، وصور أخرى قبل تكفينه، لم يكُن يبدو عليه آثار تشويه أو تعذيب.

قيل لي دومًا إنَّ «أنس» صُدِم بمشهد جثة معاذ، لا أذكر مَن قال ذلك. هكذا سارت القصة حتى رسخ الأمر في ذهني. لكن معاذ لا تبدو على

ملامحه التشوه. ربما يكون قد عُذِّبَ في مكانٍ آخر في جسده. لكن لا تشوه في وجهه. حاولت أنْ أجد أي معلومة أخرى في النت، لا شيء، مر الخبر كما مرت عشرات الأخبار المشابهة. جثة مرمية في منطقة زراعية أو ما شابه. عادة يكون أعوان «غير رسميين» للنظام هم مَن فعل ذلك.

****

أرسلتُ إلى نور لأسألها:

- كنتِ تعرفين معاذ جيدًا أليس كذلك؟

- إلى حدٍ ما. كنت معه في الجامعة، الدفعة نفسها. لماذا؟

- هل تذكرين آخر مرة رأيتِه فيها؟

- لا، ربما قبل أيام أو أسبوع من خبر مقتله.

- متى اعتُقِل بالضبط؟

- لا أعرف.

- هل كان في الجامعة مثلًا عندما اعتُقِل أم أنَّه لم يأتِ يومها؟

- كنت دخلت المشفى لاستئصال الزائدة، أخذت إجازة في هذه الفترة.

- وأنس؟ ألم يقُل شيئًا عن الأمر؟

- لم أكُن أتواصل مع أنس. عندما اعتُقِل كنان كففنا عن التواصل مع بعضنا تمامًا، حرقت رقم هاتفي وأوقفت كل حساباتي على وسائل التواصل.

- ... وعندما خرجتِ من سوريا والتقيتِ بأنس مجددًا، لم تتحدثا عن معاذ نهائيًّا؟

- لم أتحدث معه إلا بعدما وصلت إلى ألمانيا.. ليس عن شيءٍ محدد وليس عن ساعة أو يوم اعتقاله أكيد، لم يكُن هناك شيء يقوله أنس على ما أعتقد.. لماذا كل هذه الأسئلة الآن؟

- كنت مُقتنعًا أنَّ أنس صُدِمَ بموت معاذ وبمنظر جثته.

- طيب؟

- منظر جثته لم يكُن مشوهًا قط. الحزن لمقتل صديق يمكن أنْ يكون قويًّا، لكنَّ هناك شيئًا في كل هذا غير مفهوم.

أرسلت وجهًا مستغربًا.

- إلى أين تريد أنْ تصل؟

- لدي نظرية لتفسير صدمة أنس، عليَّ أنْ أعمل على إثباتها، سأخبرك عنها لاحقًا.

- تركت «فرويد» وأصبحت «شارلوك هولمز» الآن؟ اترك الموتى في حالهم يا دكتور يزن.

- كان «فرويد» يبحث في الأعراض، و«شارلوك هولمز» كان يبحث في الأدلة، الفرق ليس كبيرًا.. وكلاهما، «فرويد» و«كونان دويل» مؤلف روايات «هولمز»، كانا طبيبيْن.

- كونك طبيبًا لا يعني أنَّك قادر على فهم وتحليل كل شيء.

- صحيح، لكني سأحاول.

- مرة أخرى أقول: اترك الموتى في حالهم.

-١١-

اتصلت بخالتي سلمى لأسألها عن تفاصيل ما حدث لمعاذ وما تذكره عن أنس يومها. لم تستغرب سؤالي. بل بدا لي أنَّها تريد أنْ تتحدث أي شيء عن أنس.

قالت إنَّ أنس لم يَعُد من الجامعة يومها وبقي هاتفه مغلقًا، وإنَّ والدة معاذ اتصلت بها وهي قلقة لأنَّ معاذ لم يرجع وهاتفه كان مغلقًا أيضًا.

عاد أنس قرابة الفجر، وقال إنَّ هاتفه كان معطلًا.. وإنَّه لم يكُن مع معاذ ولا يعرف أي شيء عنه منذ الظهر، لكنه قال إنَّ عليه أنْ يترك سوريا يذهب إلى بيروت إلى أنْ تهدأ الأمور لأنَّه مُهدد بالاعتقال في أي وقت. لَمَّ حاجياته وخرج. وكانت هذه آخر مرة تراه فيها. من لبنان إلى تركيا إلى ألمانيا.

- أنس ترك البلد قبل أنْ يجدوا جثة معاذ؟

- لم نكُن نعرف أصلًا أنَّ معاذ اعتُقل.. أنس سافر ومعاذ لم يرجع إلى بيته، وبعد يومين وجدوه مقتولًا.. أكيد أنس كان قلبه (حاسس) أنَّ هناك خطرًا كبيرًا.

إذن أنس لم يُصدم بجثة معاذ لأنَّه أصلًا لم يشاهدها!

طلبت رقم والدة معاذ من أمي. اتصلت بها، تذكرتني فورًا، وبكت وهي تسألني عن أحوالي.

سألتها عما تذكره عن اليوم الذي خرج فيه معاذ ولم يَعُد، قالت إنَّ معاذ كان يرفض الرد على أي هاتف من أصدقائه ويطلب منها أنْ تقول لهم إنَّه ليس في البيت لو سألوا عنه، لكن أنس دخل عليه وأصر أنْ يخرج معه، فخرجا معًا، ولم يَعُد بعدها معاذ. وقال أنس لها إنَّه تركه ظهرًا قرب «داماسكينو مول» في كفر سوسة ولم يره بعدها.

بدت لي شكوكي في محلها أكثر فأكثر. هل يمكن أنْ يكون أنس متورطًا بشيء مما أدى إلى كل ذلك؟ هل يمكن أنَّ أنس قد تورط بإفشاء اسم معاذ لأحد.. وأنَّ ذلك أدى لقتله؟ من الواضح أنَّ معاذ كان يشُك بوجود شيء ما، لذا لم يكُن يريد أنْ يلتقي بأحد. أنس أصرَّ على خروجه معه.

ربما اعتُقِلا معًا. أُطلِقَ سراح أنس لأنَّه قال ما يورط معاذ لكنه لم يكُن مُطمئنًا وخاف أنْ يعتقلوه ثانية، فسافر إلى لبنان حتى قبل أنْ يعرف ما حدث لمعاذ. ثُم صُدِمَ بمقتله واعتبر نفسه مسؤولًا عن ذلك، وبدأ ضميره يعذبه...

ربما بدأ كل شيء في رحلته إلى الانتحار من هذا الموقف. من شعوره بالمسؤولية والذنب تجاه ما حدث لمعاذ... لاحقًا تكالبت الأمور عليه، تركه للدراسة، معيشته كلاجئ، قصص التعذيب في السجون، تعثُّر فيلمه.. فجأة وجد نفسه قد وصل إلى الثلاثين دون أنْ يحقق أي شيء مما كان يريد، مع احتقارٍ شديد لذاته لأنَّه قتل أعز أصدقائه. كل شيء الآن يبدو واضحًا أكثر، ومفهومًا.

* * * *

«دائمًا أسمع أنَّ الأطباء النفسيين يحتاجون إلى علاج نفسي.. وها أنت تؤكد لي هذا... أنت تحتاج إلى علاج نفسي، هذا أولًا». قالت لي نور عندما أخبرتها عن استنتاجاتي عما حدث. قالتها بحدة.

صُدِمت من ردها، ولكن تظاهرت بالهدوء، وقلت:

- وثانيًا؟

- ثانيًا، فهمت ضمنًا من أنس أنَّك تغار منه، لكن صراحة، لم أكُن أتوقع قط أنْ تصل الأمور إلى هذه الدرجة، ابن خالتك انتحر، قليلٌ من الرحمة تجاهه.

- أنس قال إني أغار منه؟

- هل هذا ما يزعجك الآن؟ تتهمه أنَّه تسبب بمقتل صديقه ويزعجك أنَّه قال ما يُفهَم منه إنَّك تغار منه؟

- أنا لا أغار من أنس. لمَ أغار منه أصلًا؟ ما الذي يملكه أنس ولا أملكه أنا؟ المفروض أنْ يغار هو مني! مجموعي في البكالوريا أعلى منه، دخلت الطب وهو أعاد البكالوريا ثُم دخل طب أسنان...

- لا أصدق أنَّك تتحدث عن مجموع البكالوريا الآن.

قالت نور وهي تهز رأسها بأسف، وخفت أنْ ينتهي النقاش بأنْ تقوم من الجلسة غاضبة. كُنا في مقهى آينشتاين مجددًا، اتصلت بها وقلت لها إني في الجوار وطلبت منها أنْ أراها بعد أنْ تنهي دروسها.

- كل ما قُلته هو شكوكي تجاه بعض ما عرفته من تفاصيل الأمر، لديك تفسير أفضل؟ قوليه!

- أخبرتك أنْ تترك الموتى في حالهم يا دكتور.. لماذا هذا الإصرار على فتح قصصٍ مضى عليها سنوات؟

- لأنَّها السبب فيما حدث قبل أقل من شهر.

- تبني كل هذه النظرية على ماذا؟ أنس ومعاذ خرجا معًا ولم يرجع معاذ؟ لماذا لا تقول إنَّ أنس تمكن من الإفلات من كمين منصوب لهما معًا؟! وإذا كان أنس قد وشى بمعاذ وورطه ونجا هو فلماذا يهرب في اليوم نفسه؟ كان يمكنه أنْ يرتب أمور هروبه على مهله. وهل كان الأمن سيتركونه يترك البلد بهذه السهولة؟ كانوا سيحاولون أنْ يستغلوه أكثر حتمًا.

- لماذا قال كنان إنَّ أنس فقد إيمانه بنفسه بعد حادثة معاذ؟

- لماذا لم تسأل كنان نفسه بدلًا عن هذه الاستنتاجات المبهرة..

- كنان لن يقول أي شيء يمكن أنْ يضر بأنس أمامي.. غالبًا ما قاله كان زلة لسان..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أحسست أنَّها تريد أنْ تسيطر على نفسها كيلا ترميني بكوب القهوة أمامها.

- حسنًا، أخطأت بالتحليل، هل لديكِ تفسير لما قاله كنان.. لماذا اعتقال ومقتل معاذ يهز إيمان أنس بنفسه؟

- ربما لأنَّه عرف أنَّ حصنه ليس منيعًا كما كان يتوهم، كان أنس واثقًا تمامًا في وسائل تخفيه، وكان في الوقت نفسه جريئًا جدًّا في المظاهرات، وكان يدفع معاذ إلى طريقه نفسه، ربما فهم مما حدث لمعاذ أنَّه كان مسؤولًا بطريقة غير مباشرة عما حدث له.. لا لأنَّه وشى به!

بدا هذا منطقيًّا جدًّا. كيف فاتتني هذه التفاصيل؟ هل كنت أريد بلا وعي أنْ أدين أنس؟

- لا أعرف. فقط شعرت أنَّ هناك تفاصيلَ لا معنى لها في قصة معاذ، فتصورت أنَّ هذا يمكن أنْ يكون تفسيرًا.

- بالله عليك خف علينا يا محقق كونان.

ثُم قامت وهي تقول: «بدك شي»؟

- بدي سلامتك.

عليَّ أنْ أخفف فعلًا من دور المحقق كونان.

-١٢-

عندما أخبرت أمي إني سأنتقل قريبًا إلى مستشفى آخر في برلين، قالت لي فورًا: «بنت هدباء هناك»؟

إذن وصلنا إلى مرحلة «بنت هدباء». بداية سيئة جدًّا.

- أمي لا يوجد شيء بيني وبين نور، أخبرتك فقط أنْ تسألي عنها، وأنتِ أصلًا لم تردي بشيء، ولم أتحدث عنها بعد هذا.

- سألتك: بنت هدباء هناك في برلين؟

- نعم، لكن الأمر لا عَلاقة له بها، قدمت على عمل في مشفى هناك وقبلت، وبرلين هي العاصمة، الفرص فيها أفضل.

- ولم يكُن هذا المشفى موجودًا عندما كان ابن خالتك في برلين؟ الآن بنوا هذا المشفى وافتتحوها؟ سنوات وأنت في دريسدن لا نعرف ما يحدث لابن خالتك والآن بعد أنْ مات تنتقل إلى برلين. لا تخبرني إنَّ بنت هدباء لا عَلاقة لها بالأمر.. لست طفلة.

- أمي، لمَ تتصرفين هكذا؟ على فرض أنَّ لنور عَلاقة بالأمر! تصورت أنَّكِ ستفرحين لي إذا سألت عن فتاة بمواصفاتها.

- عن جد؟ ليش حبيبي ما الذي ينقصك؟! تموت هي وأمها ولا تحلمان بمثلك!

- أريد أنْ أفهم السبب في كل هذا.. هل بسبب أمها؟ أم بسبب أنس؟ أم بسبب أنَّها مطلقة؟

- لا تُقوّلني ما لم أقُل. ما حكيت عن طلاقها كلمة واحدة. الله يستر عليها وعلى كل بنات العالم.

- إذن، ما السبب في كل هذا أمي؟

- كل ما ذكرته.. وأيضًا عَلاقتها السيئة بأمها.

- هل المشكلة في أمها نفسها أم في كونها لديها مشكلة مع أمها؟

- مشكلتان. أمها مشكلة، ومشكلتها مع أمها مشكلة.. في الحقيقة أمها لوحدها معضلة كبيرة، لكن كونها غير (مَرْضيَّة) مع أمها مشكلة أيضًا.

- يا أمي، صحيح لا تقسم، ومقسوم لا تأكل، وكُلْ حتى تشبع؟[1] لو كانت نور مَرْضيَّة مع أمها كنت قلت إنَّها ستكون مثلها.. وإذا لديها موقف منها تقولين غير مَرْضيَّة؟

- عندما تكون غير مَرْضيَّة مع هدباء فهذا يعني أنَّها قوية مثلها.. طب الجرة على تمها تطلع البنت لأمها.

- أنتِ تقولين هذا المثل؟! هذا ظلم للفتاة!

- أمها لم تكُن راضية عن طلاقها وحاولت أنْ توقفه ولكن البنت أصرت.. وطلاق بعد ثلاثة أشهر ولا أحد يقول ماذا حدث؟ حدِّث العاقل بما يُعقَل!

- كنت أعتقد أنَّك ستفرحين لأنَّ البنت شامية، ألم تغسلي أدمغتنا أنا ومأمون: خُذ شامية وعِش عيشة هنية.

---

(١) مثل شامي عن الشروط التعجيزية.

- أنا أهتم لهذه الأمور؟! أبدًا. لا يفرق عندي شامي عن حمصي عن حلبي، كل الناس خير وبركة، وأبوك أكبر مثال، كل ما يهمني هو أنْ يكون أهل البنت (أوادم) و(أكابرية) و(معدلين).

صحيح. هذا كل ما يهمها فعلًا. بالصدفة لكي يكونوا (أوادم) و(أكابرية) و(معدلين) يجب أنْ يكونوا من الشام تحديدًا، والأفضل أنْ يكونوا من جوات السور[1]. والدي أنا من دير الزور، لكن هذا استثناء يثبت القاعدة برأيها.. أولادها يجب أنْ يتزوجوا شاميات، كما لو كانت تكفّر عن زواجها بأبي بإصرارها على تزويجنا من شاميات من جهتي الأب والأم.

- فوق كل ما سبق، البنت بعمرك، أنت في الثلاثين.. لم تتزوج فتاة بعمرك؟ ما يناسبك فتاة لا تتجاوز الخامسة والعشرين! وبنت هدباء عمرها ثلاثين ومطلقة، وهي بنت هدباء!

- بالمناسبة.. نور لا تعرف شيئًا عن اهتمامي بها، وربما هي غير مهتمة وقد ترفضني لو تقدمت لها.

- والله شو؟! ترفضك! هل تحلم بمثلك؟ البنات اللواتي في وضعها يقبلن برجال أرامل في الخمسين وعندهم خمسة أولاد.. قال ترفضك قال!

* * * *

كل ما أردته هو أنْ أخبرها إني سأنتقل إلى مشفى في برلين، لكن أمي كانت واضحة جدًّا في تحويل الأمر إلى مناسبة لإعلان موقف استباقي

---

(١) جوات السور: أي داخل السور، والمقصود بالسور سور دمشق؛ حيث إنَّ بعض أحياء دمشق القديمة كانت تقع خارج السور، وهذا يجعل البعض يمايزون بين حارات داخل السور وحارات خارج السور، على أساس أنَّ حارات الداخل أكثر أصالة. علمًا بأنَّ بعض أحياء دمشق العريقة جدًّا تقع خارج السور، مثل حي الميدان.

من أي إعلان لاحق برغبتي في التقدم إلى نور التي هي (بنت هدباء) بالنسبة إليها. غالبًا تسميها «المقوصة»[1] بينها وبين خالتي سلمى. أمي نبع الحنان، أعرفها جيدًا.

على العكس من أهداف أمي في إعلانها هذا، وجدت نفسي أفكر أكثر بنور. كان هذا غريبًا جدًّا بالنسبة لي، أنا (المَرْضِي)[2] المطيع. بقيت أرتدي ما تشتريه لي أمي من السوق إلى أنْ غادرت سوريا، بل أنَّها لا تزال تتحين كل فرصة متاحة لترسل إليَّ غيارات جديدة تشتريها من «الحميدية»[3] وتقول بثقة إنَّه لا يمكن أنْ يكون لها مثيل في كل أوروبا، ثُم فجأة أجد نور جذابة أكثر لمجرد أنَّ أمي تكاد تعلن الجهاد ضدها.

قبل هذه المكالمة من أمي، كنت لا أزال في مرحلة الإعجاب بنور. معجب بقوتها. بذكائها. بشكلها. وخصوصًا بلدغتها. لكن أمي دفعتني إلى مرحلة أخرى. شعرت وأنا أدافع عن نور أني ملتزم بالدفاع عنها، متمسك بها.. فخور بها.

فكرت لاحقًا أني ربما أعلن بلا وعي فطامي من أمي بهذه الطريقة. أعلن أني كبرت. أتمرد عليها وعلى تدخلها المستمر في كل صغيرة وكبيرة. لعل الأمر تأخر؟ لعل هذا يحدث في المراهقة عادة؟ ربما أراهق الآن. كنت مشغولًا في مراهقتي بالحصول على رضاها. الآن ربما جاء وقت التمرد. وأنْ تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي. فكرت أنْ أسأل أمي: أيهما أفضل؟ بنت هدباء أم فتاة ألمانية لا تعرفين أصلها وفصلها؟ غالبًا ستتبرأ مني في الحالتين. على الأقل ستهدد بذلك.



(١) المقوصة: الوقحة، تستاهل القواص - ضرب النار.

(٢) المرضي: الذي يرضى عنه أبواه.

(٣) سوق الحميدية: أهم أسواق دمشق وأكثرها شهرة.

لكن هل كل هذا حب أصلًا؟ هل أحب نور؟

قاطعني «فرويد» بداخلي: هل هناك حب أصلًا؟! عدلت من سؤالي: هل أريد أنْ أتقدم لها؟ والأهم من كل هذا: هل يمكن أنْ تكون نور مُهتمة بي؟

* * * *

اتجهت للطب النفسي كي أفهم أكثر عن دوافع الناس من حولي. وكي أفهم دوافعي شخصيًّا، بطبيعة الحال. لا أحد في دمشق يدخل كلية الطب، وعيناه على تخصص الطب النفسي. ليس فقط لأنَّه غير مُربح جدًّا كما تخصصات كثيرة، ولكنَّ سُمعة الطبيب النفسي هي أنَّه «طبيبُ مجانين» و«أنَّه يصبح مجنونًا مثلهم» بالاستناد على مَثَل (مَن عاشر القوم أربعين يومًا).. الذي يمكن أنْ يكون عند الناس أقوى من ألف دراسة وألف إحصائية.

مثل الجميع تقريبًا، دخلت الطب وعيْنَي على الجراحة، العامة أو التخصصية.. جراحة العيون أو التجميل أو الهضمية. الجلدية أيضًا أصبحت مُربحة جدًّا بعد البوتوكس والفيلر بعد أنْ كان أطباء الجلدية يعتاشون على وصف الكريمات والمراهم. الباطنة ربما، رغم أنَّها ليست مُربحة جدًّا. النسائية مُربحة ولكنها مُربحة للفتيات أكثر لأنَّ مجتمعنا يفضلهن في هذا التخصص. الأطفال غير مُربحين، ولكنه تخصص مُريح، يُترَك للفتيات أيضًا.

هذه قائمة رغبات طلاب الطب. ليس كل ما يتمناه طالب الطب من تخصصات يدركه بطبيعة الحال، وسيذهب كثيرون منهم إلى تخصصات لم يحبوها يوم درسوها، والبعض منهم لن تكون فرصة التخصص متاحة

له أصلًا، لكن في كل الأحوال، تخصص الطب النفسي لن يكون ضمن أحلام غالبية الطلبة، وكنت من هذه الغالبية، حتى السنة الرابعة، عندما بدأنا نأخذ مقررات الطب النفسي، وتزامن ذلك مع حدث كبير في العائلة.

* * * *

كان والدي قد بدأ بالتغير منذ فترة. ظهرت عليه كل أعراض (الزوج الخائن) التي تظهر في الدراما المصرية والسورية، وفعل ذلك كما لو أنَّه أخذ الأمر بالمسطرة من سيناريو مسلسل. الاهتمام المبالغ بمظهره. كمية هائلة من العطر. صبغ الشيب بأسود فاحم. ارتداء مشد لإخفاء الكرش. كل شيء يدل على أنَّ هناك شيئًا ما، دون وجود محاولة لتبرير أو تفسير منه. أمي تهكمت في البداية وقالت له إنَّها المراهقة الثانية وشكَّت بالسكرتيرة كما يحدث في المسلسلات، ثُم حيدتها من الشكوك وتحالفت معها للحصول على معلومات مباشرة، والدي كان مُصرًّا على الإنكار والقول إنَّه مُهتم بمظهره طيلة عمره، وإنَّ شكل المحامي يجب أنْ يكون مقبولًا، وإنَّ هناك اليوم محامون شباب في منتهى الأناقة والوسامة وإنَّه يجب على الجيل الأقدم مواجهة التحدي.

استمر الأمر بتذبذب، ولكنه طال، وبدا الأمر بالتدريج أنَّه أكثر من مجرد نزوة عابرة، بل ربما كان (عَلاقة)، وبدأت أخبار صغيرة تصل إلى والدتي، أحيانًا بالصدفة - كأنَّ تقول لها صديقة (فاعلة خير) إنَّها شاهدته أكثر من مرة يركن سيارته في حي القصور[1]، وتسألها إنْ كان له أقارب هناك.. أو بعض الأخبار التي سربتها لها السكرتيرة عبر التحالف السري بينهما.

---

(١) حي القصور: حي في شرق دمشق، يرتبط بحي القصاع والتجارة.

تغير سلوك أمي هنا، لم تَعُد قلقة، لم تَعُد تشكو من مظهر أبي أو تأخره أو تغيره. فجأة صارت تتصرف كما لو أنَّ كل شيء بخير وكما كان بالضبط. كانت العلامات تزداد وضوحًا، وكانت أمي تزداد تجاهلًا لها. كانت هذه أول مرة أنتبه لحالة الإنكار مجسمة في شخص قريب مني. كل شيء واضح، ولكن ليس لأمي. هل يُعقل ذلك؟ لا. لا يُعقل. لكن الأمور ليست دومًا بالعقل. أحيانًا يختار اللاوعي أنْ يتقدم ليحمي صاحبه من الألم الواعي. وهذا ما حدث لأمي. وربما ما كنت سأفهم كل هذا لولا مادة الطب النفسي ومقرراتها في تلك السنة.

انتهى الإنكار بطريقة مؤلمة. اعترف والدي، بعد أشهر من كل هذا، تحديدًا عشية الأول من رمضان، إنَّه قد رُزِقَ بصبي من زوجته الجديدة. وكان الاعتراف بمناسبة أنَّه سيتناول الإفطار في أول يوم رمضان مع أسرته الجديدة.

لم يكُن هذا كل شيء. أعتقد الآن بأثر رجعي أنَّ أمي كان يمكن أنْ تتقبل الوضع أكثر لو أنَّ والدي تزوج بصبية في العشرين، شقراء ومغناجة وتبحث عن زوج ميسور الحال. لكن والدي تزوج أرملة أربعينية من درعا، لديها ثلاث بنات قاصرات، ولا مال لديها. كانت أمي ستتقبل أنَّها كبرت وأنَّ أبي نظر لفتاة صغيرة في السن. لكن أنْ تكون غريمتها أرملة في الأربعين، تصغرها بسنوات فقط، ولديها ثلاث بنات وبلا مال وليست شامية؟ كان ذلك أكثر مِن أنْ تحتمله كرامتها. أُصِيبَت أمي في «الأنا» بضربة كبيرة، ورأيتها تدخل في اكتئاب طويل، تقضي اليوم في نوم مستمر، وتظهر عليها بوضوح أكثر من نصف أعراض الاكتئاب المذكورة في كتب الطب النفسي.

في تلك الفترة لجأت إلى كتب علم النفس لأفهم دوافع أبي في اختياره لتلك المرأة لتكون زوجته الثانية، وبحثت في دوافع سلوك أمي تجاه ما أظهره أبي من سلوك، بعض الأمور كانت واضحة جدًّا، والبعض الآخر كانت أقل وضوحًا، والدتي كانت تذكِّر أبي دومًا بأنَّها شامية تزوجت من ديري، لم يكُن هذا يحدث في حالات الغضب أو النزاع فقط، بل حتى في فترات الصفاء، كانت تستخدم هذه الورقة للضغط عليه، وكانت تبرر بها سيطرتها على كل شيء في البيت، وأيضًا عليه. استمرت تطالبه بتقديم التنازلات التي تجعله يبدو كما لو أنَّه يتنصل شيئًا فشيئًا عن أصوله الديرية. لا تقُل هذه الكلمة أمام أهلي. لا تطلب شايًا أمامهم. قهوة بس. سادة أو وسط. لكن بالتأكيد لا تطلبها حلوة. لا يشرب القهوة حلوة إلا مَن لا يعرف «طعم فمه». لا تتحدث ديري مع الأولاد. لا تلبس هذه الألوان. وكلها نصائح كانت من بديهيات حياتنا اليومية أنا وأخي مأمون، يمكن لأي شامي أنْ يخالف بعض هذه القواعد دون مشكلة كبيرة. لكن نحن بالذات، لا يمكن.

أبي من الخارج كان يبدو أنَّه منصاع تمامًا لطلباتها رغم شدة اعتزازه بأصوله وحرصه على التحدث عنها. كان يحرص على أنْ يبدو كما تريد خصوصًا أمام أهلها وناسها، ولكن داخل البيت كان حرصه أقل، كما لو أنَّ شخصيته التي تناسب أمي كانت ثوبًا يرتديه في الخارج ويخلعه فور دخوله إلى المنزل. بالتدريج تمكنت من تقليل بعض عاداته داخل البيت أيضًا. بعضها وليس كلها. مسألة «الكلاش الديري»[1] كانت مثار

---

(١) الكلاش الديري: حذاء صيفي أو صندل يصنع في الدير من جلد البقر أو جلد الغنم، ومقسوم إلى مجالَيْن أساسيين عند اللبس، المجال الأول؛ للإصبع الكبير فقط، وهو على شكل قوس صغير، والمجال الثاني؛ على شكل سقفية جلدية تجمع باقي أصابع القدم ويكون مكشوفًا من الخلف.

نزاع دائم بينهما. «الكلاش» يثير أعصاب أمي، أبي، لسبب ما لم أفهمه تمامًا، يعتبره (خطًّا أحمر) لا يقبل المساس به طالما أنَّه يرتديه في البيت فقط ولا يظهر به أمام أي ضيف أو زائر. رغم هذا لم تَكُف أمي عن العداء تجاه الكلاش، وعندما قررت أنْ تعاقبه بعد زواجه الثاني، وضعت له كل ملابسه وحاجياته في حقيبتين وضعتهما عند الباب، لكي يأخذها ولا يعود أبدًا. أما مجموعة الكلاشات التي يملكها فقد وضعتها في كيس قمامة أسود اللون بجانب الحقيبتين، لكن بعد أنْ قطعتها كلها بالسكين، في حركة انتقام رمزية مليئة بالمعاني.

مِن الواضح أنَّ ثمَّة خزينًا إستراتيجيًّا مكبوتًا من التمرد كان يتراكم داخل أبي. وهو ما انتهى بزواجه من كل ما سيضرب أمي في صميم كرامتها.

ما زاد الأمور سوءًا على أمي أنَّ أحدًا من عائلتها لم يقبل التحالف معها في إظهار العداء لأبي، أو مقاطعته، باستثناء خالتي سلمى طبعًا، التي لم تنجح في ضم زوجها إلى المقاطعة. كان أبي محترمًا جدًّا من قِبَلهم جميعًا، لم يكُن أيًّا منهم مقتنعًا به في البداية، لكنه أثبت لهم جميعًا أنَّه شخص محترم ومهذب و«عقله كبير»، وكان يترافع في كل قضاياهم الصغيرة والكبيرة بمهارة ودون أنْ يتقاضى منهم فرنكًا واحدًا، بل كان غالبًا يدفع عنهم ما يضطر زبائن المحامي دفعه بالإضافة إلى أجور المحاماة.

انتهى الأمر بأمي بأنْ تأخذ حلًّا وسطًا ينقذ ماء وجهها اجتماعيًّا، اخترعت قصة حزينة لأرملة صديق أبي الدرعاوي التي تحتاج إلى السند والدعم، (وأبو مأمون رجل شهم كما تعرفون، إلخ).

لا أحد كان يصدق أنَّ هذا موقف أمي الحقيقي من الأمر، لكن اللياقة كانت تتطلب إظهار التصديق. أما مع أبي، بينهما، فقد استمرت أمي في سلوكها نفسه معه، لولا أنَّها بنت أصول لكانت طالبته بالطلاق، لكنها بنت أصول ومربايةٌ[1] ولا تخون وتربّت على «مين مالحك لا تخونو، ولو كان عبد خوان»[2] أي بعبارة أخرى: ليس كما فعل هو.

صارحت أبي بتحليلي هذا، عندما أخبرني أبي بأمر زواجه، قلت له إنَّ زواجه هذا كان تعبيرًا عن التمرد المكبوت تجاه سلطة أمي ومحاولتها «إخراجه من كونه ديريًّا»، لم يعارضني على التحليل، لكنه قال إنَّه إذا فعل أي شيء بهذا الاتجاه فقد كان لمسايرة أمي ومشاعرها تجاه شكلها ووضعها أمام أهلها، لا لشيء آخر، لأنَّه لم يكُن مقتنعًا بما يفعل، ولا كان يعتبر أنَّه يتطور أو يتمدن أو يترقى عندما كان يبدو «شاميًّا» أكثر.

قال لي: لم أكُن مُعقدًا قط من كوني ديريًّا. على العكس، أنا فخور بذلك، وأعتبر قيم الكرم والشهامَة أكثر ظهورًا في الدير من غيرها. إذا كان لدي عقدة، فربما هي عقدة تفوق، لا نقص...

ثُم قال: المشكلة فيكم أنتم الجيل الثاني، لا هنا ولا هناك. لا أنتم من الدير، ولا أنتم من الشام.

كان محقًا في هذا.

****

عندما أخبرت أمي إني سأقدم لدراسة الطب النفسي في ألمانيا صُدِمَت وقالت لي: «ماذا سأقول للناس يعني؟ طبيب مجانين؟ إذا ارتفع عندي أو عند خالاتك الضغط والسكري لا تستطيع معالجتنا»؟

---

(١) مربابة: حسنة التربية.

(٢) مَثَل شامي يعني لا تخُن مَن أكلت معه حتى لو خانك.

قلت لها أنْ لا تقلق من ذلك. سأتدبر علاج الضغط والسكري. لم أخبرها إنَّها ووالدي مِن أسباب اهتمامي بهذا التخصص.

****

ربما الأهم مِن فهم دوافع مَن حولي، فهم دوافعي أنا. في داخل كل طبيب نفسي جزء من هذا الدافع، على الأقل هذا ما أعتقده أنا. في الغالب، الأطباء النفسيون يجدون في هذا التخصص مَنفذًا للحياة الواسعة. للحياة الحقيقية بمصاعبها ومتاعبها وأفراحها وأحزانها. القولون والقلب والكبد ومفصل الركبة لا يمنحون هذه الفرصة. لكن الطب النفسي يفتح أبواب هذه الفرصة على اتساعها.

وضمن هذه الأبواب، هناك فرصة للتعرف إلى النفس على نحو أوسع. تعاملت مع نفسي دومًا على أني عقلاني جدًّا. وكنت كذلك بالفعل. لا أحتاج الكثير لفهم دوافعي لأنَّها واضحة دومًا. حتى هذه العقلانية استطعت إلى حدٍ كبيرٍ أنْ أفهم كيف زُرِعَت في داخلي. كنت أشعر أنَّ المجتمع حولي لم يتقبلني تمامًا لأنَّ أبي من دير الزور، لست شاميًّا مائة بالمائة، لذلك حرصت دومًا أنْ أبذل جهدًا أكثر من أقراني لكي يقبل بي الناس من حولي. أدرس أكثر، أتفوق أكثر، أكون مطيعًا ومهذبًا أكثر، متدينًا أكثر، كنت أحرص حتى على استخدام أمثلة شامية قديمة ومصطلحات شبه منقرضة كي أبدو شاميًّا.

هل كان لذلك نفع؟ لا. للأسف لا. يمكن أنْ تكون محترمًا جدًّا ومحبوبًا جدًّا وحتى أفضل بنظرهم من «شامي أصيل» لكن ستبقى «مانك شامي»[1]. كانت هذه الكلمة تبدو لي أحيانًا كما لو كانت إهانة، رغم أنَّ ذلك غالبًا لم يكُن مقصد قائلها.

---

(١) مانك شامي: لست شاميًّا.

حتى في موقفي من «الثورة»، كنت أحاول تبريره بمنطلقات شامية، استخدمت أمثالًا شامية لكي يبدو موقفي أكثر وجاهة وانسجامًا.. «حط راس بين الروس وقول يا قطاع الروس»[1]، «اللي يتجوز أمي أقول له عمي»[2].. لكن ذلك كان يبدو سخيفًا ومتناقضًا عندما يكون النقاش مع ثوار شوام.

أذكر تلك النظرة التي أطلقها عليَّ أنس يوم استخدمت هذه الأمثال في النقاش معه عن الثورة، كانت نظرة قاسية جدًّا، شعرت أنَّه يقول فيها «مانك شامي» بطريقة لئيمة. لم يقُلها. لم يقُل شيئًا قريبًا منها بالأساس. لكني قرأتها في وجهه. كنت واثقًا أنَّه قالها في نفسه، لكنه تحكم بها كي لا أتهمه «بالمناطقية» و«العنصرية» وينسحب ذلك على النقاش ضد الثورة.

كففت تمامًا عن استخدام هذه الأمثلة بعدها، دون أنْ أغير موقفي من الثورة، بالنسبة لي، كشخص عقلاني، كانت الثورة فعلًا لا عقلانية في الظروف التي حدثت بها. ولم يكُن هناك أي مبرر يمكن أنْ يجعلني أؤيدها. لكن الآن، لا أجد مبررات عقلانية كافية لفهم سلوكي تجاه نور. منذ البداية، جذبتني على نحو غير مفهوم. جاذبية النظرة الأولى إلى شخص ما هذه غالبًا تفسر بأنَّ هذا الشخص يذكر لا وعيك بشخص كنت تحبه سابقًا أو شخص كنت ترتاح إليه، ربما كان الأمر عميقًا في ذكريات لا تميزها بوضوح في طفولتك، وربما كان أحدث من ذلك، لكن أي تأثير مباشر للنظرة الأولى لا بد أنْ يكون مرتبطًا بشيء ما في ذاكرتك.

---

(١) مثل شامي يفيد بمعنى الحشر مع الناس عيد.

(٢) مثل يفيد المسايرة وسهولة التأقلم.

نور بدت أليفة ومألوفة جدًّا منذ اللحظة الأولى. لكن هل تذكرني بأحد؟ لا أعرف. ربما تذكرني بكثيرين أو كثيرات، وربما تذكرني بشخص واحد لست واعيًا تمامًا لهويته، لكنها كانت «شامية» جدًّا. ملامحها شامية، بشرتها بيضاء صافية، جمالها هادئ، من النوع الذي يمكن أنْ تجد مثله.. في «الجسر الأبيض»[1] و«الطلياني»[2] و«شارع الحمرا»[3].. هل كانت نور تذكرني بواحدة معينة؟ أم أنَّ الملامح الشامية وحدها كانت كفيلة بخلق هذا الإعجاب؟ لا أعرف. حضورها يجعل تلك السيالات العصبية المسؤولة عما يسميه الناس «حب» تفرز.. أوكسيتوسين ودوبامين، ويقلل في الوقت نفسه من السيروتنين.. هل وجود صفات معينة فيها هو الذي يفرز هذه السيالات أم أنَّ هذه السيالات هي التي تزين لي صفات نور؟

كمحلل نفسي أعرف أنَّ بعد «إعجاب اللحظة الأولى» هناك الكثير مما يمكن أنْ أفهمه من دوافع جعلتني مستمرًا في انجذابي لنور. كونها شامية الأب والأم ومِن أسرتين دمشقيتين من (داخل السور) قد يكون له علاقة بهذه الجاذبية.

أريد أنْ أثبت لنفسي أني قد أصبحت شاميًّا، أو أني على الأقل أصبحت مقبولًا عند «الشوام». شعوري المستمر بأني غريب أو مرفوض أو خارج

(١) الجسر الأبيض: من مناطق التسوق في دمشق، أصل الاسم يعود لأنَّ المنطقة في الأصل كان يمر فيه نهر صغير وعليه جسر أبيض يربط جادة بستان الرئيس بجادة العفيف.

(٢) الطلياني: جزء من منطقة الصالحية، وتلي منطقة الجسر الأبيض، عُرفت بهذا الاسم بسبب مشفى الطلياني الذي أُسس من قِبَل جمعية خيرية إيطالية في عام ١٩١٣، وكان يُدار من قِبَل الراهبات.

(٣) شارع الحمرا: أحد الشوارع التجارية الحديثة في مدينة دمشق، ويضم مجموعة من المحلات الراقية، يصل إلى شارع العابد من جهة الشرق وساحة عرنوس من جهة الغرب، وعلى جانبي الشارع المحلات التجارية والوكالات المتخصصة في الملابس والأزياء النسائية وكذلك محلات لنشاطات مختلفة ودور أزياء.

قوس يمكنه أنْ يهدأ قليلًا -أو حتى يختفي، لمَ لا؟- لو تزوجت من فتاة شامية من عائلة عريقة مثل نور.

وهذا ليس كل شيء، نور ليست فتاة شامية تريد أمي أنْ تزوجني منها، بل هي فتاة شامية تقف أمي منها موقفًا مضادًا ومحاربًا، كما لو أني أريد أنْ أثبت لنفسي أني كبرت، لم أعُد الشاب الذي يرتدي ما تشتريه له أمه. لم أعُد ابن أمي. بل ها أنا أتمرد وأثبت أني قد كبرت. نور تحقق معادلة معقدة، هي بمواصفات ترضي أمي، وفي الوقت ذاته تحقق لي رغبتي في الخروج عن مسطرة أمي وسيطرتها. ليس هذا فقط. قوة نور واضحة من طريقتها في الكلام. من أول جملة يمكن الانتباه إلى هذا. ثمَّة نبرة قوية في طريقة الكلام، مثل نبرة الكثيرات من السيدات المنتميات للقبيسيات، نبرة تمنحهن القوة والحماية مُسبقًا، لا غنج ولا دلع في الكلام، على الأقل ليس خارج البيت. أمر يناسبني جدًّا. أمي كذلك أيضًا. لا شيء يربطها بمفهوم «النسوان» في باب الحارة ودراما المسلسلات الشامية.

أما نور، فقد كانت تشبه نساء باب الحارة بشكلها الشامي، ولكنها بشخصيتها أقرب إلى «العكيد[1]». وكان هذا يزيدها جاذبية، كما لو أني أريد امرأة بقوة العكيد في حياتي. كما لو أني أريد امرأة أحتمي بها. هل من عُقد إضافية تكشفها مشاعري هذه يا ترى؟ وأين نور من كل هذا؟ فكرت أنْ أتصل بها فورًا لأسألها إنْ كانت تقبل بي زوجًا، لكي ينتهي كل هذا النقاش.. لكن لا.. لو رفضت سينتهي كل شيء فعلًا.. الآن هناك أمل.

(١) العكيد أو العقيد شخصية من شخصيات الحارة الدمشقية القديمة، ويكون عادة شخص قوي البنية ويدافع عن أهل حارته من أي خطر خارجي.

شهادة -٤-

فارس شاكر/ فرع الأمن العسكري ٢٢٧

صوت تسجيل مباشر وواضح - لا توجد صورة

«كنت في السنة الرابعة من كلية الطب عندما اعتُقِلت، الجميع عاملني على أنني طبيب. وجعل هذا لي مكانة خاصة عند السجَّانين. كانوا يطلبون مني التأكد من وفاة المُعتقلين. مرت عليَّ ١٢ حالة وفاة خلال الأربعين يومًا التي اعتُقِلت فيها، أغلبهم كانوا لشباب تعرضوا لتعذيبٍ، وواحدة فقط كانت لمعتقل متقدم في السن كان في الانفرادية».

«لم نكُن في مهجع أو زنزانة عادية لأنَّ الفرع كان مُكتظًا بالمعتقلين، لذلك كُنا نملأ الممرات بين المهاجع والزنازين مما يجعل التشدد في الرقابة علينا أكبر وأدق، كل ضابط أو سجَّان يمر بالقرب منا كان يجب ألا يسمع أي صوت يصدر مِن أي أحدٍ وإذا سمع همسة فالنتيجة (ما في عشا يا كلاب)».

«كان هناك رجل حمصي أربعيني يشيع البهجة في المكان، ويتحدث مع الجميع ويحرص على تقوية معنويات المنكسرين، وكان يتحدث معي كلما لاحظ ضعفي، نصلي معًا، ونقرأ مما نحفظ من قصار سور القرآن، ويفرح إذا قرأت شيئًا مما لا يحفظه.. كان معتقلًا لأنَّ شقيقه خرج في مظاهرة مناصرة للثورة في أوروبا أو كندا، ذات يوم أخبروه إنَّه سيخرج بعد أيامٍ وأصبح في منتهى الفرح والنشاط بسبب ذلك، في اليوم الموعود

نادوه وودعنا.. ثُم عاد وقد تبين أنَّهم قد عذبوه بالكرسي الألماني.. لم يرغب في الحديث عما جرى وانزوى ولم يَعُد يتحدث مع أحدٍ، وانقطع عن الصلاة، عندما أُفْرِج عني كان لا يزال مُعتقلًا، ومنظره وهو منكسر لا يغيب عن بالي».

«أمرونا بالوقوف جميعًا لسبب لا أذكره، ربما عقوبة أو تفتيش أو لمرور أحد، وطلب أحد المُعتقلين المتقدمين في السن الإذن بالجلوس، كان قد أُجْرِيَت له عملية في صدره قبل أنْ يُعْتَقل، وكانت فتحة العملية لا تزال موجودة، السجَّان ضربه وشتمه بطريقة مهينة أثرت فيَّ جدًّا، لم أحتمل المنظر وصرت أبكي على الرجل وخاف من حولي أنْ ينتبه السجَّان لصوت بكائي فينتقم منا جميعًا فصاروا يهمسون لي متوسلين أنْ أسكت، كانت محاولتي مغالبة دموعي يومها لا تقِل ألمًا عما تعرضت له من تعذيب لاحقًا».

«... أحد المُعتقلين عاد من جلسة التعذيب وهو غير قادر على المشي، كان يترنح بين الجالسين ويعتذر منهم لعدم قدرته على السيطرة على سيره... أخبرنا إنَّهم أجبروه على الجلوس على قنينة مياه غازية.. كان يقول (خوزقوني) وهو يحاول أنْ يداري ألمه بالسخرية من نفسه».

«كان هناك ثلاثةُ أطفالٍ بيننا، كلهم دون العاشرة، واحد منهم تعرض لتعذيب شديد عندما جاؤوا به أول مرة.. كان مُتهمًا بإدخال الماء إلى مخيم اليرموك».

«سمعتُ بوجود مُعتقل علوي[1] قبل دخولي. قالوا إنَّه تعرض للتعذيب

(١) العلويون: طائفة دينية منشقة عن الشيعة الجعفرية الاثني عشرية، يعتبر محمد بن نصير مؤسسهم لذا يسمون أحيانًا بالنصيرية، يتركز معظمهم في جبال الساحل السوري وريف حمص وحماة واللاذقية وطرطوس والإسكندرونة، كما لهم وجود في تركيا. نسبتهم السكانية في سوريا تتراوح بين ٧٪ حسب أقل تقدير و١٣٪ حسب أعلى تقدير روج له النظام في السنوات الأخيرة، أرقام الدراسات الأمريكية تحددهم بـ١٠٪. منذ انقلاب ١٩٦٣ ونسبتهم في الجيش والقوى الأمنية لا تماثل نسبتهم السكانية، إذ كانت اللجنة

أكثر من الجميع».

«لأني طبيب كان السجَّان يطلب مني تنظيف غرف الضُباط، وفي مرة في أثناء تنظيفي للغرفة وجدتُ كِيسًا للسكر، وضعته في جيبي وأخذته معي، عُدت إلى زملائي كما لو أنَّ معي كنزًا، أكلنا السكر كما هو، لم يكُن لدينا ما يمكن أنْ نضيفه له، وكان مذاقه بالنسبة لنا كما لو كان أشهى حلوى يمكن أنْ نأكلها... قبل فترة جربتُ أنْ آكل السكر بالطريقة نفسها، فكان مذاقه غير مستساغ واضطررت إلى شرب الماء لتغيير المذاق».

«ضمن مهام التنظيف التي كنت أُكلف بها، كنت أحيانًا أحمل حقائب المُعتقلين الذين تم اعتقالهم من المطار أو من المراكز الحدودية وأقوم بإنزالها إلى المستودع، وفي أثناء ذلك كنت أفتحها وآخذ كل ما فيها من أدوية وملابس داخلية نظيفة. الآن ربما ننظر إلى الأمر أنَّه سرقة وعمل غير أخلاقي، لكن وقتها كنت أبرره بحاجتنا إلى ذلك. أكثر الأدوية التي وجدتُها كُنا بحاجتها فعلًا، مسكنات ألم ومضادات حيوية وأدوية ضغط وسكري».

«في مرة فتحت حقيبة ووجدتُ فيها علبتي «فريرو روشيه»، أخذتهما معي ووزعتهما على المُعتقلين. قطعة لكل مُعتقل. أحدهم نظر إلى العلبة وقال هذه مِن حقيبتي. ابتسمت وقُلت له (معناها يطلعلك قطعتين)، أخذ واحدة فقط وترك الباقي لبقية المُعتقلين».

العسكرية التي قامت بانقلاب ١٩٦٣ بأغلبية علوية حرصت على استبعاد المكونات الأخرى من الجيش، ومع انقلاب حافظ الأسد (علوي الطائفة) في ١٩٧٠ واستلام ابنه من بعده أصبح الأمر مكرسًا في الجيش والأمن والمناصب الحساسة في الدولة. وهذا ما يجعل الكثيرين يصنفون الطائفة بالموالية للنظام والداعمة له. لا علاقة للطائفة بالسلالة العلوية في المغرب.

«في مرة كنت أسحب جثة مُعتقل، وقُلت للجالسين: (وسعوا الطريق يا شباب معنا شهيد).. لم أنتبه إلى السجَّان خلفي، ضربني بشدة على رأسي وشتمني وشتم أهلي وهو يصحح لي (اسمه فطيس).. فاعتذرت له».

«تمنيت الموت كثيرًا. كنت أتمنى لو أستطيع الانتحار.. لكن لم يكُن ذلك متاحًا... كنت أدعو الله كثيرًا أنْ أموت لكي ينتهي كل شيء».

«ألمُ الجرَب والجوع ونقص المعادن لم يكُن أقل من ألمِ التعذيب، الجرَبُ كان فيه ألمٌ نفسي بسبب تَعوُّدنا على النظافة».

«كنت أحلم أحلام يقظة. أحلم بالكنافة النابلسية، والمدلوقة، وأنواع مختلفة من الطعام. أحلم بصوت الفتاة التي أحبها، ورؤية أهلي».

«أكثر ما تعرضت له من تعذيب كان عبر الكرسي الألماني، الضُباط كانوا يُسمونه (الكرسي) فقط، لكن المُعتقلين كانوا يعرفونه باسم الكرسي الألماني، هو كرسي بمسند ظهر متحرك، يمكن أنْ يُثنَى إلى الأمام أو الخلف، ننبطح أرضًا على بطوننا، ثُم يُوضَع الكرسي فوقنا، وتُسحَب أيادينا إلى الخلف، وتُمرر بين قضبان المسند وتُوثق، وتُوثق أقدامنا أيضًا لمنعها من الحركة، ثُم يبدأ ثني المسند إلى الخلف بحركات شديدة متكررة بحيث تضغط فقرات العمود الفقري على بعضها، الضغط الأكبر يكون على العنق على نحو يجعلك غير قادر على الصراخ أو التنفس».

«تحت الكرسي الألماني اعترفت بأسماء أصدقائي الذين شاركوا في المظاهرات، وبقيَ هذا الأمر مؤلمًا حتى الآن، كلما تذكرت أني قد تسببت لهم بالتعذيب».

«الكرسي الألماني واعترافي بأسماء أصدقائي تحته كان بداية فترة اكتئاب حاد دخلتها وبقيت معي لفترة طويلة بعد خروجي.. أصبت بشرخ في الفقرات السفلية جراء الكرسي الألماني، شرخ بسيط قابل للالتئام مع الوقت.. لكن الشرخ النفسي الذي أصابني غير قابل للالتئام».

«فقدت قدرتي على الإيمان بالله للأسف. لم ألحد بالضبط. لكني لم أستطع العودة إلى إيماني. حدث ذلك بعد خروجي من المُعتقل. تنقلت بين الإلحاد والإيمان والشك والحيرة والضياع. الآن أحاول أنْ لا أفكر بالموضوع. أؤدي شعائر معينة في أوقات معينة. أتمنى لو أني رجعت مثل السابق».

«لن أنسى. لا يمكن لي أنْ أنسى. أريد أنْ أبقى على حقدي تجاه العصابة الحاكمة في سوريا. لا أريد أنْ أنسى. دَخَل ما حدث في حياتي وشخصيتي وعَلاقاتي بحيث لا يمكن لي أنْ أنساه. لن أنسى. مستحيل.

... لكن أتمنى لو لم أَمُر بكل هذا».

شهادة -٥-

هدى/ اسم مستعار/ الحديث عبر جهاز تغيير الصوت فرع المداهمة ٢١٥

«كنت مِن ضمن عشرات الفتيات الفلسطينيات المُعتقلات عند النظام. اعتُقِلت مِن قِبَل عناصر الجبهة الشعبية ثُم سُلِّمتُ لعناصر الأمن».

«كانوا يسألونني عن أسماء لشباب وشابات من مُخيم اليرموك، وعندما كنت أنكر معرفتي بهم كانوا يضربونني، بالعِصِي أولًا، وبالتعليق ثانيًا، وبعدها بالكهرباء».

«اغتصبوا أمامي فتاة في الصف التاسع، تناوب عليها ٦ عساكر في النهاية لم تَعُد تتحرك، كانت تنزف بشدة فقط.. كانوا يقولون لها في أثناء اغتصابها إنها ستحبل وإنها ستربي أولادهم غصبًا عنها....».

«عُلِّقْتُ في المروحة لساعاتٍ، ثُم قطعوا الحبل فسقطتُ على الأرض، عندها اغتصبوني.. كنتُ منهكةً مِن التعليق وعندي آلام بسبب السقوط.. لم أقوَ على المقاومة...».

«لمدة ١٥ يومًا تعرضت للاغتصاب، في يوم واحد اغتُصِبت عشر مراتٍ».

«كانت إحدى المُعتقلات قد حبلت جراء الاغتصاب ثُم أنجبت في الزنزانة طفلًا خديجًا غير مكتمل النمو، ربما كان ابن ستة أشهر.. أطلق السجَّانون النار عليه أمامها بعد أنْ وضعته.. وتناثر رأسه عليها، أُصيِبت الفتاة بالجنون، وقتلوها لاحقًا للتخلص منها».

«تركوني في غرفة مظلمة لمدة ثلاثة أسابيع، اكتشفت بالتدريج أنَّها كانت مليئة بجثث المُعتقلين. تحسست الأشياء حولي واكتشفت أنَّها جثث. كنت محاطة بجثث بدأت بالتعفن. كذلك اكتشفت خلال هذه الفترة أني قد حملت جراء اغتصابي، لكن في أثناء الضرب والتعليق أُصِبت بنزيف، وفقدت الحمل».

«أسوأ ما حدث لي بعد خروجي كان موقف الناس مني. كنت مخطوبة عندما اعتُقِلت، خطيبي فسخ الخطبة، سألني إنْ كنت قد تعرضت لشيء من هذا عند اعتقالي. ما كان من الممكن أنْ أنكر. انتشر الخبر في كل مكان. مَن سيتقدم للزواج من فتاة تعرضت للاغتصاب - الله وحده يعلم كم مرة؟».

-١٣-

أرسلت نور رابط الشهادتين ليلًا في وقتٍ متأخر. حمّلتهما صباحًا، وشاهدتهما على الهاتف في طريقي إلى المشفى، والسماعات في أذني. بدا لي فارس مألوفًا، غالبًا كان يكبرني بعامين أو أقل حسب وقت اعتقاله. يمكنني أنْ أشعر بكل ما قال وأفهمه. ويمكنني أنْ أتخيَّل نفسي في مكانه وقد خرجت بشروخ جسدية يمكن أنْ تلتئم، وأخرى نفسية، عصية على الالتئام. من الواضح أنَّه تمكَّن من الخروج من سوريا. ربما كان يعادل شهادته أو يتخصص الآن في ألمانيا أو كندا أو أمريكا. لكن تجربته في سوريا لن تخرج منه على ما يبدو.

مع الشهادة الأخرى التي قدمتها هدى، كان الأمر مختلفًا. أستطيع أنْ أتخيَّل نفسي في موضع فارس، أنْ أفهم -ولو تقريبًا- كل ما عاناه. لكن مع هدى، لا أعتقد أنَّ أي رجلٍ قادر على أنْ يتخيَّل هَول ما مرت به. الاغتصاب جريمة فيها من الحميمية ما يجعل الجرح الناتج عنها شديد العمق. الكرسي الألماني عذابه جسدي، قد يشرخ الفقرات، لكنَّ الاغتصابَ يشرخُ الروحَ.

صوت هدى حَمَل ذلك الانكسار الناتج عن شرخِ الروح. المجتمع عاقبها أيضًا بشروخ أخرى. صوتها حَمَل كل الشروخ. عندما أزلت السماعات عن أذني بدا العالم من حولي غريبًا جدًّا. كل شيء كما كل صباح. يومٌ آخر من أيام الأسبوع في المترو. الناس في طريقهم إلى أعمالهم. يسمعون الموسيقى في سماعات الأذن. أو يقرؤون كُتبهم، أو يلعبون على الهاتف.

المشهد نفسه كل يوم. لكني أشعر كما لو أني كُنت في عالم مُوازٍ، وعُدت فور أنْ أزلت السماعات. أو ربما العكس. العالَم الحقيقي كان العالم الذي تحدثت عنه هدى. عالَم ربما لا يتخيَّل رُكاب هذا المترو وجوده أصلًا. كلٌ منهم لديه متاعبه وعذاباته. لكن عذابات وآلام كل رُكاب المترو مجتمعين ستبدو تافهة أمام ما سمعته.

شتمت النظام والثورة معًا.. لكن هذا لم يغير شيئًا من صوت هدى الذي بقيَ في أذني.

****

أخبرت «أزرا»، مريضتي ذات الأصل البوسني، إنَّ هذا قد يكون لقائي الأخير بها، وإني سأنتقل إلى مشفى آخر في برلين، وملفها سينتقل إلى طبيبٍ زميل.

بدا عليها الانزعاج، سألتني بلهفة إنْ كنت سأذهب إلى مكان أفضل وإنْ كانت هذه رغبتي، شرحت لها الأمر ببساطة، فنظرت لي مطولًا ثُم قالت لي إنَّها لم تَرتَحْ إلا لي من الأطباء، وإنَّها تتمنى لو كان يمكنها أنْ تواصل العلاج معي في المشفى الجديد. كان ذلك شبه مستحيل.

تشجعت وسألتها عن السبب في ذلك، فقالت لي إنَّها شعرت بتعاطفي معها كإنسان وليس كطبيب فقط، وإنَّ ذلك بدا في عيوني بينما كانت تحكي لي عن تفاصيل مأساتها.

كانت «أزرا» من ضحايا الاغتصاب في البوسنة في أوائل التسعينيات، اغتُصِبَت وهي في الرابعة عشر من عمرها في أثناء هجوم الصرب على قريتها، ثُم احتُجِزَت في مكان مع عشر فتيات أخريات، وعُوملن جميعًا

كرقيقٍ لفترة طويلة، كُن يخدمن الجنود الصرب، يغسلن ثيابهم، ويحضرن الطعام، ومن ثَمَّ يغتصبن من قِبلَهم أو مِن قِبَل جنود آخرين.

بعد تحرير «أزرا» من الأَسر، اكتشفت أنَّ كل أسرتها قد قضت في مذبحة سربرنيتشا التي حدثت عام ١٩٩٥ بعد عامين من احتجازها، بقيت وحيدة بين هيئات الإغاثة ومنظمات حقوق الإنسان وما شابه ذلك، عملت في أعمال بسيطة، تعرضت خلالها للمزيد من التحرش والاستغلال، كادت أنْ تمتهن الدعارة لفترة من شدة العوز، ثُم هربت إلى ألمانيا في أواخر التسعينيات في الوقت الذي كان فيه أغلب اللاجئين البوسنيين قد أُجبِروا على العودة إلى البوسنة أو الذهاب إلى دولة ثالثة.. تدبرت أمورها بالتدريج وأصلحت حياتها في كثير من النواحي، درست وافتتحت مشروعًا صغيرًا خاصًا بها لكنها بقيت تعاني آثار ما حدث لها في مراهقتها. بعد قرابة ٢٥ عامًا مما حدث لها، بقيت «أزرا» عاجزة عن أي عَلاقة صحية مع أي رجل، تخاف من تجمعات الرجال في المترو أو في أي مكان عام، لا تستطيع النوم بسهولة، وتطاردها الكوابيس عندما تنام.

شكرت «أزرا» بصدق على ما قالته، قبل أنْ تخرج التفتت وقالت لي: «شعرت دومًا أنَّ تعاطفك معي كان لأنَّك سوري، أسمع أنَّ في سوريا هناك أشياء فظيعة مماثلة لما حدث عندنا... أتمنى أنْ لا يتكرر ما حدث في البوسنة... لقد أفلتوا جميعًا من العقاب».

كانت هناك نظرة مختلفة في عينيها عندما قالت جملتها الأخيرة. كان هناك انكسار هائل الحجم كما لو أنَّ جزءًا كبيرًا من معاناتها سيخف لو أنَّهم لم يفلتوا من العقاب.

الانكسار في نظرتها بدا لي مطابقًا للانكسار في صوت هدى. لست متأكدًا ماذا كان ردي عليها. لكني فجأة شعرت بخجل هائل يغمرني. الخجل لأني لم أتعاطف بما فيه الكفاية مع الضحايا من أبناء بلدي، فضلت أنْ أنظر إلى الجهة الأخرى وأتجنب ألم معرفة التفاصيل على أنْ أتعاطف معهم على نحو يساعدهم. للمرة الأولى أربط بين «أزرا» وضحايا آخرين تعاملت معهم كطبيب في مشفى ألمانيا، وبين ما أرسلته إليَّ نور من شهادات أو ما سبق لي أنْ اطَّلعت عليه.

نظرتها كانت مزيجًا من الانكسار والعتب واليأس وعدم الفهم. بالضبط، نظرة كان فيها عدم الفهم. كيف يحدث هذا، كيف يفعل هؤلاء كل ما فعلوه ثُم لا ينالون عقوبة.. أي عقوبة.

كسرتني نظرتها. تلك النظرة كانت أقوى من تخصصي المهني، من وصفات الأدوية المُهدئة، من كل أدوات التحليل النفسي.

قابلت بقية المرضى يومها وأنا أحمل صوت «هدى» ونظرة «أزرا» معي، مُنكسرًا ومُثقلًا بهما. أخبرت كل المرضى إني سأنتقل إلى مشفى آخر، وإنَّ ملفاتهم ستنتقل إلى زملاء آخرين، أغلبهم أبدوا أسفهم وتمنوا لي الخير، لكني بقيت منعزلًا عن التعاطف والتفاعل معهم. كانت جملة «أزرا» الأخيرة ونظرتها قد استهلكتني تمامًا.

كان ذلك يومي الأخير في المشفى، دعاني الزملاء إلى عشاء للوداع. لَفتة لطيفة غير متوقعة، ليس لأنَّ لطفهم أمر نادر، بل لأني غالبًا تجنبت الأحاديث والعَلاقات الشخصية معهم. كانوا أربعة، يوناني جاء إلى ألمانيا في طفولته وكبر فيها، رومانية جاءت بعدي بسنة، مصري جاء معي تقريبًا، وأرجنتيني لا أعرف متى جاء لكنه كان يعتبر أنَّ الأرجنتين جزء

لا يتجزأ من أوروبا، على الأقل كان يعتبرها «أوروبية» أكثر من رومانيا.

في العشاء الأخير هذا، أحضر كلٌّ منا «الصورة المُسبقة عن شعبه» معه وقرر أنْ يؤكدها. أصر اليوناني أنَّ الإغريق اخترعوا الطب النفسي.. في الحقيقة لقد قال ضمنًا إنَّهم اخترعوا العالم كله. المصري أكد له أنَّ قدماء المصريين سبقوهم في ذلك، معروفة يعني، حضارة سبعة آلاف سنة. الرومانية قالت بثقة إنَّ المطبخ الروماني أفضل مطبخ في العالم، ودللت على ذلك -ونحن مصدومون- بكمية الثوم والبصل التي تُستخدَم فيه. الأرجنتيني قال إنَّ الأرجنتينيين أكثر أناقة ورشاقة من كل الشعوب الأخرى، وذكر أسماء مشاهير من الأرجنتين ليدلل على ذلك، ميسي ومارادونا وجيفارا والبابا فرنسيس وأشخاص لم أسمع بهم من قبل، ثُم قال بفخر إنَّ الأرجنتينيين هم الأكثر زيارة للمعالجين النفسيين. «لدينا أعلى نسبة معالجين نفسيين في العالم، ٢٠٢ لكل ١٠٠ ألف فردٍ، ثاني دولة هي النمسا، ٨٠ لكل ١٠٠ ألفٍ، تخيَّلوا الفرق»!

قال اليوناني بتهكم: «الرشاقة والأناقة لها ثمنها بالتأكيد». ضحكنا جميعًا. ثُم التفت لي الأرجنتيني وسألني: «وأنت يا يزن، ما هو الشيء الذي تشتهر به سوريا»؟

كنت على وشك أنْ أقول إنَّ دمشق هي أقدم عاصمة مأهولة بالسكان في العالم، وإنَّها مدينة الياسمين.. وجاء في ذهني أيضًا المطبخ الشامي وعدد أنواع الكبة في حلب، بل تذكرت كلمة قالها داعية دمشقي شهير وانتشرت على اليوتيوب: «مزابل الشام خير من جنات أستراليا».. لكن قبل أنْ أقول أي شيء أكمل اليوناني السؤال: «... يقصد ما الذي تشتهر فيه سوريا غير مجازر نظام الأسد»؟

ضحكوا. لم أستطع الضحك. لم أحاول التظاهر بالضحك مجاملة. بقيت ساكتًا وأنا أحاول أنْ أستوعب إنَّ الأمر قد أصبح نكتة. تقليد مثل الثوم في المطبخ الروماني واعتزاز اليونانيين بتاريخهم. لم أجد في نفسي أي شيء عليهم. لم يقصدوا غير ما هو معروف عن سوريا اليوم.

وجدت نفسي أقول: انتحر ابن خالتي في برلين قبل شهرين تقريبًا، بسبب أنَّه لم يَعُد يحتمل تلك المجازر. عم الصمت لثوانٍ، ثُم أبدى الجميع أسفهم وعزاءهم، عاتبني المصري لأني لم أخبره، وكان واضحًا أنَّ الجميع قد صُدموا لأني لم أتحدث عن الأمر من قبل. قالت الرومانية إنَّها لاحظت تغيري، ثُم قالت: «ولكني توقعت أنَّك في حالة حب».

تبادلوا ابتسامات مرتبكة. أنا لم أبتسم. لا أعرف إنْ كنت قد تغيرت فعلًا، ولا أعرف إنْ كان هذا التغير سلبيًّا أم إيجابيًّا ولا أعرف إنْ كنت قادرًا على الحب أصلًا أم لا. توادعنا، واتفقنا كالعادة على التواصل ونحن نعرف جميعًا أنَّ ذلك غالبًا لن يحدث.

عدتُ إلى البيت مُنهكًا وتصورت أني سأنام فورًا. بقيت أتقلب ونظرة «أزرا» مُسلطة عليَّ تمنعني من النوم. نمت بتقطع ثُم استيقظت فجأة قبل الفجر وقد فهمت. فهمت كما لو أني قد رأيتُ شيئًا في نومي. هذه النظرة في عيني «أزرا»، كانت نفسها في عيني أنس وهو يتدلى من السقف. نظرة أنَّهم أفلتوا من العقاب. نظرة أنَّه لم يَعُد يحتمل ذلك.

-١٤-

انتقلت إلى برلين بعد يومين. اخترت منطقة «كرويتزبيرغ» لكي أسكن فيها لأنَّها تقع في المنتصف بين المشفى، وبين نويكولن حيث تسكن نور. ربع ساعة إلى المشفى بالباص. ومثلها تقريبًا أو أقل إلى حيث تسكن نور.

أخبرت نور بانتقالي وانشغالي في الأمر فسألتني بشكل طبيعي: «هل تحتاج إلى مساعدة»؟ كاد قلبي أنْ يقف من شدة الفرحة. قلت: «أكيد، يا ريت، بتشرفي». ردت فورًا لتصحيح الأمر: «يمكن أنْ أرسل إليك عاملة تساعدك. تركية. أمينة ونظيفة». يا لخيبة أملي. كاد قلبي أنْ يقف من فرحته بسوء فهم. تظاهرت بفرحي بوجود هذه العاملة «الأمينة» وطلبت رقمها وأنا ألعن هذه المشاعر أيًّا كانت. انجذاب أو مشاعر عدم أمان أو حب أو سيالات عصبية. أي شيء.

إيهاب ساعدني في كل شيء تقريبًا، وجد شقة بسعر مناسب، وقام بتصديق عقد الإيجار. كذلك ساعدني في نقل أغراضي من دريسدن وفي ترتيب أموري في الشقة، كما لو أنَّه قد حدس أنَّ الأطباء عمومًا لا يحسنون أمور تأسيسات البيت، فتبرع بمساعدتي دون أنْ يحرجني بطلب ذلك منه. كان إيهاب «حربوء»[1] شهمًا، ميدانيًّا[2] بحق، وتأسفت لأنَّ عَلاقتي لم تتوطد به قبل ذلك بمدة طويلة. يحتاج شخص مثلي -لا يتقن غير الدراسة والطب- إلى صديق مثله دائمًا.

---

(١) حربوء: نشيط، شاطر.

(٢) الميدان: حي من أحياء الشام القديمة، ويعرف أهلها بالفتوة والنخوة.

طلبت من نور أنْ نلتقي بعد انتقالي لبرلين. لم تبدُ متحمسة وقالت إنَّها منشغلة جدًّا بالدراسة وأجلت الأمر قرابة أسبوع. ماذا كنت أتوقع إذن؟ أنْ تهب للقائي فورًا. ماذا سيكون رد فعلي وقتها أصلاً؟ تأجيلها أمر طبيعي ولا يعني أنَّها لا ترغب بلقائي بالضرورة. هكذا قُلت لنفسي وأنا أواسيها. ضحكت مني نفسي وقالت: يجوز الوجهان؛ الدلال واللامبالاة.

التقيت بها بعد أسبوع في حديقة «تريبتاوربارك» العامة، ضحيت بموعد تقني الإنترنت الموعود بسبب هذا اللقاء. لكنها صدمتني بأنَّها جلبت صديقتين دمشقيتين معها. «فرح» و«رنيم». عرفتهما إليَّ مع نبذة توضيحية عن كل منهما تؤكد الانتماء الطبقي والاجتماعي لهما. كنت أفهم تمامًا ما تفعله نور. كانت «تزبطني» مع أي واحدة منهما. ذلك واضح جدًّا ومُهِين جدًّا، وبان عليَّ الانزعاج على ما أعتقد. كانت نور تقول لي عبر فعلها هذا: «هؤلاء فتيات دمشقيات ومناسبات لك وللست الوالدة، ماذا تريد.أكثر من ذلك»؟

قفلت على نفسي في كل الجلسة. تجاهلت الفتاتين تمامًا وبدوت جافًا غليظًا على نحو سيجعلهما غير راغبتين أصلًا بالتفكير فيَّ. وأعتقد أنَّهما فَهِمَتا الأمر تمامًا. كنت في حيرة من كل الأمر. يمكن لي أنْ ألعب بالنار وأتظاهر باهتمامي بواحدة منهما كي أرى إنْ كان ذلك يثير نور. قد يحدث، لكن لا. لن أفعل ذلك. فضلت الاستمرار في التجاهل والانزعاج.

مساءً قررت أنْ أتحدث عن الأمر. ربما هذه فرصة كي أكسر الحاجز وأتحدث عن الأمر. فليحدث ما يحدث. تنهي الأمر؟ بلوك؟ فليحدث. ربما أفضل. أرسلت إليها:

- رجاءً نور لا تكرري ما فعلته اليوم.

- ماذا تقصد؟ ماذا فعلت اليوم؟

- جلبتِ معكِ صديقتين.

أرسلت إليَّ وجهًا مستغربًا.

- هل أنت جاد؟ لماذا تعتقد أنَّ عليَّ أنْ أقابلك وحدي دومًا؟ «فرح» و«رنيم» كانتا معي وقُلت لهما تعالا. هذا كل ما في الأمر.

- لا. ليس هذا كل ما في الأمر.

- ماذا إذن؟

- شممت رائحة أم زكي[1].

- رائحة أم زكي؟ مَن هي أم زكي؟

- أقصد أني شممت رائحة إعداد لخطبة.

- أم زكي الخطابة؟! أم زكي باب الحارة! تتحدث معي أنا هكذا؟

- أعتذر، كنت أمزح، ولم أقصد أي إساءة.

سكتت. خيِّل لي أنَّها ربما حظرتني. لن تستلم أي رسالة مني، ولن أراها بعد اليوم. لكنها أرسلت:

- وتعتقد أني جئت «بفرح» و«رنيم» كي تتعرف إلى واحدة منهما؟

- لا شيء معيب في هذا، هذه وسيلة محترمة للتعارف بغرض الزواج.

- وهل طلبت مني أنْ أبحث لك عن عروسة؟ هل ذكرت الموضوع أصلًا؟

- لا أبدًا. لكن هكذا بدا لي الأمر.

---

(١) أم زكي: شخصية القابلة/ الخاطبة في مسلسل باب الحارة، قامت بالدور هدى شعراوي، وتحول الدور إلى رمز للخاطبة والداية.

- أنت مخطئ، وأسلوبك لم يكُن لائقًا، لا مع «فرح» و«رنيم»، ولا الآن... أم زكي!

«أنا أعتذر، لكن هل فهمتِ لماذا طلبت منك أنْ لا تكرري الأمر»؟ لم ترد لثوانٍ. ثُم أرسلت:

- لا. لم أفهم.

ولكنها لم تسأل لماذا. لقد فهمت بالتأكيد.

- ١٥ -

بعد مباشرتي للعمل في مشفى «سانت هيدفيغ» في برلين اكتشفت أنَّ رئيس القسم الذي قابلني يوم قدمت للعمل شخصية علمية معروفة عالميًّا، لم يخطر ببالي ذلك لأنَّه بدا صغير السن ومتواضعًا، لا أزال أحمل أفكارًا مُسبقة عن الشخصيات ذات المكانة العلمية العالية، ولم يكُن «أندرياس هاينز» يحقق أيًّا منها، بل أنَّ ترحيبه وابتسامته العريضة شككتني في أنَّه ألماني الأصل أساسًا، لكن اللقب كان كافيًا لتأكيد ذلك. لاحقًا عرفت الكثير عنه، جَدَّهُ كان معارضًا للنازية أيام هتلر، أي أنَّه ألماني بمواصفات «جوات السور». أهم ما يميز سيرته العلمية ليس عدد الكتب «المنهجية» التي شارك في إعدادها أو أبحاثه العلمية فقط، بل أيضًا أنَّه لم يكتفِ بالطب النفسي، بل درس علم النفس والفلسفة أيضًا، وهذا جعل لأبحاثه شمولية قد لا تتوفر في الأبحاث الطبية القادمة من منظور طبي حصرًا.

طلبت مقابلة الدكتور «هاينز»، ووصلني إيميل من سكرتيرته يحدد موعدًا لي في اليوم التالي. تعلمت أنَّ الوصول على الوقت المحدد حسب المواصفات الألمانية يعني أنَّك متأخر، لكي تصل على الوقت المحدد عليك أنْ تصل مُبكرًا ببضع دقائق على الأقل. الشيء ذاته مع مواعيد العمل. خمس إلى عشر دقائق قبل بدء العمل. أيُّ تأخُّر ستجد نفسك مُحاصرًا بنظرات تشبه نظرة «مانك شامي» التي عشت في الخوف منها طيلة عمري. لكنها مقصودة مائة بالمائة هنا. «مانك ألماني». مانك متشرب بثقافة العمل الألمانية. في الشام ربما كانت مجرد أوهام ومخاوف لا أساس لها من الصحة. هنا لا. النظرات صريحة وواضحة جدًّا.

قابلت الدكتور «هاينز» الذي رحب بي وسألني عن أيامي الأولى في العمل وكيف هي. غالبًا الألماني الذي يسأل «كيف الحال» يتوقع جوابًا حقيقيًّا لا جواب مُجاملات لأنَّ مفهوم «المُجاملات» لا وجود له في العقل الألماني. خاصة في جيل الدكتور «هاينز». لكني فضلت أنْ أتعامل مع السؤال بأنَّه مُجاملة لكيلا أدخل في موضوع جانبي غير سبب مقابلتي للدكتور «هاينز».

قلت للدكتور «هاينز» إني أرغب في البحث عن «الانتحار نتيجة التعرض غير المباشر لتجارب مؤلمة عبر سماع شهادات عنها» وأرغب أنْ يشرف على بحثي هذا. بحث كهذا ليس من متطلبات التخصص حسب معايير الماكينة الألمانية، لكن من الممكن أنْ يحدث بالاتفاق بين الطالب والمشرف.

سألني عن سبب اهتمامي بهذا الموضوع تحديدًا، فأخبرته عن «أنس» وانتحاره وعَلاقة الأمر حسب تصوري بما جمعته من معلومات مفصلة عن التعذيب في السجون والمُعتقلات السورية من الضحايا مباشرة.

قال لي الدكتور «هاينز»: إنَّ الأمر غالبًا له عَلاقة بما يُعرَف بالنوع الثانوي من «اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD)[1]»، والذي قد يعاني منه أشخاص قريبون من أشخاص تعرضوا لصدمة، ربما أفراد عائلة أو أصدقاء مقربون، وقال أيضًا إنَّ هذا النوع يمكن أنْ يُصاب به العاملون في المجال الطبي في رعاية ضحايا الصدمات، وإنَّ هناك دراسات كثيرة عن هذا، لكنه ليس متأكدًا من وجود دراسات عن حالات الانتحار تحديدًا.

---

(١) Post traumatic stress disorder PTSD اضطراب ما بعد الصدمة: هو نوع من أنواع الاضطرابات النفسية حسب النظام العالمي للتصنيف الطبي للأمراض النفسية والمشاكل المتعلقة بها. يسبق اضطراب ما بعد الصدمة حادث واحد أو عدة حوادث كارثية أو تهديدات استثنائية. ليس من الضروري أن يكون التهديد هذا موجهًا إلى الشخص ذاته، بل يمكن أن يكون موجهًا إلى أشخاص آخرين (مثلًا إذا كان الشخص شاهدًا لحادث خطير أو عمل من أعمال العنف). تظهر الأعراض النفسية والجسدية لاضطراب ما بعد الصدمة عادة في غضون نصف عام بعد الحادث الصادم. يؤدي الحادث الصادم إلى اهتزاز فهم الشخص لذاته والعالم من حوله وإلى تشكل أحاسيس العجز لديه.

شعرت بالخجل لأني لم أنتبه لهذا التشخيص.. أقصد النوع الثانوي منه. إذ إنَّ الأول يُعتبَر من «المعروف بالضرورة». أردت أنْ أُذكِّر الدكتور «هاينز» إني في سنتي الثانية فقط ولم أطَّلِع بما فيه الكفاية عن هذا الاضطراب. لكني لم أشعر أنَّه قد استنكر جهلي بهذا الاضطراب، بل تعامل مع الأمر باهتمام مهني فحسب.

- المثير في الاهتمام هنا هو أنَّ المنتحر ليس ضمن الكادر الطبي، بل ضمن الإعلام الذي يتعامل مع هذه القضايا، من المؤكد أنَّ هناك أوراقًا بحثية عن هذا الأمر، لكنها قد تكون الأولى فيما يخص القضية السورية، يمكنك أنْ توسع البحث لتشمل الإعلاميين الذين تعاملوا مع قضايا التعذيب في السجون السورية.

لم أتوقع أنْ نصل إلى هنا. جئت لأكتب عن حالة مُحددة. تقرير عن حالة. لكن «قضايا التعذيب في السجون السورية»! أنا أكتب عن هذا؟ أنا «رمادي». محايد. يا دكتور «هاينز». جَدُّك كان معارضًا لهتلر؟ وبقيَ حيًّا؟ لا يحدث هذا عندنا. أفضل أنْ أشيح بوجهي إلى الجهة الأخرى مهما رأيت. أسير جنب الحائط. أنادي كل مَن يتزوج أمي يا عمي. بالتأكيد أناديه عمي. ماذا أناديه إذن؟

لم أقُل شيئًا لدكتور «هاينز»، لكني تخيَّلت موظف الجوازات في مطار دمشق ينظر في جواز سفري ثُم يرفع عينيه إليَّ، ويذهب ليتحدث مع أحدهم، ثُم يأتي الضابط معه ليقول لي: تفضل معنا.

شكرت الدكتور «هاينز» وأخبرته إني سأعمل على جمع المعلومات المتوفرة عن هذا الأمر، ثُم قُلت عفويًّا «إنْ شاء الله». لا بأس. الكلمة أضيفت مؤخرًا إلى قاموس (دودن)، القاموس الأهم في الألمانية. عليك

أنْ تعرف الألمانية يا دكتور. وعليك أنْ تفهم ضمنًا أنَّ مقصدي من الكلمة قد يكون أي شيء باستثناء فعل ما قُلت إني سأفعله. أنا محرج فقط من إخبارك بذلك. نقول هذه الكلمة أحيانًا لكيلا نقول: انس الأمر. لو شاهدت نظرة موظف المطار يا دكتور «هاينز» لفهمت. لكن لا سبيل لشرح ذلك. أصلًا الحيطان لها آذان، كيف نسيت ذلك. خرجت من مكتبه وأنا أتمنى أنْ تكون الماكينة الألمانية بشرية في بعض جوانبها، وتنسى هذا الأمر تحديدًا.

* * * *

النوع الثانوي من اضطراب ما بعد الصدمة إذن. كيف لم يخطر ذلك في ذهني؟ التجارب من هذا النوع قد تكون مُعدية، أكثر مما نتخيَّل أو نعتقد. لكن العدوى هنا لا تنتقل عبر جراثيم أو ڤيروسات، بل عبر التأثر بما ينقله الضحايا مما تعرضوا له، في أثناء حديث هؤلاء عن التجربة، دماغ السامع يتخيَّل ما يحدث، يُنشئ صورًا ذهنية لِما لم يره بل سمعه فقط، تتحسس بعض المناطق في الدماغ، ويكون الأثر عليها مُقاربًا لِما سيحدث لو أنَّ التجربة مر بها السامع شخصيًّا. مُقاربًا للنوعية وليس للكمية. ويزيد هذا كلما كانت التجربة شديدة وناقلها ينقلها بتفاصيلها. الدراسات تقول إنَّ الاضطراب الثانوي يمر بالمراحل نفسها التي يمر بها «النوع الأول»، الذي مر بالتجربة شخصيًّا. المراحل هي: التكرار، والتجنب، والتحسس.

التكرار يكون عندما تدخل ذاكرة التجربة في كل شيء، تستمر دون استحضار مقصود، تُعاد وتُعاد في متاهة من التكرار. تذكرت أغنية الدمشقي التي تركها أنس على الإعادة قبل أنْ يعلق نفسه في الحبل. هذه هي حالة التكرار التي يمر بها مَن يعانون اضطراب ما بعد الصدمة. التجربة على الإعادة. ثُم تسحبهم حالة التكرار هذه من مجتمعهم

ومحيطهم، ينعزلون بالتدريج عن حياتهم اليومية العادية، عوائلهم، أصدقائهم، أحيانًا حتى عملهم.

ثُم بعدها يدخلون مرحلة التحسس، أي شيء يذكرهم بالتجربة، أي شيء حتى لو كان لا عَلاقة له بالتجربة. شخص طويل قد يذكرهم بشخص طويل أيضًا كان في التجربة. لون معين قد يذكرهم بقميص شخص كان في التجربة. مقبض الباب. المفتاح. النافذة. صوت المذياع. أي تفصيل صغير ومُعتاد يفقد اعتياده ويصبح مُحفزًا للذكرى المؤلمة. تحاصرهم التجربة وذكرياتها من كل الجهات. تضيق عليهم أكثر فأكثر بالتدريج. ثُم تطبق عليهم، وتخنقهم.

تخيَّلت أنس وهو يسقط في فخ ذكريات استعارها من أشخاص آخرين. تجارب لم يعشها مباشرة لكنها رغم ذلك تحاصره وتطبق عليه. تخيَّلته يعاني وحيدًا من كل ذلك، ربما لم يكُن واعيًا تمامًا بما يحدث له، لكنه كان يعانيه. يجتر آلام سواه ويحملها على ظهره إلى أنْ وصل إلى الحبل المعلق في السقف.

كما لو أنَّه مات من جديد، وجدت دموعي تنهمر على أنس. بكيته أكثر مما فعلت يوم وجدته في شقته. البكاء الأول كان بكاءً مصدومًا بالمشهد. الآن، أتخيَّله يعود إلى شقته وحيدًا كل ليلة وهو يحمل كل تلك التفاصيل المروعة. يغلق الباب عليه لتحاصره أكثر وأكثر. بكائي الآن لأني رأيت ما يحدث في داخله.

لا أملك إلا أنْ أبكيه. أبكيه وأسأل مع نفسي.. لماذا لم تتحدث يا أنس؟ تذكرت ما تناقلته وسائل الإعلام قبل سنواتٍ عن شاحنة كانت تُهرِّب لاجئين سوريين إلى النمسا. أظن كانت شاحنة نقل لحوم. عُثِرَ على

اللاجئين وقد ماتوا اختناقًا داخل الشاحنة التي تُرِكَت مركونة على جانب الطريق. قرابة خمسين شخصًا ماتوا اختناقًا في الشاحنة. يومها تناقلنا جميعًا السؤال القديم: لماذا لم يدقوا على الجُدران؟

اليوم أرى أنس كما لو كان واحدًا من هؤلاء. اختنق وحيدًا ولم يدق الجُدران. على الأقل لم يدق على الجِدار بيني وبينه. أحاول أنْ أفهم لماذا لم يحاول أكثر، لماذا لم يبذل جهدًا أكبر لكي يخرج من متاهته. لكي أساعده على ذلك. عزة نفسه؟ يريد المحافظة على صورته كشخص قوي؟ موقفي من الثورة؟ يخاف من أنْ أقول له ما يقال في هذه الحالة من أمثالي؟ أخبرناكم. النظام مجرم ويفعلها وأكثر. مهما كان. أنا ابن خالته. كان يجب أنْ يدق الجِدار عليَّ. ثُم تذكرت؛ التجنب. هذا من أعراض ما كان يعانيه. لم يكُن يستطيع أنْ يدق الجِدار.

لم أراهق فيما يفترض أنَّه كان فترة مراهقتي. أو على الأقل ما كان يفعله المراهقون يومها من أساليب لمطاردة الفتيات أو تطبيقهن. لم أمشِ خلف فتاة من مدرستها إلى البيت، ولم ألطش أي فتاة أو أرمي لها رقم هاتفي في السرفيس. أو عبر البلوتوث كما انتشر وقت مراهقتي.

لم أفعل ذلك وقتها. للأسف يبدو أني أمُرّ بأعراض مراهقة متأخرة. لا يمكن أنْ تكون هذه ما يسمونها بالمراهقة الثانية. هل يمكن أنْ تكون هناك مراهقة ثانية إذا لم تكُن هناك مراهقة أولى؟ هذا أولاً. وثانيًا، يفترض أنَّها تحدث بعد الأربعين، هذه المراهقة الثانية -أو أزمة منتصف العمر- لا يزال بيني وبينها أكثر من عشر سنواتٍ.

لا أفعل أيًّا من هذه التصرفات الآن، لكني أتعمد أنْ أكون في مترو تكون نور قد ركبت فيه قبلي في طريقها إلى الجامعة أو إلى مركز رعاية اللاجئين القريب من بيتها. هذا التعمد يجعلني أركب في عكس اتجاه طريقي إلى العمل، أركب من بيتي إلى هيرمان بلاتس -لمدة ٢٥ دقيقة- وانتظر المترو رقم ٧ القادم من نويكولن؛ حيث تكون نور غالبًا فيه في طريقها إلى الجامعة. ثُم ننزل معًا في محطة فيربللينر بلاتس لنركب المترو رقم ٣ ولكن هذه المرة باتجاهين متعاكسين لنفترق بعدها كلٌ إلى غايته، أغير المترو مرتين، لكي أصل إلى المشفى. كنت أكسب احتمالية مشاهدة نور والجلوس بقربها لمدة ربع ساعة تقريبًا، مقابل قرابة ساعة ونصف في رحلة الطريق المعاكس والرجوع منه. مَن يفعل ذلك غير المراهقين؟ أو

العشاق؟ أم أنَّ حتى العشاق في مثل سني لا يفعلون هذا؟ عمومًا لست متأكدًا من حكاية العشق هذه. أنا فقط أريد أنْ أتعرف إليها أكثر. لا أكثر ولا أقل. كنت أكرر ذلك مع نفسي كي أقتنع.

نور من ناحيتها، كانت تسألني عما أفعله في هيرمان بلاتس ولماذا أتجه إلى محطة فيربللينر بلاتس في هذه الساعة بعيدًا عن المشفى. كنت أرد عليها بأني أزور صديقًا لي يسكن هناك. لكن كان أمري واضحًا. كنت أحاول أنْ أتخيَّل وجود شبح ابتسامة عندما تراني، لكن لا. لا شيء. ربما كانت من الأشخاص الذين لا يبتسمون في الصباح، تأخذ وقتًا لكي تتمكن من فعل الابتسام. هكذا كنت أواسي نفسي، لكن المواساة الحقيقية أنَّها لم تكُن تظهر الانزعاج أيضًا. على الأقل ليست منزعجة من وجودي.

أخبرت نور عن النوع الثانوي من اضطراب ما بعد الصدمة الذي يحتمل أنْ يكون السبب في تدهور وضع أنس النفسي وصولًا إلى ما حدث. بالتدريج لم أعُد أشير إلى انتحار أنس باعتباره انتحارًا، بل صرت أستخدم عبارات فيها مواربة. ما حدث لأنس. موت أنس. مقتل أنس. لا أعرف لماذا تحديدًا. لكن هذا أصبح يجري على لساني على نحو تلقائي.

- أعتقد أنَّ هذا الاضطراب يتأثر بعدد الحالات التي يتعامل معها الشخص، كم مشاهدة سجلها ووثقها أنس في إعداده للأمر؟

«كثيرة جدًّا». قالت نور.

اللدغة كانت واضحة جدًّا كما لو أنَّها أفلتت من السيطرة.

- كم يعني؟

- كم تتوقع؟

- بين العشرين والثلاثين؟

- أكثر بكثير، أكثر من ٢٠٠، ٢١٢ تحديدًا.

- يا مُحمَّد!

أفلتت مني الكلمة بصوت مرتفع.

- أكثر من ٢٠٠؟! أنس قابَل وصوَّر أكثر من ٢٠٠ حالة تعذيب؟

- نعم. ٢١٢.

- كلهم هنا في ألمانيا؟

- ذهب إلى تركيا، وإلى أغلب دول اللجوء الأوروبية.

- هل كان معه فريق عمل؟

- لا. كان هو الفريق كله. المخرج والمُعد والمُذيع والكاميرا مان ومسؤول الإضاءة والأوفس بوي أيضًا، وأحيانًا المونتير. أنس يستطيع أنْ يتقن أي شيء يريده.

ثُم أكملت:

- قصدت أنَّه كان يستطيع أنْ يتقن أي شيء يريده.

يستطيع أنْ يتقن أي شيء يريده. هذه حقيقة تصارعت معها طيلة طفولتي ومراهقتي.

- وأنتِ؟

- كان عليَّ المونتاج والميكساج.

- ميكساج؟

- الصوتيات.. تنقيتها... دمجها مع المشاهد، إضافة الموسيقى.. هذه الأشياء.

بقيت ساهمًا. ٢١٢ شخصًا تحدثوا لأنس عما حدث لهم من تعذيب؟ هذا كثير جدًّا.

- هل يضم الفيلم كل هؤلاء؟

- لا طبعًا، يضم مقتطفات من ٢٠ شهادة تقريبًا، هناك الكثير من الشهادات المتشابهة. طرق التعذيب نفسها والمعاناة نفسها. اختار أنس ما يجعل المُتلقِّي يشعر أنَّه يعرف هذه الشخصيات، أنَّها تشبهه، كان يقول إنَّ هذا يكسب التعاطف أكثر.

- لا أستطيع استيعاب ما تعرض له أنس من هذه الشهادات. ٢٠٠ شخصٍ رووا له فظائع ما مروا به. يا قلبك يا أنس.

- ٢١٢.

صلّحت لي نور ببرود مستفز.

- هل عانيتِ أنتِ أيضًا من هذا النوع من الاضطراب؟ النوع الثانوي، بما أنَّكِ اطَّلعتِ على هذه الشهادات؟

- أنا؟ لا... لم أُعانِ من هذا.

قالت بطريقة غريبة. كما لو أنَّها استنكرت السؤال.

فكرت مع نفسي: لو أنَّ أمي سمعت هذا لقالت «بنت هدباء» هذه بلا قلب. ربما هي على صواب. قوة نور غير منطقية. قلبها ميت. هل هذه قوة أم جمود أم فقدان للمشاعر؟ لا أعرف.

- هناك شاب من الشباب الذين أدلوا بشهادتهم، أثَّر وضعه كثيرًا بأنس.. وربما ساهم في تدهور حالة أنس.

قالتها بعد صمت، كما لو أنَّها كانت مترددة في أنْ تخبرني هذا الشيء.

أثارت نور انتباهي هنا. هذه أول مرة تتبرع لي بمعلومة لم أسألها عنها تحديدًا.

- مَن هذا الشاب؟

- اسمه عمار الجود. من جرمانا[1]. ربما سمعت بقصته لأنَّها انتشرت كثيرًا. كان من الشباب النادرين الذين اعترفوا بحدوث اعتداء جنسي عليهم. تم تعذيبه بوحشية، وآثار التعذيب تسببت له بتشوهات دائمة في مناطق مختلفة من جسمه. كل كلامه كان مدعومًا بتقارير طبية متناسقة تمامًا مع ما كان يقوله من تفاصيل التعذيب. إضافة إلى أنَّه ذكر اسم مسؤول (مُهم جدًّا) في شهادته، قال إنَّه كان موجودًا في أثناء إعدام مجموعة كبيرة من السجناء... وذكر تفاصيل كثيرة عن وسائل التعذيب المستخدمة في مكان اعتقاله.

- حسنًا، كيف أثَّر هذا على أنس؟

- عمار عاد إلى سوريا!

- ماذا تقصدين؟ سلّم نفسه إلى النظام؟

- لا نعرف تفاصيل ما حدث. قيل إنَّ أعوان النظام أقنعوه أنَّ ثمَّة تسوية ممكن أنْ تؤمِّن له مستقبله في سوريا أو لبنان. وقيل إنَّهم اعتقلوا والدته وطلبوا منه تسليم نفسه مقابل الإفراج عنها، وقيل إنَّهم

---

(١) جرمانا: ضاحية في جنوب شرقي دمشق.

سيطروا عليه بالمخدرات. لا أحد يعرف ما الذي حدث فعلًا. فجأة ظهر على التلفزيون الحكومي وقال إنَّ جهات معينة عرضت عليه مبالغ مادية مقابل أنْ يتهم الأجهزة الأمنية بارتكاب أعمال تعذيب.

- ... وهذا أضر بمصداقية عملكم كله؟

- ليست هذه هي المشكلة بالنسبة لنا، لأنَّ الفيلم لم يُعرَض بعد.. المشكلة هي أنَّه في اليوم التالي تمامًا لبث اللقاء على التلفزيون

الحكومي، اعتُقِل عمار من بيتهم في جرمانا، ثُم عُثِر عليه مقطوعًا إلى قسمين من وسطه، وطبعًا (العصابات المسلحة[1]) هي التي فعلت ذلك به انتقامًا للقائه على التلفزيون... حسب النظام.

- يا ربي رحمتك! لكن ماذا كان يتوقع عندما عاد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

- الأسوأ من كل هذا ما انتشر من أخبار إنَّ (الاسم المُهم) الذي ذكره عمار هو الذي قطعه بالمنشار الكهربائي بيده.

- رباه.. مَن هو هذا الاسم المُهم؟ هل هو من الأسرة؟

- ليس مُهمًّا مَن هو الآن. بالنسبة إلى أنس كان هناك شيء آخر مُهمًّا جدًّا.

- ... وهو؟

- عمار لم يقُل اسم هذا الشخص المُهم في أي مكان. لم يقُله إلا أمام كاميرا أنس. لم يسبق له أنْ قال أو أشار له في أي من اللقاءات التي كان قد أجراها سابقًا.

(١) العصابات المسلحة: إعلام النظام كان يتهم الثوار بأي عمل عنف ويسميهم بهذه التسمية.

- كيف هذا؟ هل أنتِ واثقة من هذا؟ لعله لم يقُل علنًا في المقابلات، لكنه قال لأشخاص أوصلوا الأمر إلى النظام.

- فكرنا بذلك طبعًا، لكن عندما بدأت الجهة الداعمة للفيلم تغير موقفها بالتدريج، تذكر أنس أنَّ هذا المقطع بالذات كان مما اطَّلع عليه أحد موظفي هذه المؤسسة... وهذا الموظف تحديدًا كان له دور أكبر عندما تغيرت سياسة المؤسسة كليًّا.

- هل هذه هي المشكلة التي حدثت مع الجهة المُنتجِة؟ لم تخبريني ما الذي حدث.. قُلتِ قصة طويلة فقط.

- نعم، المؤسسة كانت تمول من دولة غيرت موقفها.. وأصبحت تمول من دولة (أصبحت) أقرب لحلفاء للنظام خلال فترة إنتاج الفيلم، لم ننتبه في البداية.. لكنهم بالتدريج بدؤوا يتدخلون في المحتوى.. طلبوا حذف بعض المقاطع من الفيلم، مقاطع مُهمة وحساسة، وكذلك طلبوا إضافة أشياء أخرى قد تجعل صورة النظام أفضل بداعي الموضوعية.. وبالطبع رفض أنس ذلك، وبدأت أخبار تصلنا عن تغير توجه المؤسسة.. ثُم حدث ما حدث لعمار الجود وربط أنس النقاط.

- وهكذا اعتبر أنس أنَّ اللقاء الذي سجله مع عمار والمعلومة التي ذكرها عن «المسؤول المُهم» هو السبب في استدراجه إلى سوريا للتنصل أولًا عن أي اعتراف سابق يمكن أنْ يُبَث لاحقًا، ومن ثَمَّ قتله؟

- هذا ما حدث بالفعل... للأسف، من الصعب جدًّا على أنس أنْ يفهم الأمر على نحو مختلف لأنَّ هذا هو الذي حدث.

قالت دون أنْ تتغير نبرة صوتها أو ملامح وجهها.

- ... والمؤسسة؟ ماذا كان موقف أنس منهم؟

- وصلت محطتي. نكمل عندما تأتي غدًا لتزور صديقك في (فيربللينر بلاتس) مرة أخرى.

خيَّل لي أني شاهدت شبه ابتسامة على وجهها عندما قصفتني بهذه الجملة. الله أكبر! لست متأكدًا. لكن خيَّل لي، شبه ابتسامة. كذلك (فيربللينر بلاتس) كانت حافلة باللدغات.

-١٧-

أضافت لي قصة عمار الجود نقطة ضوء أخرى على ما حدث لأنس. نقطة ضوء على العتمة التي حاصرت أنس بالتدريج. بحثت عن عمار الجود على الإنترنت. هناك حديث عن تعرضه للتعذيب ووصف لِما حدث له في المُعتقل ولكن لا يوجد ذكر لإشارته لاسم مُهم في شهاداته، ولا حتى بعد مقتله في سوريا. هناك أخبار فقط عن إشراف مسؤول أمني مُهم على تصفيته بعد عودته إلى سوريا. مسؤول أمني مُهم ومن الصف الأول والذي إذا ذكر اسمه الناس يهمسون به حتى لو كانوا في غرف نومهم.

إذن كان استنتاج أنس ونور صحيحًا على الأكثر، أو لعله كان استنتاجًا منطقيًّا. وجدت أيضًا اسمه ضمن قائمة لشهود محتملين مستعدين للشهادة ضد النظام، لكن القائمة كانت عامة جدًّا ولم يحدد فيها أي اسم في النظام، كانت القائمة غالبًا مُكوَّنة من مجموعة تواقيع عبر الإنترنت، وليست مُوثقة من جهة دولية.

تخيَّلت ما حدث مع أنس، ولا بد أنْ يكون قد حدث بالتدريج، ما دامت المعلومات قد وصلت أنس تباعًا. هناك أولًا، صدمة عودته لسوريا، والحديث على التلفزيون الرسمي من أنَّ كل شيء قاله سابقًا كان كذبًا مدفوع الثمن. لا أشك أنَّ هذا صدم أنس. لا يمكن أنْ يكون قد أخذ كلام عمار على التلفزيون الرسمي على محمل الجد. هذا كلام قد يمر على سواه، على البعيدين عن سوريا وغير السوريين، لكن السوريين عمومًا، حتى المؤيدين للنظام، يعرفون ما يحدث في المُعتقلات. المؤيدون ينكرون

علنًا، لكن الكثيرين منهم يقولون في السر إنه يفعل ما يجب بهؤلاء الخونة، الذين «يستحقون المزيد هم وعوائلهم».. بكل الأحوال لا توجد جهة أو مؤسسة غبية أو مبذرة بما فيه الكفاية لتدفع من أجل ما يمكن أنْ يقال بالمجان. وأنس، مثل كل العاملين في هذا الشأن، يعرفون أنَّه لم يكُن هناك دفع نقود من أجل هذه اللقاءات. بالتأكيد ظهور عمار على القناة الرسمية للنظام أمر محرج لأنس، لكنه محرج أكثر لمن سجلوا معه وبثوا اعترافاته، أما أنس فيمكنه أنْ يحذف مقطع عمار من الفيلم كما لو أنَّه لم يحدث.

صدمة أنس الثانية، ربما كانت من فكرة العودة نفسها. لماذا يعود أي شخص إلى الجحيم بقدميه؟ اعتقلوا أمه؟ لماذا تحدث أصلًا إنْ كان لديه ما يخاف عليه في سوريا؟ قرأت التعليقات على الخبر في وسائل التواصل، أغلبها شتائم واتهامات، وبعضها تحدث عن «متلازمة استوكهولم»، أي التعلق المرضي الذي يحدث لبعض الضحايا بجلاديهم. لكن لا. ما فعله عمار كان بعيدًا تمامًا عن المتلازمة، أعراض المتلازمة لا تظهر فجأة بعد مرور سنوات، بل تظهر خاصة في لحظات انفصال الضحية عن الجلاد عبر خروجها أو تحريرها، وقد تظهر عواطف الحزن عند الاقتصاص منه، لكن بالتأكيد ما حدث لعمار كان أقرب إلى التهديد أو إعطاء الأمان بوعود كاذبة، تم استدراجه لكي يُقتَل.

صدمة أنس الثالثة، كان عندما وصل خبر مقتل عمار بهذه الطريقة الوحشية. شخص التقاه وعرفه ولو لفترة محدودة، ثُم عاد بنفسه إلى المكان الذي تلقى فيه أهوال التعذيب، ليُقتَل قَتْلَة بشعة.

الصدمة الرابعة، هي الأقسى على أنس بالتأكيد، تسرب خبر إنَّ هذا المسؤول المُهم هو الذي قطع عمار نصفين، أو على الأقل أشرف على ذلك،

ومِن ثَمَّ اكتشاف أنس لاحتمالية أنْ يكون الأمر قد حدث بسبب ما وثَّقه من اعترافات عمار. لقد تسبب بمقتله، هكذا رأى أنس ما حدث. الشعور بالذنب من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، هنا الشعور بالذنب كان مضاعفًا بالتأكيد، ثمَّة شيء قام به أنس بالفعل -دون قصد منه- قاد إلى أشياء حدثت لعمار، ومن ثَمَّ أدت إلى قتله.

تذكرت الشعور بالذنب الذي يصيب أحيانًا الناجين من الكوارث. يمر هؤلاء بصدمة بعد حدث عصيب أصاب مجموعة من الناس وقَتَل جزءًا منهم، تساورهم بعدها مشاعر بالذنب لأنَّهم نجوا، بينما لم ينجُ غيرهم. بحثت أكثر عن الأمر فوجدت أنَّ الكثير من الدراسات تعتبره عاملًا مُهمًّا جدًّا في مُسببات اضطراب ما بعد الصدمة. منطقي جدًّا. لا بد أنَّ أنس كان يحمل أيضًا شعور الذنب تجاه ما حدث لمعاذ أيضًا. لا يمكنه أنْ يهرب من هذا. معاذ مهما فعل كان صديق عمره.

دققت في تاريخ كل ما حدث لعمار الجود. منتصف سبتمبر إلى بداية أكتوبر. إذن لم يكُن هذا الحدث الأكثر قسوة على أنس. حسب كنان، كان هناك شيء ما في ديسمبر. شيء جعل أنس ينكسر وينعزل أكثر فأكثر. لكن من الواضح أنَّه حدثٌ آخر، غير حدث عمار.

غفوت وأنا أقرأ عن اضطراب ما بعد الصدمة، ثُم رأيت في المنام أنني في مدرستي الإعدادية، الثقفي، في الشام، الرواق الطويل المؤدي إلى صف السابع، أدخل الصف، وأجد أنس مُتدليًا من السقف. كل الطلبة يجلسون على مقاعدهم كما لو أنَّهم لا يرونه. نور ترتدي المانطو التقليدي وتكتب شيئًا على اللوحة. أصالة تغني أيضًا. لكن ليست أغنية الدمشقي. أنصت جيدًا. ميزت اللحن وقليلًا من الكلمات. ثُم استيقظت.

أبحث عن كلمات الأغنية مما تذكرته. عرفتها. كان يسمعها كثيرًا عندما كنت معه في برلين.

أسرار في قلبي لا تتكتم ... ولا تتحكي ... ولا يفهموها الناس

بس اللي لازم يتعرف ... كتر الألم بيموت الإحساس

مش كل ماضي بنعشقه ... في ماضي لازم يتنسي ويتداس

وكفاية إنه اتعاش في وقت منسبناش

-١٨-

في اليومين التاليين وجدت وقتًا أكثر للحديث مع نور وسألتها بإصرار عن المؤسسة الداعمة للفيلم وهل سيرى الفيلم النور أم أنَّه سيبقى حبيس الحاسوب.

قالت لي إنَّ الجهة الداعمة للفيلم ربطت أنس بعقد مشدد جدًّا من الناحية القانونية بحيث تمنع عرضه أو تسريبه أو تقديم أي جزء منه لأي مؤسسة أو قناة أخرى أو موقع على الإنترنت، وفرضت شروطًا جزائية مبالغ بها على أنس في حالة تسرب أي شيء من الفيلم.

«كم»؟ سألتها.

- مليون يورو، والقانون قد يعرضه للسجن لأنَّ الفيلم قانونًا ملك للمؤسسة، وقصص حقوق الملكية الفكرية هنا انتهاكاتها باهظة الثمن. هذه ليست أقراص أفلام مقرصنة تُباع تحت جسر الرئيس[1].

- ... لكن هو فيلم وثائقي تسجيلي، لماذا تضع هذه المؤسسة شروطًا كهذه؟ ألم يشُك أنس بالموضوع؟

- آنذاك، سألهم، فقالوا له إنَّهم يرتبون لكي يشارك الفيلم بمهرجانات مهمة، أذكر أنَّهم تحدثوا عن افتتاح مهرجان كان للأفلام الوثائقية وترشيحات الأوسكار، في هذا السياق بدا الأمر

---

(١) جسر الرئيس: هو جسر في قلب مدينة دمشق واسمه جسر الرئيس حافظ الأسد ويختصر بجسر الرئيس ويصل بين البرامكة وأبو رمانة، تحته توجد كراجات النقل العام وتكثر فيها البسطات التي تبيع الكتب المزورة وأقراص الأفلام.

منطقيًا، وأنس لا خبرة لديه في هذه القصص وكان يريد العمل على الفيلم بكل الوسائل.

- ماذا حدث بعدها؟

- نسخة أنس مما حدث تقول إنَّ الأمور تغيرت بعد أنْ تحولت الدولة الداعمة للمؤسسة في تحالفاتها بحيث أصبحت أقرب لحلفاء النظام.

- هل هناك نسخة أخرى؟

- نعم، نسختي أنا، لدي شك بأنَّ الأمر منذ البداية كان مخططًا له، ربما تركوا أنس يعمل على الفيلم وربطوه بهذا العقد لكي يحصلوا على المعلومات منه، كان على أنس أنْ يقدم تفاصيل أين حدث كل لقاء والفيلم الخام للمقابلة دون أي تقطيع لأغراض التوثيق في حالة شكك أي شخص بمصداقية المقابلات بزعمهم.. أي أنَّهم دفعوا لأنس لتمويل فيلمه، لكنهم عمليًا كانوا يحصلون على معلومات استخبارية.

- هل أخبرتِ أنس بنسختك هذه؟

سكتت، فهمت سؤالي كما هو بالفعل. هل زدت من معاناة أنس وشعوره بالذنب؟

- بالتدريج بدأت الطلبات الغريبة من المؤسسة. أرادت أنْ نقوم بتقديم لقاءات عن انتهاكات داعش أو فصائل أخرى.. كان رد أنس أنَّ ذلك يمكن أنْ يكون في فيلم آخر بموضوع مختلف، لكن موضوع الفيلم هنا هو انتهاكات النظام، داعش عصابة خارجة عن القانون، وكل فعلها يصب في ذلك، لكن النظام يفعل ما يفعل باعتبار أنَّه هو القانون... ثُم طلبوا حذف مقاطع مُهمة من مقابلتين، واحدة مع شخص اسمه «شاهر» وأخرى مع فتاة اسمها «جوري»، وأصرّ أنس على عدم حذف

شيء، لكنه كان لا يزال متمالكًا أعصابه حتى هذه اللحظة، ثُم جاء الطلب الأخير الغريب الذي فقد فيه أنس أعصابه..

- ماذا طلبوا؟

- طلبوا تقديم لقاء أو مقطع يشير إلى وجود أفرع أمنية تتعامل مع المعتقلين بشكل إنساني... لتوازن الصورة!

- أفرع أمنية تتعامل بشكل إنساني؟ معقول؟! هل هذه نكتة؟

- انفجر أنس هنا، وقال لهم إنَّه سيعرض الفيلم كما هو، سيبثّه على اليوتيوب وليكن ما يكون، ذكروه بالعقد والشرط الجزائي، قال لهم ببساطة إنَّه لا يملك حتى ألف يورو، فلن يحصلوا على شيء منه، ولا بأس بالسجن مهما طال مقابل أنْ يعرض الفيلم وينتشر، بل أنَّه قال لهم إنَّ الأمر سيكون محرجًا لهم لأنَّهم سيبدون كما لو كانوا جهة تحرص على عدم إيصال أصوات المعتقلين.. وقد لا يُسجن.

- هذا صحيح، ربما كان سيحدث هذا... لكن أنس لم يجرب هذه الاحتمالية.

بقيت ساكتًا قليلًا وأنا أفكر بالأمر. ثُم قلت: «its complicated».

قالت نور: نعم، للغاية.

ثُم سألتها: والآن ما مصير الفيلم؟

خيَّل لي أني رأيت ابتسامة على وجهها.

قالت: ماذا تقصد؟

- أقصد هل سيُعرض؟ هل سيرى النور؟

- العقد كان مع أنس.. وأنس تُوفيَ.. لن يستطيعوا مقاضاته على الفيلم.

- هل تقصدين أنَّك...؟

- أني ماذا؟

- أنَّك ستنشرين الفيلم؟

- أي فيلم؟

- نور، أسألك جادًا، هل ستقومين ببث الفيلم؟

- لا أعرف عم تتحدث.

قالت مع ابتسامة واضحة. ابتسامة لئيمة جدًّا.

- وصلت محطتي، أوفيديرزن يا دكتور يزن.

شهادة -٦-

جمال / سجن صيدنايا

«سياستهم الأساسية كانت التجويع. التجويع الفظيع. كنا جياعًا طيلة الوقت، خائري القوى، لا نقوى على شيء، هذا لم يكُن يضمن لهم أننا لن نقوم بشيء فحسب، بل كان يزرع العداوة والفرقة بيننا أيضًا، كانت تحدث سرقات للطعام في أثناء توزيعه، لأنَّ الطعام كان يوزع ونحن محنيو الرؤوس، ونستمر بهذا الوضع إلى أنْ ينتهي توزيع الطعام على كل المهاجع، وهذا كان يتيح لرئيس المهجع أنْ يتعاون مع أشخاص معينين لسرقة الطعام. في كل مهجع كان هناك عصابات تتصارع على الطعام للحصول على المزيد منه. كانت حربًا من أجل البقاء».

«لأني طبيب أسنان، فقد كانوا يتعمدون وضع فرشاة تنظيف المراحيض في فمي وتفريش أسناني بها.. إمعانًا في إذلالي».

«عُلِّقت عدة مرات لساعات طويلة كانت تصل أحيانًا إلى يوم كامل، كان التعليق يشبه الصلب، من يدي وبمسافة بين كل يد. في أثناءً التعليق كانوا يطفئُون السجائر في جسدي. أو يضربونني بوسائل متعددة. كان هناك ضرب بعصا خيزران، وبقضيب حديد، وبسلك الكهرباء الرباعي، الأسوأ كان الضرب بأنابيب التمديدات الصحية (البُواري الخضراء[١]). ضُرِبت أربع ضربات بالبوري الأخضر على ظهري، أُصبت بعدها بالشلل لمدة أربعة أسابيع، كانت تأتيني خلالها نوبات اختلاج عصبية».

---

(١) البعض يسميها الأخضر الإبراهيمي.

«من أشد أنواع التعذيب كان الضرب بدولاب السيارة، الإطار.. كان الإطار يقطع عرضيًّا إلى قسمين، بحيث تبرز الأسلاك منه، ثُم يُوضَع فيه ممسكان من جهة بحيث يمكن للسجَّان أنْ يمسك الإطار، ونُضرَب به من الجهة الخشنة بكل ما يبرز منها من أسلاك. البعض سلخت جلود ظهورهم كاملة بسبب الضرب بالإطار».

«لم يكُن مسموحًا لنا رفع رؤوسنا مطلقًا في أثناء دخول السجان إلى المهجع. يجب ألا نرى وجهه تحت أي ظرف. مَن يرانا يموت. هكذا كانوا يقولون في مرة في أثناء إدخال الطعام، فتح رئيس المهجع الطاقة أو الشراقة[1] في الباب دون أنْ يغطي عينيه بيده. رأى السجَّان عينًا بعين. كان رئيس المهجع هذا قد نُقل من مكان آخر ولم يكُن يعرف التعليمات. السجَّان كان قد أخبره بأنْ يضع يده على عينيه عند فتح طاقة الباب، لكنه نسيَ.

أخذ السجَّان يصرخ برعب. شفتني ولاه[2]؟ بُكرا ميت. بُكرا ميت أنت. بالصدفة شقيق رئيس المهجع كان معنا في المهجع نفسه. أخذ يتوسل للسجَّان من خلف الباب أنْ يعفو عن أخيه. قال له السجَّان بحسم: أخوك ميت بُكرا.

في اليوم التالي عند إدخال الطعام، قام السجَّان بضرب رئيس المهجع على رأسه وظهره إلى أنْ مات. ثُم نادى على شقيقه وقال له: وعدتك أنْ يموت أخوك اليوم ووفيت بوعدي. هذا مصير كل مَن يرانا. ثُم عيّنه رئيسًا للمهجع بدلًا عن أخيه.. موعد إخلاء الجثث كان في الساعة

---

(١) الطاقة أو الشراقة: فتحة في الباب مُهيَّأة لإدخال الطعام أو غيره.

(٢) شاهدتني يا ولد.

الخامسة صباحًا والخامسة مساء، أي مُعتقل يموت بين هذين الوقتين كان يبقى معنا إلى موعد الإخلاء.. وهكذا بقيت جثة الأخ أمام أخيه إلى أنْ حانت ساعة الإخلاء مساءً».

«كانوا يقولون لنا بصراحة: تريدون أنْ تحفظوا وجوهنا كي تذبحونا عندما تخرجون. لكن هذا لم يكُن السبب الوحيد. كنا نرسم لهم في أذهاننا صورًا مرعبة. نتخيَّلهم وحوشًا كاسرة هائلة الحجم، وكانوا يتعمدون تخشين أصواتهم والحديث بلهجة معينة لكي يرسخوا هذه الصورة في أذهاننا. في مرة، نظرت من شق في الباب، ورأيته، كنت أتخيَّله مثل أبطال كمال الأجسام، طويلًا بطولي وحجمي مرتين، ولكن صُدمت بشكله، كان مجرد «ولد» لعله لم يتجاوز التاسعة عشر من العمر، ضئيل الحجم، منظره يوحي بفقر مدقع، لو رأيته في ظروف أخرى لأشفقت عليه.. لم يكونوا يريدون أنْ نراهم بهذا الوضع، لأنَّ هذا كان سيشجعنا على أنْ نهاجمهم أو نتمرد عليهم».

«لن أنسى أبدًا ما حدث لوائل. وشى به أحد السجناء أنَّه (مخالف)، مخالفته كان أنَّه حفظ سورة الرحمن. كل ما يتعلق بالصلاة أو الصيام أو قراءة القرآن كان يعتبر مخالفة في صيدنايا. قال له السجَّان ستعرف ربك الآن. أمره بالانبطاح وأخذ يضربه ويطلب منه أنْ يكفر بالله. وائل لا يقول سوى (لا إله إلا الله)، والسجَّان يضرب على ظهر ورأس وائل، ووائل لا يقول سوى (لا إله إلا الله)، إلى أنْ مات. وائل خليلو. لن أنساه أبدًا.. شاب فقير بسيط التعليم من إدلب».

«المخالفات التي كانت تستحق التعذيب والضرب تتضمن الصلاة والصيام وقراءة القرآن، وعدم تناول وجبة الطعام كاملة -إذ إنَّ الإبقاء

على جزء منها كان يعتبر صيامًا بالسر، والباقي للإفطار لاحقًا- المشي في المهجع، الكلام، الضحك.. كلها كانت تعتبر مخالفات إذا علم عنها السجَّان فإنَّ مصير مرتكب المخالفة الضرب والتعذيب».

«عامر الأحمد، من مواليد ١٩٨٨، شخص متعلم ومحترم، انطوائي ومهذب وفي حاله تمامًا، دخل السجَّان وقد قرر أنْ يضرب اثنين بشكل عشوائي، اختاره هو وشخصًا آخر، الشخص الآخر مات في أثناء الضرب، أما عامر فقد دخل في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام، وعندما استفاق منها كان قد فقد عقله تمامًا. لم يكُن يعرف كيف يتحدث ولا يفهم ما نقول، يصدر أصواتًا كالحيوانات، ويتخيَّل أشياء، مثل أنَّه يشرب ماء أو يأكل. كان يأكل برازه أحيانًا. بعد فترة تحسن قليلًا، أصبح يذكر أسماء أولاده، لكنه لم يكُن يعرف أين هو ولا ما هو هذا الذي نحن فيه. أُصيب بعدها بالسل، ومات».

«تعرفت إلى أشخاص كانوا أطفالًا عندما اعتُقلوا في ٢٠١١. تعرفت إليهم بعد سنوات وقد أصبحوا مراهقين. للأسف هؤلاء سُجنوا مع سجناء في قضايا أخلاقية من قِبل الثورة. تعلموا منهم كل شيء سيئ، ولأنَّهم كانوا صغارًا فقد علموهم على اللواطة. عند الحديث معهم كنت تشعر أنَّهم أطفال، وقف بهم الزمن عند دخولهم المُعتقل. بعضهم تمكَّن لاحقًا من أنْ يتغير ويتجاوز التجربة، والبعض بقيَ فريسة لما حدث له.. كلهم كانوا يعانون من التقزم، بسبب نقص التغذية الحاد في أثناء فترة نموهم».

«كُنا نسمع أحيانًا السجَّانين وهم يتحدثون مع عوائلهم ونستغرب أنَّ هؤلاء أيضًا بشر يحبون ويشتاقون ويمكن أنْ يتحدثوا بطريقة لطيفة. في مرة كان السجَّان يتحدث مع أمه ويعبر عن اشتياقه لها، ثُم وضع لها

أغنية سعدون جابر (أمي يا أم الوفا). بكينا جميعًا. كُنا لم نرَ أمهاتنا منذ سنين. من سنتين بالنسبة لي».

«كانت هناك أحيانًا لمحات إنسانية من بعض السجَّانين، بسيطة جدًّا، مفاجئة جدًّا، وغير مفهومة غير أنَّها من رحمة رب العالمين. في مرة كنت في التواليت، ودخلوا المهاجع للضرب الجماعي، عادةً إذا وجدوا أحدًا في التواليت في أثناء التفتيش فإنَّه يُضرَب حتى الموت. فتح السجَّان الباب وشاهدني، لم أكُن أغطي عيني لكنه لم يهتم، أشار لي أنْ أبقى في مكاني دون صوت. سمعت صوت الضابط وهو يسأله إنْ كان هناك أحد في التواليت، فنفى ذلك. بقيت في مكاني إلى أنْ انتهى صوت الضرب.

السجَّان نفسه كان قد ضربني قبلها حتى كسر لي ثلاثة أضلاع. لم نكُن نفهم بالضبط لماذا تحدث تغيرات مفاجئة. لكن كُنا نفسرها أنَّ البعض منهم عندما يكون بمفرده دون رقابة من آخرين يتصرف على نحو أقل عنفًا. أما عندما يكون ضمن مجموعة فهو يضربنا بشدة، ربما لأنَّه يخاف أنْ يصبح بيننا إنْ لم يفعل».

«كُنا نقضي اليوم في أحلام يقظة، غالبًا كانت تدور حول الطعام. أغلب الأحاديث كانت عن الطعام. أقول لمن معي تخيَّلوا رغيفًا ساخنًا، تخيَّلوا عليه رشة زيت. تخيَّلوا عليه زعتر. تخيَّلوا أننا نأكله».

«أحد السجناء معي قال إنَّه عندما يحاول أنْ يتذكر وجوه أولاده لا يذكر أي تفاصيل، بدلًا عن وجوههم يرى بطاطا، أو صحن رز».

«عندما نُقلت من سجن صيدنايا إلى سجن البالون، كان الطعام أفضل قليلًا، بدأت أحلم بأشياء غير الأكل. كأن أمشي، أو أقف في الشمس أو أتعرف إلى فتاة تشاركني حياتي».

«لا يمكن أنْ أنسى ما حدث معي. لا أريد أنْ أنسى ما حدث. هذه الفترة أصبحت حجر أساسٍ في شخصيتي. حجر أساس لا يمكن أنْ أتخيَّل حياتي من دونه. كنت حديث التخرج عندما سُجنت، عمري ثلاث وعشرون سنة، أربع سنواتٍ في المُعتقل أنضجتني وقوتني وجعلت مني شخصًا آخر. حتى إيماني أصبح أقوى في أثناء وبعد التجربة. كنت ملتزمًا قبل الاعتقال، لكني صرت أقرب إلى الله بكثير مما كنت قبل».

شهادة -٧-

إبراهيم العيسى

اسم صريح / وجه مموه

«أعرف أنَّه من الصعب جدًّا التعاطف مع مُعتقل علوي. يتصور كثيرون أنَّ ثمَّة معاملة أفضل لنا في المُعتقل. بالعكس. معاملتنا تكون أسوأ. نتعرض لكل ما يتعرض له الآخرون، وأكثر، ونتعرض أيضًا للنبذ من المُعتقلين. فور معرفتهم أني علوي، أو من الساحل، ينظرون لي على نحو مختلف. أصبح منبوذًا كما لو كنت جاسوسًا مدسوسًا بينهم. رغم أني أتعرض لما يتعرضون وأكثر».

«طيلة فترة بقائي في المهجع كنت كما لو أني في الانفرادية. لا أحد يتحدث معي. مرعوبون مني كما لو كنت سجَّانًا أعذبهم. رأوني أرجع من التحقيق غارقًا بدمي أكثر من مرة، لا أقوى على الحراك، مدوا أيديهم للمساعدة. ولكن كل شيء يمكن أنْ يكون مسرحية من النظام. لذا لا حديث معي أو أمامي».

«لم أكُن مع الثورة، لم أشارك بشيء. كنت عسكريًّا في الجيش. الخدمة الإلزامية. هجمنا على قرية في محافظة حماة. العساكر معي اغتصبوا فتيات. اعترضت وحاولت منعهم. دفعوني وأكملوا الاغتصاب وقتلوا الفتيات أيضًا. ثُم شكوني إلى الضابط. قالوا له إني متعاطف مع الإرهابيين. وضعني في رأسه. في هجوم لاحق، كان هناك رجل «ختِيار» مُلقى على الأرض. قال لي الضابط أنْ أقوصه[1]. لم أفعل. كان

---

(١) أقوصه: أطلق عليه النار.

ختيارًا[1] كبيرًا في السن ولا عَلاقة له بشيء. لا سلاح معه ويبدو أنَّه وقع لأنَّه غير قادر على المشي. كان يشبه جدي من بعيد. قال لي أنْ أقوصه. مرة ومرتين. ما قدرت. والله ما قدرت. جاء وقتله بنفسه. وأمر بحبسي. لا أعرف كيف وجدت نفسي مُتهمًا بمساعدة الإرهابيين. أنا فقط لم أستطع أنْ أقتل خِتيارًا يشبه جدي».

«خلعوا أظافر يدي كلها وهم يطلبون مني أنْ أذكر أسماء من دفع لي. اضطررت في النهاية أنْ أقول أسماء وهمية. أسماء اخترعتها تحت التعذيب. أي شيء فقط لكي يتوقف التعذيب. كانوا يعرفون أنَّها وهمية. لم يسألوني عنها مرة أخرى».

«وضعوني في شيء يسمونه (بيت الكلبة). متر في متر. مثل بيوت الكلاب بالضبط. حشروني فيه. مثل الكلب. أتبوَّل وأقضي حاجتي على نفسي في هذه المساحة الضيقة. أتتني نوبات هلع وصرت أضرب جُدران بيت الكلبة هذا وكسرت يدي دون أنْ أعي ما أفعله. بقيت ثلاثة أيام في بيت الكلبة هذا. وكانوا يجبرونني على النباح كي يعطوني كسرة الخبز أو الماء. لا نباح لا طعام».

«وضعوني أيضًا في شيء اسمه التابوت الشاقولي، مساحة بمساحة التابوت لكنها غرفة أو خزانة. يُدخِلون اثنين أو ثلاثة فيها ويقفلون عليهم. مات معي اثنان. وكانوا يجلبون غيرهم».

«عندما خرجت، كل أهلي أعلنوا براءتهم مني. كلهم. رفضوا استقبالي. هذا لا يحدث للبقية. أهلي أُجبِروا على ذلك طبعًا. العشيرة وأهالي المنطقة لا يمكن أنْ تسمح بوجود شخص خائن. الضغط الذي

(١) خِتيار: رجل كبير في السن.

يحدثه هذا على أي شخص علوي يجعل مجرد التفكير بمعارضة النظام أمرًا مستحيلًا. أي أحد يتعرض لهذا الضغط لا يمكن إلا أنْ يكون مُجبرًا على الوقوف مع النظام. لو كان سنيًّا أو مسيحيًّا أو درزيًّا، لن يختلف الأمر».

«بعض الفصائل أو الثوار أيضًا ساهموا بذلك. وصلنا ڤيديو المظاهرة التي فيها هتاف (العلوية عالتابوت).[1] أو التعليقات التي كانوا يكتبونها على الفيس بوك (سنرجع أمهاتهم لفايات[2] بالبيوت).. كانت تصور وتنتشر بيننا. هكذا سيفعلون بنا. لفايات في البيوت ويغتصبن أيضًا.. كيف يمكن للعلويين أنْ لا يكونوا مع النظام؟ وهذا قبل داعش والنصرة وقبل الذبح وقبل كل شيء.. تقولون إنَّ النظام حولها إلى طائفية وإنَّ بثينة شعبان[3] هي أول من ذكر الطائفية قبل هذه الهتافات وقبل كل شيء؟ ربما. النظام أولًا. لكن بعض مؤيدي الثورة جعلوا ذلك حقيقة».

«بعض المثقفين من العوائل العلوية الكبيرة معارضون للنظام، شيوعيون أو يساريون.. لكنَّ هؤلاء معارضون منذ قبل الثورة، لهم وضعهم، يتعرضون للاعتقال والتعذيب أيضًا، لكن معارضته تبقى مختلفة. إما أنْ تكون علويًّا فقيرًا، من القرى أو من الساحل، وتجرؤ على أنْ تعارض النظام، وإما حتى تتعاطف قليلًا مع من يعتبرهم النظام أعداءً له... فهذا غير مسموح به».

(١) لم يكن هذا الشعار معروفًا في مظاهرات الثورة، وهناك اعتقاد واسع أن الأمر رتب من قِبل النظام لتجييش الأقليات خاصة أن تتمته كانت «مسيحية عبيروت» بكل الأحوال أدى هذا الشعار غرضه حيث استخدمه إعلام النظام بشكل واسع رغم أن الشعارات المنتشرة في المظاهرات كانت تؤكد على وحدة الشعب السوري وتجنبت تمامًا الطائفية بل وحاربتها.

(٢) لفايات: خادمات بيوت. من اللف من بيت لبيت.

(٣) بثينة شعبان: مستشارة إعلامية للأسد، ووزيرة للمغتربين.

«يتحدثون عن استفادة العلوية من النظام. هل شاهدت قرى العلويين؟ هل شاهدت الفقر المدقع فيها؟ أي استفادة؟ على العكس.. النظام حرص على الإبقاء على هذا الفقر، كما لو أنَّ الإقطاع لم ينتهِ، لأنَّ الفقير يمكنه أنْ ينضم إلى الأمن والجيش.. إذا اغتنى لن يقبل.. لذلك أبقى النظام على فقر العلويين.. لأنَّهم سيمدون أمنه ومخابراته بالعناصر... لا رزق مفتوح لهم غير هذا».

«تركت سوريا وأصبحت لاجئًا. أهلي يعتبرونني ميتًا. على الأقل هذا ما يعلنونه. أعرف أنَّ قلب أمي لا يعتبرني كذلك. لكن لا أحد يريد أنْ يتورط... السوريون هنا أيضًا يعاملونني بالطريقة نفسها في المهجع. أنا جاسوس من النظام. أحمل بيت الكلبة معي أينما ذهبت. في أحيان كثيرة أقول لنفسي.. ليتني مت في السجن... أو في المواجهات.. على الأقل أهلي لن يحملوا عاري هكذا».

شهادة -٨-

جلال مندو

فرع الأمن العسكري - حمص

«كنت أدرس في كلية الهندسة، قسم الميكاترونكس، وأهوى التمثيل والتصوير، تم اعتقالي وأنا في طريقي من حمص إلى الشام، كنت أريد أنْ أقدم أوراقي إلى المعهد العالي للفنون المسرحية، وكذلك كانت هناك مواد مصورة للتظاهرات أريد توصيلها إلى دمشق».

«في أول ساعة في اعتقالي في فرع الأمن العسكري، أجلسوني عاريًّا أمام الزنزانة المنفردة رقم ٨، كنت أسمع أصوات استغاثة. شخص يستنجد بالضابط وهو يقول له إنَّه يشرب بوله. وشخص آخر يقول إنَّ (أبو علي فطس) لم أكُن أفهم لماذا هناك أكثر من شخص في زنزانة واضح أنَّها لا تتسع لأكثر من شخص. جاء صوت الضابط وهو يصرخ بالسجَّان، لماذا هناك أصوات؟ فيرد عليه السجَّان: المنفردة ٨ سيدي. فيأمره أنْ (طالع هدول الكلاب).

يفتح الباب، فيتدفق منها بول. ثُم يخرج من الزنزانة ٧ أشخاص، ويسحبون معهم شخصًا ميتًا. كانوا «بيض» جدًّا. بياض غريب. شاحب. كما لو أنَّ لا دمًا فيهم. ضعاف البنية جدًّا. ربما لا تتجاوز أوزانهم ثلاثين أو أربعين كيلو. ضربهم السجَّانون، ضربوا حتى الميت. لم أكُن أفهم ما يحدث بعد. لماذا يضربونهم؟ ولماذا يضربون الميت؟ قال الضابط: خُذهم إلى الخارج. وخُذ الفاطس وارجع بثلاثة فقط. لم أفهم أين يبقى الأربعة

الباقون. عرفت بعدها أنَّه يقصد أنْ يصفي أربعة منهم. لا على التعيين. همس لي معتقل قربي وقد أدرك أني لم أفهم ماذا يحدث لأني جديد: من يتكلم هنا، يدخلونه في المنفردة إلى أنْ يموت».

«كنت معلقًا من يدي، وكانت هناك امرأة معلقة بالقرب مني. لم يكُن هناك فرق في التعليق بين النساء والرجال. الضرب نفسه. لكن مع زيادة التحرش والكلام الجنسي مع النساء. هذه المرأة كان معها طفلان. واحد منهما كان رضيعًا. يحبو على الأرض. عندما شاهدا أمهما مُعلقة أخذا بالبكاء بصوت عالٍ. تحركت هي بشدة عندما رأتهما، وانقطع الحبل وسقطت على وجهها وتكسرت أسنانها. واحد منهما صار يجمع أسنان أمه ويعطيها لها. جاء السجَّان غاضبًا لأنَّ الحبل انقطع، وركل الطفل ركلة أخذته إلى آخر الغرفة. لم أرَ تلك السيدة بعدها ولا سمعت صوتها. غالبا ماتت. أخذوني أنا إلى غرفة تعذيب أخرى، المطبخ».

«أكثر مكان كُنا نُعذَّب فيه كان المطبخ. المكان نفسه الذي يطبخ فيه السجَّانون ويتناولون طعامهم كُنا نُعذَّب فيه. كان المكان مليئًا بدمائنا، وكُنا في أحيان كثيرة نتبول في أثناء التعذيب. رغم ذلك كانوا يتناولون طعامهم هناك. أحيانًا كانوا يعذبوننا في أثناء تناولهم طعامهم».

«عُلقت (مشبوحًا) لعشرة أيام تقريبًا. هذا النوع من التعليق يسمونه التعليق العكسي وهو مختلف عن الشبح العادي الذي تكون اليدان معلقتين من الأمام. في التعليق العكسي يُربَط المعصمان بعد تثبيت اليدين خلف الظهر، ثُم تُعلق اليدان بحبل يتدلى من السقف بعد الوقوف على الصندوق، ثُم يسحب الصندوق فجأة فيصبح ثقل الجسد على المعصمين ولوحي الكتف، يتورم المعصمان ويتمزق لوحا الكتف، يترافق ذلك كله مع

الضرب بطبيعة الحال... في نهاية الأيام العشرة كانت يداي متورمتين، والعظم في المعصمين بارزًا بوضوح لأنَّ الحبل حفر فيهما».

«كل يوم كان يأخذ المحقق ستة من المعتقلين. يصفهم أمام جِدارٍ. مكان التعليق نفسه ولكن يصفنا ووجوهنا إلى الجِدار. ثُم يبدأ في الضرب بعصا خشبية كبيرة على الرقبة والرأس. كُنا نرجع واحدًا أو اثنين أحياء. الباقون يموتون تحت الضرب. كان يتعمد ضربهم على الرقبة لكي يموتوا. أنا يضربني على ظهري فقط، ثُم يهمس لي: أنت بكرا دورك».

«أغلب المُعتقلين من القصير[1] وتلكلخ[2] تمت تصفيتهم بهذه الطريقة، يبدو أنَّه كانت هناك أوامر بذلك».

«في مرة أخرجوني إلى خارج المبنى إلى حديقة خلفية فيها قبور محفورة جاهزة للدفن، دفعني المحقق إلى واحد منها وأخذ يطمرني بالتراب، وأنا أصرخ وأستغيث، بعد أنْ يغطيني التراب كليًّا، يقول لي هل ستقول كل الأسماء التي تعرفها؟ أرد عليه (شو ما بدك سيدي). فيقول (هذه آخر فرصة)».

«كانت هناك طريقة تعذيب أخرى؛ الشبح على الركب جاثيًا. يجلس المعتقل على الركبتين لمدة قد تصل إلى العشرين ساعة. العينان معصوبتان. اليدان إلى الخلف. توجد كاميرات مراقبة، أي حركة كانت تعني التعرض للضرب. خلال هذا النوع من التعذيب كان يمنع النوم أو الأكل أو الشرب. الشرب الوحيد المسموح كان ماء «الشطف» الذي يخرج

---

(١) القصير: مدينة القصير مركز منطقة القصير، تابعة لمحافظة حمص وتبعد عن مدينة حمص ٣٥ كيلومترًا، ويمر نهر العاصي على مسافة قريبة منها.

(٢) مدينة تلكلخ: مركز منطقة تلكلخ تبعد ٤٥ كيلومترًا عن مدينة حمص، وتقع على الحدود اللبنانية السورية.

من الزنزانات. ماء يختلط فيه البول والدم. كان مسموحًا لنا أنْ ننزل إلى الأرض لنلحسه. ولأننا كُنا نموت عطشًا فقد كنا لا نرتوي من هذا الماء. وفي وسط هذا كله، في رغبتنا بالمزيد من هذا الماء كنت أشعر؛ اقتلوني، هذا أرحم».

«في ليلة رأس السنة عام ٢٠١٤ حدثت مجزرة الإسهال. كُنا نسمع أصوات العساكر يحتفلون بالساعة الثانية عشرة. السنة الجديدة. وزعوا علينا طعامًا يبدو أنْ كان فيه شيء مختلف، وأُصيب الجميع بالإسهال. الإسهال في تلك الظروف يؤدي إلى الموت. مات في تلك الليلة وحدها خمسة وثلاثون شخصًا».

«في فرع الأمن العسكري كنت أعمل في السخرة، توزيع الطعام وحمل جثث المعتقلين. كل يوم كُنا نحمل أربعًا إلى ثماني جثثٍ إلى الخارج. نضعها في براد البوظة[1]».

«في الفرع ٢٢٧ كنت أعمل سخرة «موت»، أي بحمل الجثث. أحمل الجثث كل يوم أنا وثلاثة من المعتقلين معي. تأتي شاحنة كبيرة تنطلق منها أغاني للشبيحة، محملة بالجثث، ثلاثين إلى أربعين جثة، وكُنا نحمل كل يوم عشر جثث تقريبًا إلى هذه الشاحنة. كان علينا أنْ نحشر الجثث الجديدة بين الجثث القديمة لكيلا تسقط كل الجثث علينا. غالبًا كُنا نضطر إلى كسر رقبة الميت أو يده لكي نضعه في الشاحنة».

«خرجت بعد رشوة لقاضٍ. كل شيء وله ثمنه لكن المُهم أنْ تصل إلى المفتاح. عندما خرجت بقيت أتأمل الناس في الشوارع. ناس تسير. تضحك. تلبس ملابس عادية وليست ملابس محكومين. كل شيء بدا غريبًا كما لو

(١) براد البوظة: ثلاجة الآيس كريم.

أني أراه أول مرة. هؤلاء الناس يعيشون حياتهم كما لو أنَّ لا شيء يعنيهم من أولئك الأشخاص الذين كنت أنا بينهم... كان هذا صعبًا على التقبل».

«في المُعتقل كنت ممنوعًا من النوم. لكن بعد الخروج كنت عاجزًا عن النوم. كل مرة أحاول النوم كان يعود لي كل ما حدث في المعتقل. فأهرب من النوم... كان هذا تعذيبًا استمر معي حتى بعد خروجي».

«كان رقمي (٩٩ -١١) في المُعتقل. (٩٩) هو رقمي. (١١) هو عنواني. المهجع الذي كنت فيه. اليوم عندما أسمع الرقم (٩٩) تعود لي الذكريات. أسمع شخصًا يتحدث عن موضوع لا عَلاقة له بالاعتقال فيقول: ٩٩٪ الموضوع مؤكد... فيأخذني الرقم إلى المُعتقل من جديد».

«الوطن؟ الوطن هو أصدقائي الذين استشهدوا تحت التعذيب أو اختفوا أو تفرقوا بين القارات. لم يَعُد عندي وطن».



-١٩-

أرسلت إليَّ سكرتيرة رئيس القسم (إيميل) تخبرني فيه بإنَّ الدكتور «هاينز» يرغب في أنْ يطِّلع خطوة خطوة على تقدم البحث الذي اتفقت معه عليه. تضمن إيميلها رابطًا لموقع مشترك عليَّ أنْ أضع فيه المعلومات التي تخص البحث يستطيع الدكتور «هاينز» الاطِّلاع عليها أولًا بأول.

والله وقعت يا يزن ولم يُسمِّ أحد عليك. يبدو أنَّ الدكتور «هاينز» لا يريدني أنْ أعود إلى حضن الوطن. كيف سأتخلص من هذه الورطة؟ هل أذهب إليه وأشرح له الأمر بصراحة تليق بالألمان؟ هل أستطيع أنْ أفعل؟ أم أني أحمل ثقافة «تعا ولا تيجي» في جيناتي على نحو يائس؟ أم أنَّ الأمر لا عَلاقة له لا بثقافة أو أي شيء آخر، كل ما في الأمر أني أجبن من أنْ أخطو في البحث، وأجبن من أنْ أواجه الدكتور «هاينز» بجُبني. جُبن مُركب يريد أنْ يجد تبريرات بثقافة العقل الجمعي.

أرسلت إلى السكرتيرة إيميل شُكر ووعدتها بأني بالتأكيد سأفعل المطلوب. وقلت في نفسي: إنْ شاء الله... إنْ شاء الله ينسى الدكتور «هاينز».

لكنه فاجأني ليس فقط بعدم نسيانه، بل أنَّه أرسل إليَّ مجموعة من المقالات الطبية التي تتحدث عن معاناة اللاجئين السوريين وما تعرضوا له من تعذيب في المُعتقلات، من ضمن هذه المقالات أرسل مقالًا عن التعذيب الذي يحصل في المستشفيات على يد الكوادر الطبية. علق قائلًا: هذا وحده يحتاج إلى دراسة. قرأت المقال، كان في الحقيقة «رسالة إلى

محرر» في دورية تصدر عن التعذيب، الرسالة كانت تشير بالوثائق إلى وجود أدلة متراكمة عن استخدام المستشفيات والكوادر الطبية لوسائل تعذيب للمُعتقلين الذين ينقلون إليها، وثائق عن إجراء عمليات جراحية دون مخدر لتوسيع جروح موجودة مسبقًا بسبب التعذيب. الضرب بقضبان حديدية في أثناء التجوال الطبي اليومي على الأسرّة. تهشيم رؤوس المعتقلين المرضى. العمل على إبقائهم على قيد الحياة فقط لغرض التحقيق ومن ثَمَّ قتلهم بعد الانتهاء من ذلك. شهادات وفاة مزورة تعتبر الموت تحت التعذيب «وفاة طبيعية». صور مسربة من المستشفيات من قِبل طبيب عسكري توضح وجود أكوام من الجثث المكدسة فوق بعضها. قادتني المصادر إلى جولة في مقالات موسعة عن الأمر. شعرت بمزيج من الخجل والغضب. ماذا يريد الدكتور هاينز أصلًا من إرسال هذا المقال؟ ولماذا هذه الإشارة إلى أنَّ «هذا وحده يحتاج إلى دراسة»؟ هل يفكر بعنوان بحث قادم عليَّ أنْ أنجزه بعد البحث الحالي الذي تطاردني سكرتيرته للبدء به؟ أخبرت نور في اليوم التالي عن الذي حدث مع الدكتور «هاينز» وكم المقالات التي أرسلها إليَّ عن آثار التعذيب على المُعتقلين في السجون السورية.

قالت: «اللهم لا شماتة» باللهجة التي تقال فيها هذه العبارة عادةً، أي بمنتهى الشماتة.

قطبت جبيني وقلت: ما المضحك في الأمر؟

- لم أضحك. شَمِتُّ فقط.

- بلى. واثق أنَّك ضحكتِ في سرك.

انفجرت تضحك. أول مرة أراها تضحك هكذا. بل أول مرة أراها

تضحك على الإطلاق. الله أكبر. هذا يوم مفترج. فكرت أنْ أسجد سجدة شُكر على أرض القطار لكن خفت من رد فعل الركاب الذين قد يتوقعون أنَّ سجدة الشكر هذه تمهيد لتفجير إرهابي.

- نهفة[1] والله هذا الدكتور. كان يجب أنْ يعمل معنا بالتنسيقية. تنسيقية برلين وضواحيها.

- برلين وضواحيها في تنسيقية واحدة؟ لا. كان لديكم تنسيقية واحدة على الأقل لكل حارة.

قلدتني وأنا أتكلم وقالت:

- ما المضحك في الأمر؟

- هل أخبرتك إنَّ جَدَّ الدكتور «هاينز» كان معارضًا للنازية أيام هتلر؟

- حقًا؟ ثورجي بالجينات إذن. اسأله إنْ كان لديهم مظاهرات طيّارة[2] مثل التي كانت لدينا في الشام.

ابتسمت عندما قالت «مظاهرات طيّارة». كل ملامح وجهها تغيرت. كما لو أنَّها كانت تعاني الشلل في عضلات وجهها، ثُم زال كل شيء مع ذكريات الثورة. مظاهرات طيّارة.

«اسق الله[3]». قالت بحسرة.

- هل تحنين لتلك الأيام؟

(١) نهفة: خفيف الدم.

(٢) مظاهرات طيارة: بسبب التواجد الكثيف لعناصر الأمن في كل مكان في العاصمة دمشق، كان الثوار يرتبون ما يعرف بالمظاهرات الطيارة التي يتجمعون فيها بسرعة ليهتفوا ضد النظام ثُم يتفرقون بسرعة قبل مجيء عناصر الأمن.

(٣) اسق الله: الله يرحم وأصلها سقى الله أيامًا...

- طبعًا أحن... لا أعرف أحدًا من الثوار لا يحن لتلك الأيام. أيام الثورة الأولى. صدق وبراءة ومشاعر روحانية عالية جدًّا. فاتكم خير كثير يا مَن لم تشاركوا في الثورة.

- لا ندم؟ رغم كل ما حدث بعدها؟

- بالنسبة لي، ولكثيرين ممن أعرف، لا ندم. يمكنك أنْ تقول إنَّ هذا إنكار. لكن لا، بالنسبة لنا، مسألة مبدأ.

- إذا كان لا بد من الندم، فليس نحن من يجب أنْ يندم. لا أريد أنْ أقول أشياء تزعجك.

- مفهوم، وشكرًا لأنك لا تريدين إزعاجي.

كان هذا تقدمًا إستراتيجيًّا يجب أنْ أزهو به. مرت على سطيف العوايني أيام سيئة جدًّا. الحمد لله مستحق الحمد. قامت وقد أوشك المترو على الوصول إلى محطتها. قلت لها مستوقفًا: هل من سبيل للتكفير؟ نظرت باستغراب: كيف؟ آلة زمن ترجعنا إلى أيام الثورة الأولى لتشارك فيها؟

- أريد أنْ أتطوع لمساعدة اللاجئين، ربما منهم من يحتاج إلى طبيب نفسي، أو أي عمل آخر يمكن أنْ ينفع.

- حسنًا. صورتان وطابع وورقة من المختار وشهادة (لا حكم عليه)[1]، وننظر في الأمر.

- حاضرين.

«أوفيدرزين يا دكتور يزن». اللدغة مجددًا.

* * * *

---

(١) شهادة حسن السيرة والسلوك تسمى ورقة (لا حكم عليه) في سوريا.

في ذات اليوم تحدثت مع أمي مساء. قالت لي إنَّها لكي تروّح عن خالتي ذهبت إليها وأجبرتها على الخروج معها إلى عين الفيجة[1]..

- تعرف.. (تكويزة رمضان)[2].. هذا آخر أسبوع في شعبان.. كل سنة وأنت بخير.

«تكويزة رمضان». رددت. منذ زمن طويل لم أسمع هذه الكلمة.

- أمي لماذا نقول تكويزة رمضان؟ وليس تكريزة رمضان، أعتقد فقط نحن نقولها هكذا.

- كانت ستك الله يرحمها تقولها هكذا وسارت عندنا. كانت تلدغ في الراء.. هل تذكر؟

يااه. ستي كان لديها لدغة. أذكر كل شيء كما لو كان حلمًا. نعم أذكرها. أذكر أنَّها كانت بيضاء جدًّا، جميلة جدًّا، كنت أضع يدي على يدها وأتعجب من فارق اللون. ثُم يأتي أنس ويضع يده فتبدو بيضاء مثل يدها. أذكر أني كنت أبقي يدي تحت صنبور الماء لساعات، ثُم أذهب لأضعها على يدها لأرى إنْ كانت قد ابيضت قليلًا. كانت تحاول أنْ لا تبدو كما لو أنَّها تفرق بيننا، أنا وأنس. كنت ألاحظ حتى في ذلك السن أنَّها تبذل جهدًا لكي تتظاهر بأنَّها تحبني كما تحب أنس. ربما هي خيالات وعقد مني. ربما كانت تحبني مثل أنس بالفعل. لكني كنت أنظر إليها عندما تحتضنه، وأشعر أنَّها استغرقت وقتًا أطول معه مما فعلت عندما كنت في أحضانها. أتذكر كيف كان حضنها دافئًا عطرًا دائمًا. أذكر رائحة غطاء الصلاة الأبيض وهي تضمني.

---

(١) عين الفيجة: بلدة تبعد حوالي ١٥ كيلومترًا غرب دمشق في وادي بردى بين السلاسل الجبلية، وفيها نبع الفيجة الذي يزود دمشق بالمياه. وتعد المنطقة سياحية وتكثر فيها المطاعم والاستراحات المطلة على النبع.

(٢) تكريزة رمضان: نزهة يقوم بها الدمشقيون في آخر جمعة قبل رمضان.

«نعم أذكرها بالتأكيد أمي. كان عمري ٨ سنوات عندما توفيت». كان لقائي الأول مع الموت. بكيت كثيرًا يومها. الآن أفهم لماذا.

- الله يرحمها، كانت ستفرح كثيرًا لو شاهدتك طبيبًا.

أما أنا، فقد كنت في عالم آخر تمامًا. اللدغة. لدغة ستي، بقيت محفورة في لا وعيي. مرتبطة بحبي لحضنها الدافئ ورغبتي في كسب حبها. بكل مشاعر اللاأمان التي اختزنتها في طفولتي.

ماتت ستي وأنا في الثامنة، وفقدت فرصتي في أنْ أكسب ودها. في أنْ أثبت لها أني مثل أنس أو أفضل. انتهى الأمر بهزيمتي لأنَّ المنافسة انتهت بموتها. ثُم جاءت نور. مع لدغة مماثلة. مع ملامح مماثلة. وكل الباقي تفاصيل. لا وعيي أنجز كل شيء بسرعة.

أحببت جدتي جدًّا، بدوافع مختلفة ولكن أصبحت الآن واضحة بالنسبة لي. ثُم جاءت نور لتأخذ كل خزين المشاعر. أم خزين العقد؟ لا أعرف. ربما لا فرق كبير بين الأمرين.

غفوت وأنا بين هذه الأفكار، لا أعرف إنْ كنت أتذكر أم كنت أحلم، لكني حلمت بأني في بيت ستي في «القنوات»[1]. ثمَّة براد[2] ضخم. «جهنمية»[3] مجنونة تتسلق على الجدار. سبرتاية[4] نحاس جنبها دولة[5] قهوة. على طاولة خشب. صوت الأذان من الجامع القريب. جامع سنان

(١) القنوات: حي القنوات الدمشقي، من أعرق الأحياء في دمشق القديمة.

(٢) براد: ثلاجة.

(٣) جهنمية: نبتة متسلقة معروفة بزهورها البنفسجية.

(٤) سبرتاية: موقد كحولي تصنع عليه القهوة، ويستعمل فيه السبرتو - الكحول.

(٥) دولة: إناء أسطواني تعد فيه القهوة.

باشا[1].

رأيت ستي تجلس في مقعدها تحت الجهنمية. كأنَّها أكملت قهوتها وقلبت الفنجان. كانت تبتسم وتردد كلمات الأذان. أتذكر أم أحلم؟ لا أدري. لا فرق أيضًا.

* * * *

كنت أعتقد أني لو فهمت سر انجذابي لنور، لو فهمت خفايا عقلي الباطن التي جعلتني مشدودًا لها، لخف هذا الانجذاب، أو لسيطرت عليه على الأقل. كنت واهمًا. لقد حدث العكس.

الأيام التالية شهدت المزيد من التفكير بنور على نحو مزعج وملح. بدا لي أنَّ انجذابي لها مغروس في منطقة عميقة جدًّا من عقلي الباطن بحيث لا يمكن الوصول إليها بسهولة. أو بصعوبة. فهمت لماذا أنا منجذب. وزاد الانجذاب.

حاولت تجنب التواصل معها. كان اليوم هو السبت لذا لا جامعة ولا مترو. كنت أريد أنْ أختبر نفسي. صفر طبعًا. فشلت فشلًا ذريعًا. لم أتحمل أكثر من منتصف النهار. أرسلت إليها بحجة السؤال عن تطوعي في مركز رعاية اللاجئين. ردت بعد قليل: لم أتصور أنك جاد. يمكنك أنْ تأتي اليوم مساء. لا يتطلب الأمر الكثير ما دمت ستكون متطوعًا.

هرعت إلى المركز بعد انتهاء مناوبتي في المشفى. عرفتني بالعاملين فيه. أغلب العمل الذي يوكل للمتطوعين يتعلق بمساعدة اللاجئين في

(١) جامع سنان باشا: أو جامع السنانية، جامع أثري في دمشق - باب الجابية، تأسس في ١٥٩٠ ميلادية من قِبل الوالي.

الترجمة على نحو غير رسمي. كانت هناك فرح صديقتها، لكنها تجاهلت وجودي تمامًا. لا أستطيع أنْ ألومها على ذلك.

سألت نور بينما نحن نخرج من المركز، قرابة التاسعة مساء: وددت أنْ أسألك عن اللدغة؟

- لدغتي؟ ما بها؟

- كيف صمدت اللدغة مع تعليم القرآن؟ لا بد أنَّك كنت تحفظين وتتعلمين أصول التلاوة منذ الصغر، حسب معلوماتي، اللدغة تختفي في ظروف كهذه.

- لا تذكرني. كانت أمي منهارة. أشعرتها بالعار. كانت تقول (يا عيبو[1]، بنت هدباء لا تستطيع قراءة سورة القمر)، كانت محرجة جدًّا من الموضوع، أخذتني إلى أطباء وأخصائيّ نطق وتخاطب ليعالجوا الأمر، كانوا يقولون لها إنَّ اللدغة ستختفي بالتدريج ولا داعي للقلق لأنَّه لم يكُن هناك شيء في اللسان، لكنها كانت تريد أنْ تقضي على الأمر قبل أنْ أقضي على مكانتها.

- وبعدين؟

- ذهبت اللدغة تقريبًا. إلا في القرآن. أبدأ بالتلاوة، وترجع اللدغة فورًا، وتنهار أمي.

سكت قليلًا وأنا أفكر بما قالته نور.

- تعرفين؟ هذه اللدغة هي أول مظاهر ثورتك على ما يبدو، كنت متمردة على أمك حسب تصوري، وعندما اكتشفتِ أنَّ اللدغة قادرة على إحراج أمك رغم قوتها، تمسكت بها، ولو بطريقة غير واعية.

---

(١) يا عيبو: يا للعار.

سكتت نور وهي تنظر إلى الأمام كما لو أنَّها تستعيد ذكريات معارك اللدغة.

- أعتقد أنَّك على حق في تفسيرك هذه المرة يا محقق كونان، ممكن جدًّا أنْ يكون تحليلك منطقيًّا.

لدغتها فعل تمرد وثورة إذن. لماذا كل تفسير جديد يزيدها جاذبية؟

شهادة -٩-

علاء خويلد

فرع الأمن السياسي في اللاذقية

«عند اعتقالنا، وُضِعنا أولاً في قفص صغير، كُنا سبعة تقريبًا، أنا وأخي وخمسة آخرون، بقينا في القفص لـ١٦ ساعة تقريبًا في انتظار أنْ يتم فرزنا إلى المهاجع، كانت أيدينا مقيدة من الخلف بالأشرطة البلاستيكية وبقوة، تكاد تصل إلى العظم.. في الانتظار قضى بعضنا حاجته على نفسه..».

«التعليمات في الفرع، أنَّ المعتقلين إذا سمعوا صوت المفتاح في باب المهجع يقومون جميعًا ويقفون بمواجهة الحائط بزاوية معينة، بحيث لا يرون الضابط أو العنصر الذي دخل، ويبقون كذلك لمدة عشر ثوانٍ بعد سماعهم صوت إغلاق الباب.. أدخلني العنصر ووجدت الجميع واقفين وظهورهم لي، خرج العنصر، وبقيَ المعتقلون بالوضع نفسه، كنت أحمل حذائي في يدي، ألقيته على الأرض، وإذا بالجميع يلتفتون لي بغضب مستنكرين شيئًا فعلته ولم أعرف ما هو. اتضح أنَّهم كانوا قد (شطفوا) أرض المهجع للتو».

«أغلبهم كانوا في المهجع من أشهر، سألوني عن الأخبار خارج المُعتقل. هل لا تزال هناك مظاهرات. هل نسينا الناس في الخارج. هل سيُخرجنا الثوار. هل هناك حديث عن عفو من (الرئيس)؟ اقترب مني شاب صغير، وسألني إنْ كان يمكن له أنْ يطرح عليَّ سؤالاً قد يكون محرجًا.

قلت له: تفضل.

قال بخجل وهو خائف من رد فعلي: مَن المتصدر في الدوري الإسباني؟

قلت له فورًا: نحن طبعًا، الملكي متصدر.

انشرحت أساريره وقال: «الله حيّو»، اتضح أنَّه من مشجعي الريال مثلي، وأخذ يسألني عن نتائج كل مباراة ومسجلي كل هدف فيها. استشهد تحت التعذيب لاحقًا في صيدنايا. كان اسمه مثل اسمي: علاء».

«وُضِع أخي في مهجع آخر، في الطرف الآخر من الممر، لم يكُن من الممكن أنْ أراه أو أرى باب المهجع، لكن كُلنا يمكن لنا أنْ نتواصل في الليل، عندما ينام الحراس، نهمس لبعضنا من فتحة الباب. أخي كان يكبرني بعامٍ واحد، السنة الأخيرة في الهندسة الميكاترونكس، كان الأول على دفعتِه. أنا كنت في السنة الثالثة في الهندسة المعلوماتية، كنت الثالث على دفعتي. فُصلنا لاحقًا من الجامعة. قالوا لنا إننا خونة للقائد ولا يحق لنا الدراسة في أي جامعة سورية. كما لو أنَّ الجامعات كانت ملكية خاصة. عندما أرسلت صديقًا ليأخذ ما يثبت أني درست المواد التي درستها، اعتقلوه. أما أخي فقد استشهد لاحقًا».

«عنصر الأمن تيسير. في الستين من العمر، عسكري متقاعد، تطوع لكي يشارك في التعذيب. قال للمسؤولين: دعوني أساعدكم في تعذيبهم، أتسلى أحسن من بقائي في البيت. عناصر الأمن عمومًا يتنافسون في السفالة، بحيث إننا نعتبر أقلهم سفالة جيدًا، بل كنا نحبه فعلًا، كان سافلًا قذرًا، لكن سفالته كانت «أقل بقليل جدًّا» من البقية، وكان هذا كافيًا لجعلنا نعتقد أننا نحبه، واحدة من العَلاقات الغريبة التي تربط بين الضحية وجلادها».

«عذبت كثيرًا، بالدولاب خصوصًا، وبالضرب بمختلف أنواع العِصِيِّ، وخاصة بخشبة (الرفاشة).. أحد العناصر قفز على رقبتي بينما أنا ممدد على الأرض. حدث لي انقراص في الرقبة، ورضوض في العمود الفقري، وخلع في الفكين. لا أزال أعاني منها جميعها.

لكن أصعب أنواع التعذيب كان مختلفًا. ذات ليلة قررنا أنْ نصلي قيام الليل. تقدمت أنا كإمام وقرأت من سورة الزمر. كنا خمسة فقط. لكن الكل تقريبًا انضم لنا بالتدريج. أحد الحراس انتبه وأخبر عن الأمر. ضربنا بالعِصِيِّ وتصورنا أنَّ الأمر انتهى. لكن الخبر وصل للأمن السياسي في العاصمة. صلاة الجماعة هذه تحولت إلى أننا كنا نحاول السيطرة على الفرع. عُذبنا جميعًا. نتف أحد العناصر شعري شعرة شعرة. ساعات من العذاب. نزفت من كل مكان ينبت فيه الشعر».

«مهجعنا كان تحت الأرض بدورين أو ثلاثة. فيه نحو خمسين معتقلًا. هناك مراوح مفرغات هواء كبيرة تسحب وتجدد الهواء. صوتها مرتفع جدًّا. يحفر في الرؤوس. ضجيج مستمر كما لو أننا داخل مصنع. التحكم بها كان من خلال المهجع نفسه. لكن إغلاقها كان يمكن أنْ يؤدي إلى مشاجرات من أجل إعادة تشغيلها بل وتوسل لأجل ذلك... لم يكن ذلك بسبب حاجتنا فورًا إلى الهواء... لكن لأن سكوت المراوح كان يعني أننا سنسمع فورًا صوت التعذيب والصراخ والسباب والكفر القادمة من غرف التحقيق...».

«دخل البرد مُبكرًا تلك السنة. كان قاسيًا قارصًا للغاية. في العظم. طلبنا من العناصر المزيد من البطانيات. فانتبهوا للأمر وسحبوا منا كل البطانيات..».

«في الانفرادية المواجهة لمهجعنا كان أحمد. تصادف أنَّه اعتُقِل قبل موعد عرسه بفترة بسيطة. ثُم جاء موعد العرس وهو في الانفرادية. كان صوته جميلًا حزينًا. أحيانًا في الليل، وعندما يتأكد من غياب عناصر الأمن، كان يرفع صوته بالغناء. كان صوته جميلًا حزينًا فيه بحة مجروحة. يغني فيبكي ويبكينا جميعًا.

كان يغني دومًا أغنية يقول إنَّ خطيبته تحبها... بنص شباط، بعز البرد.. بوقت الريح وإعصاره.. سبحان الله كيف الورد مفتحلك كل أزراره.. بنص شباط بعز البرد..

بعد سنوات وجدني على الفيس بوك وذكرني بنفسه.

سألته عن خطيبته. فقال إنَّ اعتقاله طال لسنوات،

وأهلها زوجوها لسواه».

شهادة - ١٠ -

قتيبة إدلبي

فرع المخابرات الجوية - فرع الأمن السياسي

«... أصعب ما في السجن هو لا إنسانية التجربة ولا آدميتها.. كبشر نميل إلى محاولة التأقلم مع الظروف من حولنا، لكي تصبح الأمور أسهل... لكن مجرد تعودك وتأقلمك على هذا الوضع ولو قليلًا سيخسرك جزءًا من إنسانيتك.. التحدي الكبير هو استعادة ذلك الجزء عند الخروج من السجن».

«عندما أُخِذت إلى مبنى التحقيق في فرع المخابرات الجوية أُدخِلت أولًا إلى غرفة تبدو كما لو أنَّها غرفة إدارية، قيل لي أنْ أخلع كل ملابسي. ثُم جاء طبيب وقام بفحصي، فحص عضلات زندي وكتفي وظهري وبطني، ثُم قال لهم: ابدؤوا من المرحلة الثالثة.. لم أفهم ماذا يقصد.. ثُم فهمت لاحقًا..».

«لبست ملابسي ثُم تُركت في الممر. كل مَن يمر من العناصر كان يضربني بكعب «الروسية» أو بحذائه العسكري، مع شتائم بالعرض وتهديدات بالاغتصاب. اجتمع بعدها ستة أو سبعة عناصر عليَّ. الطماشة على عيني فلم أكُن قادرًا على الرؤية تمامًا لكنها لم تكُن مُحكمة تمامًا لذا تمكنت من تحديد عددهم من الأحذية حولي. وهناك حدث ما عرفت لاحقًا أنَّه (حفل الاستقبال).. رقص العناصر الدبكة فوقي. وضربوني بعِصِيّ وسياط كانت بأيديهم. كانوا يسألونني أسئلة عادية في أثناء ذلك، الاسم والدراسة وما إلى ذلك، ولكن بعض الأجوبة كانت تستفزهم فيضربون على

نحو أشد، سألوني عن الجامعة التي أدرس فيها، فلما عرفوا أنَّها في درعا وضعوني في الدولاب، وصاروا يدحرجون الدولاب في الممر ويضربونني في أثناء ذلك بينما كان الدولاب يصطدم بالجُدران. كانوا يضحكون أيضًا في أثناء ذلك. سألوني كم من صديق عندي على الفيس بوك، فلما أجبتهم تقريبًا ٧٠٠، جلبوا بساط الريح[١] وربطوني عليه ثُم أخذوا يضربونني على رأسي وقدمي في الوقت نفسه. خلال ذلك كانوا يسكبون ماء باردًا عليَّ، اعتقدت أنَّهم يفعلون ذلك لكيلا تتورم أماكن الضرب في جسدي، لكن لاحقًا، عندما زاد الماء على الأرض وأصبحت محاطًا به، فهمت السبب، إذ أخذوا يكهربون الماء حولي، يبدو أنَّ هذا كان ضمن المرحلة الثالثة التي قدر الطبيب أني سأحتمل البدء بها.. كل ذلك كان ضمن حفل الاستقبال ولم تكُن الأسئلة للتحقيق ولم يكُن هناك من يُدوِّن أجوبتي، كان الغرض منها فقط ترويضي وإرضاخي قبل البدء بالتحقيق الفعلي».

«بعد أربعة أيام تقريبًا أُخذت إلى التحقيق، كان المحقق هو العقيد **** ومعه أربعة أو خمسة عناصر، عندما أنكرت عَلاقتي بأي شيء يتعلق بالثورة هبَّ سهيل الحسن وأخذ يقفز حرفيًّا على رأسي، في هذه المرة لم تكُن هناك أدوات تعذيب كما في حفل الاستقبال، فقط العِصِيُّ والسياط والأحذية العسكرية في أرجل عناصر الأمن، لكنها كانت أشد إيلامًا بكثير، بعد ساعتين من التعذيب كنت قد فقدت القدرة على الألم، وجسدي لم يعد يستجيب لأي شيء، تصورت أني سأموت، وأخذت أقول الشهادة، فقال لي أحدهم: لن نتركك تموت لتكون شهيدًا يا كلب..».

---

(١) بساط الريح: أداة تعذيب معروفة، مؤلفة من قطعتي خشب متصلتين ولكن يمكن طيهما من المنتصف، تربط الأطراف السفلى بالخشبة السفلية، والأيدي بالخشبة العلوية، ثُم تطوى بحيث يصل الرأس بالقدم، ويضرب المعتقل على رأسه وقدميه في الوقت نفسه وهو «مطوي».

«عندما أعادوني للمهجع.. ألقوني على الأرض من الباب. منظري أثار الوجوم عند الموجودين. لم يقترب أحد مني للحظات، ثُم شعرت أنَّ الروح قد عادت لي فاستطعت أنْ أبكي وأنْ أتشاهد، وأخذ كثيرون يبكون معي.. ثُم اقترب مني رجل كبير في السن من داريا يسمونه الأستاذ عبد الرحيم، كان قد عُذب كثيرًا بحيث إنَّ نصف وجهه تورم كما لو أنَّ وجهًا جديدًا قد نما له، أخذ يواسيني ويهون عليَّ.. ثُم عرفت أنَّ وجهًا آخر قد نما لي أنا الآخر، كان أحد ظرفاء المعتقلين من درعا يقول إنَّ النصف الأيسر مني والأيمن من الأستاذ عبد الرحيم يمكن أنْ يشكلا وجهًا كاملًا.. استُشهِد الأستاذ عبد الرحيم في العام التالي في قصف على منزله في داريا».

«في تلك الفترة، كان لدي شعور بالغضب والسخط. كنت أعرف لمَ أنا في هذا المكان. فعلت ما فعلته من تأييد للثورة وأنا أعرف أني قد أُعتَقَل. أتحمل جزءًا من المسؤولية. كنت واعيًا بما أفعل. لكن أغلب المعتقلين لم يكونوا كذلك. أغلبهم كانوا قد اعتُقِلوا وعُذِّبُوا بلا سبب على الإطلاق. أربعة إخوة من درعا كانوا معًا في السيارة، واحد منهم فقط هناك تشابه أسماء معه. يعتقل الأربعة.. ويُعذَّبون... بياع فلافل من المعظمية، لديه محل لبيع الفلافل في داريا، في طريقه اليومي هناك أربعة حواجز، وفي يوم اعتقاله كان مزاجه معكرًا بسبب مشكلة في البيت، عند الحاجز الرابع قال للعناصر لماذا توقفونني الآن وقد أوقفت قبل مائتي متر.. فاعتقلوه... بائع للبطاطا لم يكُن يحمل هويته، اعتُقِل هو وعربة البطاطا، وفي الأيام التالية كل ما يوزع علينا من طعام بطاطا، ينظر لها المسكين بحزن ويجول بنا ونحن نأكلها، ويجلس في الزاوية يبكي رأسماله....».

«من بين المُعتقلين، شاب من درعا يعمل في الإمارات، جاء ليتزوج في إجازته، واعتُقِل على حاجز بسبب تشابه أسماء، وبقيَ في المُعتقل بحيث

فات موعد العرس، في يوم العرس احتفل به المُعتقلون وأقاموا له عراضة، ولكن على (السكيت[1]) كي لا ينتبه عناصر الأمن».

«في اعتقالي الثاني، الذي كان بعد عشرة أيام من الإفراج عني، أُخذت إلى فرع الأمن السياسي. وضعوني في زنزانة انفرادية. كان العذاب مختلفًا جدًّا. وبعد فترة بدأت تنتابني نوبات اختلاج عصبي شديدة، ودخل عليَّ أحد العناصر ووجدني في هذه الحالة، عُرِضْتُ على طبيبٍ فقال لهم الطبيب: إنْ كنتم تحتاجونه في التحقيق فيجب أنْ يخرج من الانفرادية، وإلا سيموت.. كانوا لا يزالون يأملون في الحصول على معلومات.. لذا لم يفضلوا موتي...».

«... مضت تسع سنوات تقريبًا على الأمر. خرجت من الانفرادية منذ مدة طويلة، لكنها لا تزال في داخلي أينما كنت، بطريقة ما. أصبحت جزءًا مني. خرجت من المُعتقل شخصًا مختلفًا عن الشخص الذي دخل. كنت اجتماعيًّا، شديد الاختلاط بالناس، في العيد كنت أتصل بكل الأرقام في دليل هاتف المرحوم والدي لكي أعيّد على أصدقائه، التجربة جعلتني مختلفًا جدًّا، وكثيرًا ما أفضل أنْ أنفرد بنفسي.. في انفراديتي..».

(١) بصمت أو بصوت خافت.

شهادة -١١-

فاروق الخيَّال

فرع الأمن العسكري ٢١٥

«في المُعتقل، كل ما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة شحيحٌ ونادرٌ، مقابل عدد كبير من المُعتقلين. الطعامُ قليلٌ. الهواءُ قليلٌ. المساحةُ المُتسعة لكلِ مُعتقل قليلةٌ؛ بلاطة واحدة (٢٠×٢٠) أو (٢٥×٢٥) للمحظوظين. الدواءُ قليلٌ. الماءُ قليلٌ. كلُ شيءٍ قليلٌ، مقابل عدد كبير من المُعتقلين. هذا يُفعِّل غريزة الصراع من أجل البقاء. يُفعِّلها بأسوأ أشكالها».

«الاعتقال يُخرِج أسوأ ما في البشر. ليس عند السجَّانين فقط. بل أيضًا عند المُعتقلين. لكنه لا يفعَل ذلك مع الجميع بتساوٍ. الغالبية، غريزته تريد منه أنْ ينجو فقط. يريد أنْ يأخذ ما يكفيه للنجاة فقط. لكن هناك مَن يتمادى جدًّا. يتحول إلى وحشٍ كاسر».

«ينتقي المحققون بعض المُعتقلين، ربما لمواصفات جسمانية مُميزة، أو لكونهم معروفين، يعذبونهم في البداية، ثُم يعرضون عليهم (المشاركة) في التحقيق مع بقية المُعتقلين، مقابل مُميزات: ألَّا يتعرض للتعذيب، يأكل أكثر (من الطعام الرديء نفسه). يستطيع الاستحمام. يرتدي ملابس نظيفة.

بعضُ هؤلاء كان يتطرف في دور المُحقق والسجَّان، ويصبح معروفًا بشراسته وقسوته مع المُعتقلين. في فرع الأمن العسكري كان هناك ثلاثة عُرِفوا بهذين الأمرين: الانتقال إلى دور السجَّان، والقسوة فيه.

أحدهم كان يُسمى بطحيش، سمعت به حتى قبل أنْ أدخل المُعتقل. لم يُعذبني بيده. وآخر كان شاب صغير من الغوطة، عمره لا يتجاوز السابعة عشر، والثالث اسمه محمد الحسين، وهذا عذبني شخصيًّا. كان يزايد في الأمر على المُحققين. شتمنا شتائم طائفية كالتي يستعملها بعض المُحققين، رغم أنَّه ينتمي للطائفة نفسها التي تُشتَم. عندما أمر المُحقق بقلعِ أربعةٍ من أظافري، تَدخَّل هو وقال: سيدي اقلعوا أكثر؛ خمسة أو ستة، هذا (يحتمل).

في مرة أخرى أيقظني من النوم وهو يتبول عليَّ، وفي ثالثة أجبرني على ابتلاع (صرصار) حي، لم يأمره أحدٌ بذلك، كانت فكرته.

أحيانًا كان يمُر بنوبات عابرة صحوة ضمير، يُمرر حبة (بطاطا) مسلوقة أو حبة مسكن للألم.

غالبًا هؤلاء يُقتَلون في النهاية من قِبَل المحققين. يتخلصون منهم. ربما لأنَّهم يعرفون أكثر مما هو مسموح به من أسماء وأشكال الضباط. وكانوا يعرفون بالأمر، يعرفون أنَّهم سيُقتَلون. لا أعرف ماذا حدث لمحمد الحسين، لكنهم قتلوا البطحيش. (طقوا رقبته). وكان ذلك بحضور محمد الحسين.

كُنا ننتظر جميعًا الموت، لم يكُن لدي أي تصور أني سأخرج حيًّا من المُعتقل. كل ما كُنا نتمناه وندعو الله به هو أنْ نموت بسرعة. اعتُقِلت مع عشرة شبابٍ آخرين مِمَن كانوا في التنسيقية. استُشهد تسعة منهم تحت التعذيب. نجوت أنا وآخر فقط».

«كان محمد الحسين ومَن معه يتسلون فينا أحيانًا بلعبة اسمها (الوِز). يقف المُعتقل بينهم و(الطماشة) على عينيه، ويتلقى ضربة من أحدهم.

على المُعتقل أنْ يحزر بماذا ضُرِب. ربما بالأخضر الإبراهيمي، أو ببوط عسكري، أو بمِطفَأة السجائر. أو بسكين. مهما كان الجواب، سيُضرَب، إذا كان الجواب خاطئًا فسيُضرَب لأنه أخطأ في الجواب، وإذا كان الجواب صائبًا فسيُضرَب أيضًا لأنَّ جوابه الصحيح يعني أنَّه كان ينظر من تحت الطماشة ويراقب ما يحدث في أثناء تعذيبه».

«تحولت في آخر فترة إلى كتلة تنزف قَيْحًا وصديدًا. كل مكان في جسدي كان مليئًا بجروح مُلتهبة. رائحتي لم تَعُد تُطاق حتى بمعايير المُعتقل، بعض المُعتقلين كانوا ينتظرون موتي ويؤذونني أملًا في تعجيل ذلك، آخرون كانوا يقومون بمساعدتي. في النهاية طلب البعض من السجَّانين نقلي إلى (غرفة العزل) حيث يُحتفظ بالجثث. لا ألومهم الآن وليس عندي أي شيء ضدهم. كنت مصدرًا مُحتملًا للعدوى، وكان صراعًا من أجل البقاء».

«غرفة العزل تقع في القبو، تُجمَع فيها الجثث من كل المهاجع قبل نقلها إلى مكان آخر خارج الفرع، قد تبقى ثلاثة أو أربعة أيام أو أكثر إلى أنْ تأتي شاحنة لأخذها. كذلك يُوضَع فيها المُحتضرون، الأشخاص الذين يتوقع موتهم بسرعة. شاهدت أشخاصًا لا يزالون أحياء، ثُم ماتوا، وشاهدت جثثَ أطفال حديثي الولادة، وأطفالٍ أكبر قليلًا. بعد يومين ساعدني طبيب حمويٌّ[1] من ضمن المُعتقلين، وأخرجني من غرفة العزل».

«اعتُقِلت ثلاث مراتٍ. عُذِّبت بكل أنواع التعذيب المعروفة. في اليوم الأول، وخلال نصف ساعة من وصولي إلى الفرع استخدموا الدولاب معي. في اليوم الثاني الكرسي الألماني. ضُرِبت بالأخضر الإبراهيمي على ظهري وكتفي حتى صرتُ أرى أجزاءً من لحمي تتطاير على الأرض.

---

(١) من مدينة حماة.

قلعوا ثمانية من أظافر يدي، وستة من أظافر قدمي. عُلقت مشبوحًا من الخلف والأمام. كهربوا عضوي التناسلي حتى صرت أتبول دمًا. ضُرِبت بقضيبٍ حديديّ على رأسي أدى إلى كسرٍ في الجمجمة وفقدان للبصر بعيني اليسرى لفترة.

وضعوني في برميل من (براميل المازوت[1]) وأغلقوه. بقيت فيه لمدة أيام. لست متأكدًا من عددها. كانوا يُدخِلون لي خبزًا مُبللًا بالبول من فتحة البرميل العلوية الصغيرة. الفتحة نفسها التي كان الهواء يصلني من خلالها. وكنت أقضي حاجتي في البرميل.

أحرقوني بغاز اللحام (الشينمو[2]). استخدموه على مقعدي وأسفل ظهري والجزء الخلفي العلوي من فخذي. هدفهم كان ألّا أستطيع الجلوس بسهولة، لأنّنا في المهجع كان يجب أنْ نجلس بحيث يكون المقعد على الأرض، ونلمُّ رُكَبنا على بعضها، مع ما حدث لي كان من الصعب جدًّا الجلوس بهذه الطريقة، المقعد مُحترِق، والجلد في الجزء العلوي من الفخذ يلتصق بالسفلي بسبب طريقة ضم الرُّكبة. انسلخ جلدي كاملًا لاحقًا».

«كل هذا حدث معي. لكن الحدث الذي لا يمكن أنْ أنساه هو ما تعرضت له فتاة أمامي. وأعتقد أنَّهم تعمدوا أنْ أرى كل شيء، في العادة كان كل التحقيق يحدث بوجود (طماشة) على عيني. لكنهم في هذه المرة تحديدًا أزالوها، كانوا يريدون أنْ يحدث كل شيء أمامي».

---

(١) المازوت: زيت التدفئة المستخدم في سوريا، قريب من الديزل.

(٢) غاز اللحام: مجموعة من الغازات تستعمل مع غاز الأوكسجين في صهر سلك اللحام، مثل الأسيتيلين والبروبين.

«كنت رياضيًّا طيلة حياتي. تدربت على الفنون القتالية منذ صغري. وكنت حريصًا على التدريب المستمر، مما أكسب عضلاتي قوة وبروزًا. كان هذا مُستفزًّا للسجَّانين منذ اللحظة الأولى. عندما أمرونا بخلع ثيابنا جميعًا، أول دخولنا للفرع، وفي اللحظة التي أزلت فيها ثيابي عني، تركوا الكل واجتمعوا على ضربي أنا لهذا السبب لا أعتقد أنَّ ما حدث لهذه الفتاة أمامي كان بالصُدفة. أعتقد أنَّهم تعمدوا ذلك. تعمدوا أنْ أرى كل شيء بلا طماشة هذه المرة. المرة الوحيدة التي رأيت فيها المحقق (سومر). كانوا يريدون كسر (أبو عنتر[1]) الذي رأوه في عضلاتي. القبضاي الشامي».

«كانت قبلي في غرفة التحقيق. دخلت الغرفة ورأيتها. كانت ترتدي مانطو قُطنيًّا رماديًّا، وحجابًا أبيض. شامية المظهر واللهجة بالتأكيد. أجبروها على التدخين. رفضت أولًا، ثُم هددوها وأجبروها فأخذت نَفَسًا من سيجارة واختنقت به. في الوقت ذاته علقوني مشبوحًا أمامها، وضُرِبت حتى غِبت عن الوعي. صحوت على ارتطامي بالأرض. أفلتوني من التعليق كي أستيقظ. شاهدت عسكريًّا يكمل اغتصابه لها. كانت مُمددة على الأرض. بلا حراكٍ. مثل جثة. تقول شيئًا غير مفهوم كما كُنا نفعل بعد نوبة تعذيب طويلة. كانت عذراء، تنزف من عورتها. ومن فمها أيضًا. وكنت مُمددًا أنا أيضًا مثل جثة. غير بعيد عنها. للحظات التقت عيناي بعينيها، رأيت فيهما نظرة انكسار لا يُمكن لي أنْ أنساها ما حييت. كل ما مرَّ بي من تعذيب لم يكُن يشبه هذا. تمنيت لو أني مت قبل هذه النظرة. كانوا قد هددوني بقلع عيني قبل ذلك. تلك اللحظة تمنيت لو أنَّهم فعلوا، كي لا أرى ما رأيت في نظرتها التي لا تزال تطاردني.

---

(١) أبو عنتر: شخصية القبضاي في الحارة الشامية، مفتول العضلات الشهم.

شعوري بالعجز تجاه هذه الفتاة، بنت مدينتي، كان أقسى من أي تعذيب مرَّ بي. أقسى من الحرق، من الكرسي الألماني، من الأخضر الإبراهيمي. مررت بكل شيء وشُفيت منه، إلَّا من هذه النظرة».

«بحثت عنها طويلاً فيما بعد. أردت أنْ أصل إليها. لكني حتى اسمها لا أعرفه. بحثت ولا أزال أبحث. أريد أنْ أتزوج منها. لم أتزوج حتى الآن. لو وجدتها وكانت عزباء فسأتقدم لها، وأتمنى أنْ تقبل بي».

«كانوا يريدون كسر (أبو عنتر). ونجحوا في ذلك. انطويت بعد هذه الحادثة. لم أعد أبث القوة والأمل كما كنت أفعل قبل ذلك. تراجعت إلى داخل نفسي، ولم أخرج منها إلَّا بعد خروجي من المُعتقل».

«كنت في السنة الأخيرة من الجامعة يوم اعتُقلت آخر مرة. الهندسة. عشقي منذ الطفولة. رجعت إلى دراستها في جامعة ألمانية. وأنا على وشك التخرج».

«لم أنسَ ولن أنسى. ولا أريد أنْ أنسى. وأتمنى ألَّا ينسى أحدٌ. النسيان خيانة، والذاكرة تمدُّني بحقدٍ. وحقدي يمنحني الأمل».

-٢٠-

اختفت نور في اليوم التالي. فجأة، آخر ظهور لها في الواتس آب كان في الثانية عشر ظهرًا يوم الأحد، ليلة الأول من رمضان. لا رد على أي رسالة. بل لا تصل إليها أي رسالة. فكرت برعب أنَّها ربما تكون قد حظرتني. بحثت في غوغل عن علامات الحظر. صورتها لا تزال موجودة، و«آخر ظهور» كذلك. لم تحظرني، الحمد لله. على الأقل لم تحظرني. لكن أين هي؟ الأمر ذاته كان مع الفايبر. ومع رسائل الماسنجر على الفيس بوك.

قضيت أول يوم رمضان وعيني على الهاتف طيلة الوقت. أتحدث مع المرضى وأرد على أسئلتهم وأسجل الملاحظات ولكن عيني على الهاتف. أفتحه كل خمس دقائق أو أقل. لم أكُن أنتظر ردًا من نور. كنت أنتظر فقط أنْ تتحول الإشارة المفردة في الرسائل إلى إشارة مزدوجة لكي أعلم أنَّ نور قد فتحت هاتفها واستلمت الرسائل. أكثر من ١٠ رسائل بين السلام والسؤال عنها ومباركات رمضان التي أرسلتُها فقط لاختبار الوصول. أي حجة لإرسال الرسائل.

مر اليوم الأول دون تغير في وضع الإشارة المفردة. اليوم الثاني مر أكثر من منتصفه دون تغيير. قررت أنْ أذهب إلى مركز رعاية اللاجئين عسى أنْ أجد أي معلومة مفيدة. ثُم تذكرت أنَّ عليَّ الذهاب بكل الأحوال. أنا متطوع وعليَّ أنْ أسجل في جدول وساعات محددة.

ذهبت إلى المركز بعد المشفى وسألت عن نور ولم أحظَ بجواب. رأيت فرح ورأتني وتجاهلتني مجددًا، ذهبت لها وباركت لها على رمضان

فردت بنظرة «ماذا تريد»؟ فسألتها إنْ كانت تعرف أين نور، فقالت: «لا» مقتضبة واضحة جدًّا. بعبارة أخرى: إياك أنْ تقترب مني ثانية.

اليوم الثاني من رمضان مر على نحو أصعب من الأول. عيني على الهاتف. أغلب الرسائل من أمي التي صعّدت عملياتها في رمضان، كما تفعل كل رمضان عادةً. رسائل أدعية ومباركات ومقاطع وعظٍ لدعاتها المفضلين (النابلسي، محمد خير الشعال). حديث عن وفاة داعية شامي له مواعظ فكاهية، لم أكُن أعرف اسمه لكني تذكرته عندما شاهدته... صور من إفطار يوم أمس الذي انتصرت فيه أمي على زوجة مأمون وأجبرتها على الإفطار عندها وليس عند أهلها، وانتصرت فيه أيضًا على ضرتها لأنَّ أبي حضر أيضًا، اليوم ستفطر وحدها. مع القليل من التذمر بسبب ذلك. لا بأس. المُهم هو اليوم الأول. وصفات لطبخات شامية رمضانية. وسؤال متكرر لي إنْ كنت قد أعددت الـ«حراق أصبعو»[1] أمس حسب الوصفة التي أرسلتها إليَّ. ستبكي أمي لو أخبرتها أني أفطرت يومي الأول من رمضان على علبة لانشون، لم أكُن في أي مزاج لبذل أي مجهود في المطبخ. اليوم قد أمر على مطعم (١٠٠١ فلافل) القريب من بيتي وأشتري منه فطوري. المطعم الآخر القريب أفضل لكن حذرتني منه نور. قالت إنَّه يضع أعلامًا لحزب الله. لكن أين هي نور؟ أين اختفت؟ لم أكُن أعرف عنوان بيتها بالضبط، وإلا ذهبت دون تردد. أو بقليل منه. لكن كنت سأذهب.

وجدت نفسي أخرج بعد الإفطار وأذهب إلى الحي الذي تسكن فيه نور. نويكولن. ليس بعيدًا عن الحي العربي. لا أعرف أي مبنى بالضبط ولا أي شقة ولكنها ذكرت مرة أنَّها تسكن في مبنى فيه صيدلية روزيغر

(١) حراق أصبعو: أكلة شامية مكونة من العدس والعجين والبصل والزيت.

(Rossegger Apotheke)، بحثت عنها ووجدتها في ١٤٤ شارع زونن آلي. ذهبت إلى العنوان وتسكعت أمام البناء على غير هدى. رحت وجئت أمام المبنى مائة مرة. ماذا لو خرجت نور الآن وسألتني عما أفعله هنا؟ سأقول لها إني جئت لأشتري مسكنَ «دولورمين إكسترا»[1] من الصيدلية. نعم جئت من كرويتبيرغ وركبت حافلتين لأشتري الدولورمين إكسترا. ظهري يؤلمني. لكن الصيدلية مغلقة أصلًا. زكاتك هل أجد عندك دولورمين؟

قلت لنفسي أتصرف كما يفعل المراهقون. وسألت نفسي مائة مرة أين هي نور، هل تتعمد الاختفاء؟ هل هذا مفهومها عن الدلال؟ هل حدث لها مكروه؟ هل هي مريضة؟ هل أذهب إلى الشرطة؟! ماذا أخبرهم؟ أنا لا أعرف عنوانها أصلًا. وجدت نفسي أفكر باحتمالية أنْ يكون أعوان النظام قد اختطفوها أو أصابوها بالأذى.

وبخت نفسي على هذا التفكير وقلت إني أصبحت أفكر مثلهم. ثُم عدت ووبخت نفسي مجددًا: ما المانع في أنْ يكون أعوان النظام قد آذوا نور بالفعل؟ عدت إلى البيت وأنا أقول لنفسي إني في حالة تعلق غير صحي بنور. ثُم قلت إنَّ عليَّ أنْ أواجه نفسي.

تغيير اسم ما أشعر به إلى «تعلق غير صحي» و«انجذاب» وإيجاد تفسيرات نفسية بجذور عميقة في الطفولة لن يغير من حقيقة هذه المشاعر. الناس «العادية» ستسمي هذه المشاعر باسمها الأكثر شعبية: حب.

أنا أحب نور. بغض النظر عن الأسباب. أنا أحبها. عليَّ أنْ أعترف بهذا لنفسي أولًا، ثُم أعترف لها. أعترف لها؟ حقًا؟ هل أخاطر بخسارتي

---

(١) الاسم التجاري لنوع من أنواع البروفين المسكنة للألم الرائجة في ألمانيا.

لها؟ ربما أنْ أخسرها الآن أفضل من أنْ أخسرها لاحقًا، عندما أكون قد غرقت أكثر. الآن أنا على البر. حقًا؟ كل هذا ولا أزال على البر. ما هو الغرق إذن؟

حسمت الأمر. لو ظهرت نور غدًا، فسأعترف لها بمشاعري نحوها. ولو لم تظهر غدًا حتى وقت الإفطار، سأنساها. سأحاول أنْ أنساها. سأحذف رقمها وأعود إلى حياتي كما كانت قبل أنْ ينتحر أنس. ربما أبحث عن مشفى آخر أيضًا بعيدًا عن الدكتور «هاينز» الذي يريد أنْ يورطني في بحث يحرمني من رؤية أهلي طيلة العمر. سأنساها. نعم، إنْ لم تظهر غدًا سأنساها.

في اليوم التالي، بينما كنت أتفقد هاتفي ربما للمرة المائة، قرابة منتصف النهار، وجدت كل رسائلي وقد أصبحت أمامها علامة مزدوجة. نور ظهرت مجددًا. هذه علامة. رسالة ربانية. ثبتت الرؤيا الآن. عليَّ أنْ أعترف بمشاعري لها حسب الخطة. ثُم أرسلت رسالة ترد فيها على تهنئتي برمضان.

– ينعاد عليك بالخير، تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال.

هكذا إذن، كما لو أنَّها لم تختفِ لأربعة أيامٍ. أم أنَّ هذا عادي؟ سألتها: «في الجامعة»؟

ردت: نعم، وبعدها في المركز. سأتناول إفطاري هناك.

لا أعرف كيف مر بقية اليوم. أرجو أنْ لا أكون قد ارتكبت أخطاء طبية لا يمكن تصليحها. هرعت إلى المركز فور انتهاء العمل. دخلت إلى المكتب حيث كانت تجلس وتنجز بعض الأعمال المكتبية. وقفت أمامها وقلت بصوت اكتشفت بعدها أنَّه كان مرتفعًا «أين كنتِ»؟

رفعت حاجبيها مستغربة. والتفتت حولها لترى إنْ كان هناك مَن انتبه لصوتي.

كررت سؤالي: أين كنتِ؟

هذه المرة كنت أهدأ. كان صوتي غاضبًا في المرة الأولى، محاسبًا. كصوت أخ أو أب... أو زوج.

هذه المرة كان صوتي قلقًا فحسب.

هزت رأسها باستنكار وخيَّل لي أنَّها قالت شيئًا لنفسها وتظاهرت بأنَّها ترتب الأوراق أمامها.

قلت مجددًا «أين كنتِ»؟ هذه المرة قلتها بعتب ورجاء.

نظرت لي وقالت: أنت تقولها كل مرة على نحو أفضل من سابقتها. كم طريقة لديك؟

لا أزال أستطيع أنْ أقولها بطرق كثيرة. بحب. بغيرة. بحزن. بلؤم. باتهام. بتوسل. بشك. يمكن لسؤال مثل هذا أنْ يقال على عدد المشاعر التي يمكن لقلب إنسان أنْ يحتويها.

- عمومًا، الجواب مكون من شقين، مهما كررت سؤالك، ومهما رفعت صوتك أو غيرت من نبرته، الشق الأول: هذا أمر لا يعنيك يا يزن، ليس من حقك أنْ تسألني هذا السؤال أصلًا، بغض النظر عن طريقة السؤال. لا توجد عَلاقة بيننا تبيح لك هذا السؤال. على فرض أنَّ هناك علاقة أصلًا تبيح هذه الطريقة.

أستحق وأكثر.

- والشق الثاني؟

- الشق الثاني ببساطة لم أكُن في أي مكان. كنت في البيت، لم تسمع قط بالصيام عن وسائل التواصل، digital detoxification؟ شيء شائع جدًّا هذه الأيام ومريح للأعصاب جدًّا. جربه.

لا أصدق.

- سمعت به، ولكن عادة الناس التي تقوم بهذا الصيام تعلن عن ذلك كي لا يقلق الآخرون.

- نعم أنت محق، كان عليَّ أنْ أخبرك، لا تؤاخذني، لن يتكرر الأمر.

قالت وهي تحمل ملفًا من على المكتب وتتخطاني متجهة نحو الخزانة خلفي.

«نور». قلت بصوت هادئ.

لم ترد.

- أريد أنْ أتقدم لطلب يدك.

قلت بالهدوء نفسه.

التفتت وقد بانت عليها الدهشة، ليس الغضب. دهشة فقط.

- يزن، هل الصيام يؤثر على مستوى السكر في دمك لهذه الدرجة؟

الجملة ساخرة ولكنها قالتها بتهذيب.

- لا أمزح يا نور، أريد أنْ أتقدم لطلب يدك. أحببت إخبارك قبل أنْ أتحدث مع أهلي.

- أحببت أنْ تخبرني؟ فقط من باب العلم بالشيء. باعتبار أنَّ الأمر تقريبًا لا يعنيني وأنت أخذت القرار وانتهى، لم يبقَ سوى إعلامي؟ شكرًا لك Sehr net von dir[1]!

---

(١) كم هو لطيف منك أن تقول هذا.

- لا، ليس هكذا، لكني لا أعرف أي طريقة أخرى، لا أعرف كيف يمكن أنْ أعبر لك عن اهتمامي ورغبتي في القرب منك، خبرتي في هذا المجال تحت الصفر.

«هذا واضح، لا تحتاج لقوله». قالت وهي تحني رأسها.

- نعم هذا أنا، لست كاملًا بل مليئًا بالأخطاء، لكني جاد، وأريد أنْ أتقدم لك.

سكتت قليلًا ثُم سألتني «لماذا»؟

- لماذا عن ماذا؟

- لماذا تريد أنْ تتقدم لطلب يدي؟

- كما يريد أي شاب أنْ يتقدم لطلب يد فتاة معجب بها، لكي يتزوج منها.

- هل تريد أنْ تتزوجني لكي يصبح لك الحق في أنْ تسألني (أين كنت؟) بالطريقة التي تناسبك؟

- لا، أقسم بالله أني أكِن لك مشاعر منذ أول مرة شاهدتك فيها. مشاعر إعجاب منذ البداية... ثُم مع الوقت تطورت هذه المشاعر، مع اختفائك هذه الأيام الأربعة تأكدت من حقيقة مشاعري. أنا أحبك يا نور، وأنا آسف جدًّا لأني ربما لم أعبر لك عن مشاعري بطريقة أوضح طيلة هذه المدة، أو ربما وضحت أكثر مما يجب، لا أعرف أصلًا ما الذي وصلك.

سكتت وزمت شفتيها وأخذت نفسًا كما لو أنَّها ستقول شيئًا مُهمًّا:

- اسمع يا يزن، أنت شاب محترم وممتاز، وألف فتاة أحسن مني تتمناك.

قلت في نفسي: هذه المقدمة تذهب إلى (ولكني أحبك وأعزك مثل أخي بالضبط)... عليَّ أنْ أفعل شيئًا. قاطعتها:

- نور لا تكملي أرجوك.

- لا أكمل ماذا؟

- أعرف ماذا ستقولين.. ستقولين إني بالنسبة إليك أخ عزيز وهذا الكلام... لا تكمليه.. أرجوك فكري بالأمر قبل الرد الآن.. ربما أسلوبي لم يكُن جيدًا.. ربما مستوى السكر في دمك الآن غير مناسب للرد.. فكري وخذي وقتك ثُم ردي.

حاولت أنْ تقول شيئًا ولكني أسرعت بمقاطعتها مرة أخرى:

- أرجوك، لا تردي الآن.

- حسنًا، سأقول ما أريد أنْ أقوله الآن لاحقًا، لا أتوقع أنَّ قراري سيتأثر بمستوى السكر.. بكل الأحوال وقت الإفطار اقترب.

- عظيم. أتركك إذن لألحق أنا أيضًا على الإفطار بأي مطعم قريب.

- ابقَ إنْ أحببت. الصبايا جايبين كبة مشوية وشيش برك.[1]

- هذه دعوة حقيقية؟ (أم الجامع أدفالك)[2]؟

---

(١) شيش برك أو شيشبرك أو آذان الشايب: أكلة معروفة أصلها من أوزبكستان مكونة من عجين ولحم ولبن.

(٢) جزء من المثل المعروف: تنام عندنا أم الجامع أدفأ لك، والمعنى أنَّ العزومة تكون غير جادة، (عزومة مراكبية) كما يقال.

- حقيقية، لكن كُن لطيفًا مع فرح ورنيم. إياك أنْ تتصرف مثل المرة الماضية.

- قلبها أسود فرح، سألتها عنك وتصرفت كما لو أنَّها لا تعرفك.

- براڤو عليها، أنت تستحق.

ما علينا. شيش برك وكبة مشوية.. ألا يعني هذا أنَّ هناك أملًا.

-٢١-

في اليوم التالي تجنبت رؤية نور أو الاتصال بها. لم أكُن أريد أنْ أرى علامة للرفض على وجهها، أو على رسائلها. أردت أنْ يأخذ الأمر وقتًا أكبر. أرسلت إليَّ هي مساءً دعوة لحضور إفطار عام في جامع دار السلام في نويكولن. شكرتها. لا أعرف إنْ كانت هذه الدعوة تعني أي شيء، سلبي أو إيجابي.

هل الفتاة التي تنوي أنْ ترفض شخصًا طلب يدها تراسله في أمور أخرى عادية؟ أم أنَّها تقاطعه تمامًا كتمهيد لخبر الرفض؟ منطقيًّا، إذا كانت تنوي الرفض، تقاطعه.

لكن ماذا لو أنَّها تريد أنْ تبقيه في منطقة الصداقة - كما هو منتشر اليوم؟ ماذا لو أنَّ الأمر لم يكُن له عَلاقة وثيقة بالمنطق؟

ماذا لو أنَّ الأمر أقرب إلى «تعا ولا تجي»؟ نقول لا ونتصرف نعم.

لا أعرف. لكن حتى لو كان الأمر هكذا. حتى لو كان الأمر وضعي في منطقة الصداقة، هذا أفضل من لا.

غاضبة الملامح عاقدة الحاجبين. يبقى هناك أمل. أو هكذا يطيب لي أنْ أوهم نفسي.

مساءً أرسلت إليَّ نور رابطًا من اليوتيوب، مع عبارة: عاجل، للنشر على أوسع نطاق.

خمنت أنَّ الرسالة عامة، وأنَّها ربما تكون دعوة للتبرع أو شيء من هذا القبيل. كنت متعبًا جدًّا، فلم أفتح الرابط، واستغرقت في النوم فور أنْ وضعت رأسي على الوسادة.

صباحًا كانت هناك رسائل كثيرة تحمل الرابط نفسه. في المترو اكتشفت أنَّ الروابط كلها تحمل الفيلم الذي أنجزه أنس. لقد نُشِر ليلة أمس على اليوتيوب.

كانت هناك رسائل من أمي ومن شقيقة أنس وزوجها، رسالة من كنان بعلامة النصر، إضافة إلى رسائل من أصدقاء كثيرين.

من الواضح أنَّ هناك شيئًا في الفيلم المنشور عن أنس نفسه، أمي سألتني إنْ كنت أعرف شيئًا عن الموضوع. شقيقة أنس كتبت لي تسألني: هل ما ورد في الفيلم صحيح؟ زوج شقيقة أنس كتب لي: شفت؟ بان كذبك يا دكتور يزن!

لم أستطع أنْ أفهم ما الذي يتحدثون عنه. كانوا يفترضون جميعًا أني شاهدت الفيلم ويكتبون لي على هذا الأساس.

حاولت أنْ أسترق لحظات للمشاهدة ثُم عدلت عن ذلك. أحتاج أنْ أركز في عملي الآن، ربما يشوشني الفيلم. بل من المؤكد أنَّه سيشوشني.

أرسلت إلى نور: ماذا حدث؟ كيف نُشِر الفيلم.

ردت بوجه «متأمل» ثُم كتبت: علمي علمك. المهم أنَّه نُشِر.

تكذب. واثق أنَّها تكذب. تختفي لأيام ثُم يظهر الفيلم فجأة؟ كيف يكون هذا الأمر صُدفة؟ ما العَلاقة بين الأمرين. لا أعرف. لكن هناك عَلاقة. حدسي يقول إنَّ هناك عَلاقة.

فتحت حساب اليوتيوب الذي أطلق عليه الفيلم. اسم الحساب: أنس خزنجي، الحقيقة تبقى.

ڤيديو واحد حمل قبل ٨ ساعات. عدد المشاهدات: نحو عشرة آلافٍ.

أما العنوان فقد كان صادمًا.

«بيت خالتي: الأسوأ من أوشفيتز»[1].

(١) أوشفيتز: أكبر وأضخم معسكرات الإبادة النازية في پولندا، قُتل فيه أكثر من مليون شخصٍ معظمهم يهود.

كلمة مكتوبة تتصدر الفيلم

في السابع عشر من شباط/ فبراير ٢٠١٩ عُثر على أنس خزنجي، مخرج الفيلم الذي سترونه الآن، مشنوقًا في شقته في العاصمة الألمانية برلين.

تقرير الشرطة الألمانية نفى وجود شبهة جنائية ورجح حالة الانتحار.

رحل أنس خزنجي، ولكنه ترك لنا هذا الفيلم الذي جمع فيه شهادات ناجين من مُعتقلات النظام السوري، كرَّس أنس السنوات الأخيرة من حياته لجمع هذه الشهادات التي يريد البعض أنْ يمحوها إلى الأبد.

لا نعرف ماذا حدث لأنس في شقته، لكننا نعرف أنَّه ساهم في إزاحة الأقفال التي وضعها السفاحون على الأفواه.. حمل شهادات الناجين على ظهره.. ووضعها لنا في هذا الفيلم.

هذا الفيلم شهادة أنس على ما حدث. لم يطلب شيئًا مقابل ذلك. لقد مات. كل ما يريده منا هو أنْ نشاهد هذا الفيلم، كي لا يضيع صوت الحقيقة.

المشهد الأول في الفيلم

(مشهد افتتاحي يضم صورًا أرشيفية لأدولف هتلر، مبنى الرايخشتاغ وعليه الصليب المعقوف، جموع النازيين وهتلر يمد يده مُحيًا لهم. مشاهد من الحرب العالمية الثانية، وتقدم ألمانيا النازية في بداية الحرب، صور أخرى لرودولف هيس -نائب هتلر- وونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني).

تعليق بصوت أنس:

في عام ١٩٤١، بعد عامين من بدء الحرب العالمية الثانية، قدم هتلر عرضًا للسلام مع بريطانيا بواسطة مبعوث رفيع المستوى، هو رودولف هيس الذي كان نائبًا شخصيًّا له.

العرض كان يتضمن ترك هتلر لأوروبا الغربية (أي الانسحاب من فرنسا خصوصًا) مقابل عدم تدخل الحلفاء في تقدم هتلر شرقًا نحو الاتحاد السوفيتي.

لو أنَّ ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وافق على قبول العرض، لسار التاريخ في اتجاه مختلف تمامًا. بغض النظر عن قدرة هتلر على الانتصار على الاتحاد السوفيتي، إلا أنَّ صمود الرايخ الثالث في الحكم في ألمانيا وشرق أوروبا، كان سيصبح احتمالاً واردًا.

ولو أنَّ ذلك حدث، لما عرفنا أشياء كثيرة عن حقبة الحكم النازي وما حدث فيها.. فالمنتصر يعامل التاريخ كما لو كان غنيمة له، يكتبه كما يريد وكما يشاء.

ولو أنَّ هتلر انتصر، أو تمكن على الأقل من الاحتفاظ بألمانيا وبشرق أوروبا، فإنَّ أشياء كثيرة ما كُنا سنعرفها اليوم أو نسمع عنها بالأساس. ما كُنا سنسمع بشيء اسمه الهولوكوست. أو بمكان اسمه أوشفيتز.

(مشاهد وثائقية من المحرقة، المئات من اليهود يقفون أمام الكاميرات بزي السجن، أشبه بهياكل عظمية على قيد الحياة، قطارات مليئة بالبشر ينقلون كدواب، أكوام من الجثث العارية بارزة العظام، ودخان متصاعد من غرف الغاز).

الهولوكوست، أو المحرقة، كانت عملية إبادة منظمة ليهود أوروبا، بدأت أولًا عبر إجراءات لعزل ومقاطعة اليهود مع وصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣ عبر انتخابات ديمقراطية، وصولًا إلى ما يعرف بـ«الحل الأخير للقضية اليهودية» الذي نفذ ابتداء من عام ١٩٤٢ إلى نهاية الرايخ الثالث في ١٩٤٥.

الناتج النهائي لهذه العملية كان أرقامًا لا تصدق، قرابة ستة ملايين يهودي (أغلبهم من يهود أوروبا الشرقية) ماتوا في هذه العملية المنظمة. لم يكُن اليهود وحدهم الضحايا، فقد تعرض مئات الآلاف من الغجر، والشيوعيين، وجماعة «شهود يهوه»[1]، وأصحاب الأمراض المستعصية، والمتأخرين عقليًّا وأصحاب الميول الجنسية المختلفة، إلى إبادة مماثلة في معسكرات الاعتقال نفسها وبالطريقة نفسها، لكن الاستهداف العرقي الوحيد الذي كان منظمًا على نطاق واسع كان لليهود، كل من يمتلك ٣ أجداد يهود أو أكثر من طرفي الأم والأب كان يساق إلى المحرقة. الآخرون

---

(١) شهود يهوه: طائفة مسيحية نشأت في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وانتشرت في أماكن مختلفة بوسائل تبشيرية، لا تعترف الطائفة بالطوائف الأخرى وتخالفها في معتقداتها، وتقابل من قبل كثيرين بالرفض والازدراء.

الذين استهدفوا كانوا ضمن عملية تنظيف للأعراق التي ينتمون لها.

أما اليهود فقد استهدفوا كعرق. الهدف كان إبادتهم كعرق. حسب العقيدة النازية: لم يكونوا بشرًا.

(مشاهد من الصحافة العالمية تقدم صورة إيجابية لهتلر خاصة في الثلاثينيات، مجلة التايم ومستشار هتلر غوبلز على غلافها، صحيفة الكريستيان ساينس مونيتور، صحيفة النيويورك هيرالد تريبيون، النيويورك تايمز، الديلي ميرور البريطانية وهتلر على صفحتها الأولى وعبارة «فلنكن أصدقاء»).

هل كان العالم لا يعرف ما الذي يحدث في ألمانيا النازية؟ لا. كان يعرف. حتى في مقالات الثناء على هتلر الذي كان «يعطي ضوءًا من الأمل لشعب غارق في اليأس» كما قال تقرير الكريستيان ساينس مونيتور، كانت هناك إشارات إلى وجود انتهاكات تمارَس ضد اليهود، وحديث عن طردهم من الوظائف الحكومية، عن تعقيمهم لغرض عدم الإنجاب، لكن هذا كان مجرد شيء ثانوي، سلبية تذكر ضمن مجموعة من الإيجابيات... النيويورك تايمز وصفت وصول هتلر إلى السلطة بأنَّه كان انتصارًا للاعتدال. النيويورك هيرالد تريبيون -التي كانت تعتبر من أهم الصحف الأمريكية في تغطيتها للشأن الدولي، والثانية على صعيد الانتشار اليومي بعد النيويورك تايمز- قالت إنَّ الاعتداءات على اليهود كانت محزنة، لكن أغلب القصص الواردة مجرد مبالغات أو لا أساس لها من الصحة. التايمز قالت: «العنف في ألمانيا انتهى، وسيأتي عصر الرخاء والسعادة».

في استطلاع أجرته مؤسسة غالوب عام ١٩٣٨ كان أكثر من نصف الأمريكيين يعتقدون أنَّ ما يحدث لليهود كان «جزئيًّا نتيجة لأفعالهم»،

و١١٪ كانوا يعتقدون أنَّ ذلك كان «كليًّا نتيجة لأفعالهم». ورغم أنَّ أغلبية الأمريكيين كانوا ضد الإجراءات النازية ضد اليهود، فإنَّ الأغلبية أيضًا كانت ترفض إفساح المجال لليهود الهاربين من ألمانيا بالقدوم إلى الولايات المتحدة. فقط ٢١٪ كانوا مع ذلك.

حتى بعد اندلاع الحرب، بل وحتى بدء الهولوكوست بما عرف بـ«الحل الأخير» (الذي كان يعني الإبادة حرفيًّا) كان هناك مَن لا يزال لا يصدق ما يحدث. في استطلاع أجرته المؤسسة نفسها عام ١٩٤٣، عندما كانت أخبار الهولوكوست قد بدأت تتضح أكثر فأكثر، أقل من نصف الأمريكيين كان يصدق هذه الأخبار، أكثر من ربعهم كان يعتبرها مجرد «إشاعات». في أواخر عام ١٩٤٤، وكان أكثر من خمسة ملايين من اليهود قد قضوا في المحرقة، فإنَّ غالبية الأمريكيين لم يكونوا يصدقون بأنَّ عدد الضحايا يمكن أنْ يكون أكثر من مائة ألف، أو حتى أقل من هذا الرقم.

قوات الحلفاء، قبل عامين من انتهاء الحرب، كانت لديها تقارير تفصيلية عما يحدث في مراكز الاعتقال النازية، لكنها آثرت أنْ لا تتحدث عن الأمر.

العالم لم يكُن يجهل ما يحدث. لكنه كان يتجاهل. ينظر إلى الجهة الأخرى. لديه أمور أكثر أهمية...

(صورة لمراسل بريطاني يعمل للبي بي سي، ريتشارد ديمبلبي، مع صور ملتقطة من معسكر بيسلين).

في الخامس عشر من إبريل ١٩٤٥، وصلت قوات الحلفاء إلى معسكر بيسلين في شمال ألمانيا، قبل قرابة أسبوعين من سقوط برلين.

كان البريطاني ريتشارد ديمبلبي مراسل البي بي سي هو أول إعلامي يدخل إلى معسكر من معسكرات الاعتقال النازية. كانت هذه أول مرة يقف فيها الإعلام وجهًا لوجه مع تفاصيل التفاصيل لما كان يحدث.

لم يكُن الأمر هنا تقارير مسربة. أخبار تحتمل الكذب والصدق حسب مصداقية الشهود. الآن كل شيء كان أمام ديمبلبي. آلاف الهياكل العظمية المحتضرة التي لم تستطع أصلًا الحركة عندما فُتحت الأبواب. لا حركة ولا اكتراث أصلًا للأمر. آلاف الجثث التي لم تُدفَن بعد. أفران الحرق التي تتسع فتحتها لثلاثة أشخاص: رجلان وامرأة، يُحرَقون أحياء، وبعد دقائق، يُلقَى ثلاثة آخرون، وهكذا.

سأل ديمبلبي مسؤول الحرق الذي كان قد أُسِر من قبل الحلفاء: كم شخصًا أدخلت إلى الفرن؟ نظر قليلًا كما لو كان يفكر، ثُم قال: لا أذكر.

في أكوام الجثث كانت هناك جثث مفتوحة من الجانب بشق جراحي، سأل ديمبلبي الناجين عنها. بعض الأطباء من المُعتقلين كانوا يفتحون جثث الموتى ليأكلوا اللحم الوحيد المتوفر في الجثة: الكبد. كانوا يفعلون ذلك للبقاء على قيد الحياة.

استغرق التقرير ١١ دقيقة صوتية من الرعب والغضب. رفضت البي بي سي إذاعة التقرير بسبب محتواه عدة مرات. لم تذعه إلا بعد أنْ هدد ديمبلبي بالاستقالة.

أشاحت البشرية وجهها بعيدًا عما يحدث لفترة طويلة. وكانت ستستمر بذلك لو أنَّ هتلر بقي في السلطة. كل ما يقال عن معسكرات الإبادة والمحرقة سيكون مجرد «إشاعات»، «مبالغات»، «تلفيقات من الأعداء»... إذا كان الأمر حتى الآن يجد من ينكره ويقلل من حجمه، فكيف لو أنَّ هتلر -أو الحزب النازي بواجهة جديدة- بقيَ في السلطة عبر اتفاق سلام يعيد تأهيله وضمه إلى المجتمع الدولي؟

لو حدث ذلك، لما كنا سنعرف عن بيسلين.. أو عشرات معسكرات الاعتقال الأخرى، كلمة الهولوكوست كانت ستبقى كلمة إغريقية لا استعمال معاصر لها، وأوشفيتز لن يثير القشعريرة والرعب كما يفعل الآن.

(صور معاصرة لمعسكر أوشفيتز من الخارج، مع صور من الجو عبر غوغل).

من بعيد قد يبدو هذا المكان مثل مصنع، أو مدرسة داخلية، أو حتى مشفى. ثمَّة مساحات خضراء حوله تغري بنزهات قصيرة تقوم بها العوائل، تحضر فيها بعض الأطعمة الخفيفة ويلعب فيها الأطفال.

لو أنَّ التاريخ سار باتجاه آخر، لكان هذا كل ما نعرفه عن المكان فعلًا. ربما سيُقال إنَّه كان سجنًا لفترة ما، أو «إصلاحية» أو معسكرًا للأعمال الحربية.

(صور أرشيفية من أوشفيتز - أفران الغاز - الجثث - قطارات الموت).

لكن لأنَّ هتلر هزم، فنحن نعرفه اليوم، أوشفيتز، المعسكر الرمز للهولوكوست. القطارات كانت تنقل إليه مئات الألوف من كل أنحاء أوروبا.

أوشفيتز الذي كان من الممكن أنْ يبدو مثل مدرسة داخلية أو مصنع، شهد مقتل أكثر من مليون ضحية. أغلبهم من اليهود. لكن ضحايا الهولوكوست، رغم كل ما مروا به، يمكن أنْ يعتبروا محظوظين. لقد هُزم النظام المتسبب بموتهم، فلم يتمكن من إلغاء التاريخ أو كتابته كما يريد. وجدوا مَن تبنَّى قضيتهم، ومَن تبنَّى قضيتهم وجد الكثير من الوثائق والأدلة... لم تكُن جنازتهم صامتة بعد كل شيء، والعالم الذي أشاح

بوجهه عن الحدث في أثناء وقوعه ونظر إلى الجهة الأخرى، حاصرته صور ما حدث وهول الأرقام، ولم يتمكن إلا أنْ ينظر ملء العين..

البشرية التي اقترفت الهولوكوست بإمكانها دومًا أنْ تقترف ما هو أفظع وأشد. الإجرام والوحشية عند البشر من الأشياء القليلة التي يمكن أنْ تكون بلا حدود.

حظ ضحايا الهولوكوست كان جيدًا على الأقل من ناحية أنَّ النظام الذي اقترف جريمته هُزم وانهار.

(مشاهد مختلفة من مجازر حدثت بعد الحرب العالمية الثانية: دير ياسين، حماة، صبرا وشاتيلا، مجزرة ساحة تيانمين، سربرينتشا، الروهينغا).

لكن ضحايا آخرين، قُتلوا بطريقة لا تقل بشاعة، بل ربما تزيد بكثير، لم يكُن لهم الحظ ذاته. تمكن النظام الذي اقترف بهم ما اقترفه، بتحالفات سياسية دولية، أنْ يجد منفذًا للبقاء، وتم ترتيب أنْ يُعاد ضمه إلى «المجتمع الدولي». أفلت الجُناة من العقوبة.

التاريخ سار في الاتجاه الصواب في أوروبا في الأربعينيات. كان هذا من حسن حظ ضحايا الهولوكوست. لكن هذا لم يحدث في كل المجازر المشابهة التي حدثت في أماكن مختلفة من العالم. بالتحديد: التاريخ في سوريا يسير في الاتجاه الخطأ.

حتى الآن... على الأقل.

-٢٢-

أوقفت الفيلم هنا.

من العنوان، استطعت أنْ أفهم أين يريد أنس أنْ يذهب. لكن هذا الشيء الذي شاهدته وسمعته، كان فوق توقعاتي. كنت أعرف أنَّ أنس لديه نظرة شاملة للأشياء، ينظر دومًا إلى «الصورة الكبيرة»، لكن طريقة تقديمه للأمر هنا كانت تحشر المتلقّي في زاوية ضيقة.

ضمن المتلقين، كعرب ومسلمين، هناك من ينكر الهولوكوست، بل وهناك مَن يقول «يستحقون»، بناء على ما فعله الصهاينة لاحقًا في فلسطين. هؤلاء أنفسهم، غالبًا ضد المجازر في سوريا.

أنس يضعهم في زاوية ضيقة. إنْ كنت مؤيدًا للهولوكوست، ستتناقض مع نفسك لو كنت ضد مجازر سوريا. في الوقت ذاته، هناك مَن هو ضد الهولوكوست، كجزء من ثقافة عالمية عولمية أصبحت من البديهيات، لكنه غير مكترث بما يحدث في سوريا، ينظر إلى الجهة الأخرى، هذه مبالغات، هذه أكاذيب، ربما كانوا يستحقون «جزئيًّا»، أو حتى ربما «كليًّا» بالضبط كما كان يحدث في أثناء الهولوكوست. هؤلاء أيضًا يضعهم أنس في زاوية حرجة.

حركة أنس في الدخول عبر الهولوكوست، حركة ذكية جدًّا. المقدمة مقدسة «غربيًّا» ومثقلة بالشعور بالذنب وتأنيب الضمير.. غالبًا سيؤثر هذا إيجابيًّا على كل الخطوات اللاحقة. أمسكهم في المقدمة، وضع في أيديهم القيود، وسيقودهم إلى حيث يريد. هكذا تخيَّلت ما يفعله.

استوقفتني لغة أنس، يبدو هنا محترفًا في التعليق الصوتي. لعله دخل دورات في هذا. تذكرت ما قالته نور «يمكنه أنْ يتقن أي شيء يريده». سمعت هذه الجملة أول مرة بغيرة. الآن لا غيرة. تصديق لما قالته، وحزن وأسف عليه فقط. لكن رغم حرفيته، الجرح في صوته واضح، فيه بحة مختنقة، كما لو أنَّه كان على وشك البكاء.. أو الانتحار.

****

الكلمة في مقدمة الفيلم كتبها مَن وَضَع الفيلم على اليوتيوب بالتأكيد. لا عَلاقة لأنس بهذه الكلمة. ما كان سيعرف شيئًا عن تاريخ العثور عليه.

وهذا الذي كتب الكلمة، كان يميل إلى أنَّ أنس انتحر، لكنه لم يكشف عن ذلك تمامًا. ترك الأمور لكي يفهمها الناس كما يريدون. أمي تفاجأت بتفصيل «الشنق» لأنَّها لم تكُن تعرف كيف وجدت أنس، لم أخبرها. أخته أيضًا، شكت بالأمر فأرسلت تسألني. أما زوجها فقد قرر أنَّ هذه الكلمة دليل على «كذبي» في موضوع انتحار أنس.

في السوشيال ميديا، كانت هناك تعليقات كثيرة عن الفيلم، بعضها عن أجزاء لم أشاهدها بعد، أغلب التعليقات تسب النظام ووحشيته، بعض التعليقات كانت تعتبر أنَّ الفيلم يؤكد تصفية أنس من قِبَل النظام. بينما تعليقات أخرى تقول إنَّ مَن يطَّلع على هذه الشهادات ممكن جدًّا أنْ يصاب بالاكتئاب ويقوده ذلك إلى الانتحار.

أكثر مِن معلق قال إنَّه فكر بالانتحار بعد مشاهدة الفيلم، ربما مبالغة من مبالغات التعليقات، لكنها وضعت الأمر في سياق منطقي ومحتمل.

لم يكُن هناك أي حديث عن «الجهة المنتجِة» أو «الداعمة للفيلم»، لم يتهمها أحد بشيء في التعليقات. الكلمة التي في بداية الفيلم لم تشِر إلى أي

شيء يخص هذه الجهة. كما لو أنَّ مَن وَضَع الفيلم لا يعلم بوجود مشكلة معها. هذا مستبعد. غالبًا لم يكُن يريد أنْ يجرها إلى الأمر. لا يوجد أي إشارة إلى الجهة المنتجِة للفيلم في أي مكان، حتى الآن على الأقل. لا لوغو مميز كما يحدث عادة.

عُدت إلى كلمة البداية مائة مرة. بقيت أفكر في كل كلمة. أحاول أنْ أربط النقاط. الفيلم كان متوفرًا عند نور فقط حسب علمي. ربما أيضًا عند سواها، لكن لا أعرف مَن. لم تقُل هي أي شيء عن شخص آخر شريك لأنس. غالبًا لا نسخة أخرى.

توقيت اختفاء نور قبل ظهور الفيلم. ولماذا يظهر الفيلم أصلًا في رمضان؟ غالبًا الناس يكونون أقل اهتمامًا بهذا النوع من الأفلام في هذه الفترة. خاصة في البداية.

قضيت الليل وأنا أفكر في كل هذا، أعدت قراءة المقدمة، والتعليقات. بالتأكيد نور لها عَلاقة بكل هذا. ستنكر غالبًا. لكن هذا واضح تمامًا. لا يحتاج أن تكون المحقق كونان لتستنتج ذلك. نور هي من نشرت الفيلم. مهما أنكرت، ومهما أصرت على الإنكار.

المقطع الثاني من الفيلم

(صوت أصالة في موال حزين، مع الناي في الخلفية).

سكتنا كتير عالظلم

لا تقول ما عندك علم ... لما الجرح علّم

بدي بصراحة أنصحك

تبقى مارح تزبط معك

لك روح وتعلّم

شفلك حدا بيرضى القهر

ناسي الكرامة من دهر

نحنا انقهرنا والقهر

خلانا نتعلّم ....

(مشاهد من مجزرة حماة في الثمانينيات. جنود يلتقطون صورًا تذكارية مع الجثث المكومة على الأرض بينما يضعون أقدامهم عليها. صور لجثث مصفوفة على الأرض. جثث امرأة وطفلين على قارعة الطريق. أحياء مهدمة بالكامل. صور إحصائية توضح عدد القتلى «٣٠ ألفَ قتيلٍ، ١٠ آلاف شخصٍ لم يعرف مصيره حتى الآن، خلال أقل من شهر واحد» وصور أخرى تضم عشرات الصور الشخصية للضحايا. (ينتهي الموال على هتافات: الله، سوريا، حرية وبس).

صوت أنس (متداخلًا مع صور لمظاهرات الثورة السورية وأصوات بعيدة لها).

هكذا كانت البداية، الله، سوريا، حرية وبس. خربشات أطفال على الجُدران في درعا. هتافات سلمية في دمشق. نعم، كان للربيع العربي آثاره المحفزة على انطلاق هذه الهتافات، لكن المتراكم من القهر والقمع في سوريا كان أكبر مما تجمع في ربيع بقية البلدان. آلة القمع في سوريا كانت أكبر، وإذا كان هناك من يشك في ذلك قبل ٢٠١١، فإنَّه من الصعب النقاش في هذا بعد ٢٠١١.

(لقطات لعناصر الأمن والشبيحة وهم يضربون المتظاهرين بالهراوات، عسكري يضرب شخصًا أعزل ويصرخ فيه: هذه هي الحرية اللي بدكن ياها، رجال الأمن يطلقون رصاصًا على المتظاهرين، شبيحة يسجدون على صور بشار، جُدران كُتِب عليها «الأسد أو نحرق البلد»...).

سريعا جاء الرد من قِبَل النظام، وبطريقة عنيفة غير متناسبة مع سلمية التظاهرات الأولى وانخفاض سقف المطالبات في البداية. شعار «الأسد أو نحرق البلد» كان مباشرًا، صريحًا، منذرًا بالمحرقة التي ينوي النظام تحويل البلد لها. ربما أشد معارضي النظام لم يكُن يتخيَّل إلى أي مدى سيمضي النظام في هذه المحرقة.

منذ الأسابيع الأولى، شهد هذا الجيل الجديد من الشباب ما كان جيل الآباء يحذر منه. وسريعًا تعرف هؤلاء الشباب على الخالة التي كانوا قد سمعوا بها فقط.

(لقطات لشوارع دمشق وحلب في الثمانينيات)

مع أحداث الثمانينيات وتزايد عدد المعتقلين على أثرها في كل المدن السورية، أصبح السوريون يتجنبون ذكر أي خبر يتعلق بسياسة الدولة تجاه معارضيها. كانت الناس تختفي فجأة، تكف عن الحضور إلى العمل صباحًا أو لا تأتي إلى دروسها وجامعاتها أو لا تفتح مصالحها. أين فلان؟ أين فلان؟ كان الناس يتساءلون همسًا، لكن لا أحد كان يقول «اعتقلوه». حتى هذه أصبحت مُخيفة. مجرد نطق كلمة المُعتقل أصبح شرًا يُنصح بتجنبه. أصبح الناس يقولون «فلان في بيت خالته» «راح إلى بيت خالته».

أصبحت كلمة «بيت خالته» هي التعبير الذي يستخدمه السوريون للإشارة إلى المُعتقل، والتي تعني أحيانًا أنَّه لن يعود أبدًا من بيت خالته. ومن السوريين أصبحت شعوبًا أخرى مجاورة تستخدم التعبير نفسه، رغم أنَّ لا خالة يمكن أنْ تنافس خالة السوريين. مكتبة

(لقطات عامة للسجون من غوغل إيرث مع مخططات توضيحية لأوضاع التعذيب حسب ما يرد في الكلام - مجسم تفاعلي لسجن صيدنايا الذي تعاونت أمنيستي مع مُعتقلين سابقين على تنفيذه).

«بيت خالة» السوريين يتصدر -ربما دون منافسة كبيرة- قائمة أسوأ مُعتقلات العالم حسب البي بي سي، الجارديان أسمته «أكثر مكان مرعب في العالم». منظمة العفو الدولية تسميه «مسلخ البشر».

تحولت التقارير التي ترصد حالات التعذيب في بيت الخالة إلى «كاتالوغ للتعذيب» حسب وصف منظمة العفو. حسب الشبكة السورية لحقوق الإنسان: هناك ٧٢ أسلوبَ تعذيبٍ مستخدم في المُعتقلات السورية، أكثر من أي رقم آخر رُصِد مِن قِبَل أي جهة، حتى عندما يتعلق بالمقارنة مع المُعتقلات النازية.

أساليب التعذيب هذه تشمل كل ما يخطر وكل ما لا يخطر في بال بشر، كل ما أفرزته البشرية من شرور وبشاعات يمكن أنْ يتمثل في هذه الأساليب التي أصبحت علامة لبيت الخالة في سوريا. بعض أساليب التعذيب هذه، تشبه كثيرًا ما كان يحدث في مُعتقلات الهولوكوست النازية. ربما يبدو الأمر مجرد تشابه، عندما يتخلى البشر عن إنسانيته، ويترك للوحش فيه العنان، فإنَّ أفعاله قد تبدو متشابهة في كل زمان ومكان. نعم، ربما. القتلة والمجرمون لديهم ما هو مشترك ومتشابه دومًا. لكن هناك ما هو أكثر من مجرد التشابه العابر. بيت خالة السوريين هو نسخة محدثة من أوشفيتز، بتحديثات تجعله أشد سوءًا. ليس بالصدفة. بل عن سابق قصد وتصميم.

صور لألويس برونر في مراحل مختلفة من حياته، وصور متعددة لأدولف أيخمان من ضمنها صورة مع هتلر، لقطات عن (الحل الأخير).

ألويس برونر[١] ضابط نمساوي من مواليد ١٩١٢، التحق بالحزب النازي في عمر التاسعة عشر، كان من كبار ضباط «سرية الحماية» (إس إس) الخاصة بهتلر المكونة بشكل أساسي من المتطوعين، كما كان المساعد الأقرب واليد اليمنى لأدولف أيخمان من كبار الضباط المسؤولين عن هندسة وتنفيذ المرحلة الأخيرة من الهولوكوست. قال عنه أيخمان في مذكراته إنَّه «أفضل رجاله».

ألويس برونر كان المسؤول عن اختراع «شاحنات الغاز» التي سبقت إنشاء أفران الغاز في معسكرات الاعتقال، شاحنات عادية المظهر، تحمل باليهود من أحياء الغيتو كاعتقال عادي، ثُم تغلق عليهم تمامًا، ويبدأ تسريب الغاز في صندوق الشاحنة بحيث لا تفتح الشاحنة إلا بعد أنْ

(١) ألويس برونر: ضابط نازي نمساوي، كل المعلومات الواردة عنه صحيحة وموثقة في آخر الكتاب.

يكون كل من فيها قد قُتل. أرسل برونر إلى عدة دول أوروبية لجمع اليهود (فرنسا والنمسا وسلوفاكيا واليونان).

للفترة من يونيو ١٩٤٣ إلى أغسطس ١٩٤٤ شغل ألويس برونر منصب المشرف العام عن «معسكر دارنسي للاعتقال» قرب باريس؛ حيث أرسل في هذه الفترة أكثر من ٢٤ ألفَ شخصٍ إلى معسكر أوشفيتز. عدد الذين أرسلهم إلى حتفهم في أوشفيتز يقدر بـ١٣٠ ألفًا، عدا الذين قتلوا في شاحنات الغاز أو زنزانات التعذيب في دارنسي. كما أنَّه معروف بإرسال أطفال ميتم إيزيو (في شرق فرنسا) إلى معسكر الإبادة في أوشفيتز.

كان برونر معروفًا بإلغاء إعفاءات وضعها ضباط سابقون، مثلًا عندما يكون اليهودي أو اليهودية متزوجًا من «العرق الآري»، أو عندما يكون لدى اليهودي أم غير يهودية. الكل إلى المحرقة. وبينما قَبل ضباط كبار أعلى منه رتبة وساطات ورِشًى لتخليص عدد محدد من اليهود، فإنَّ برونر كان يترك المجال للوساطات والرِّشَى لكي يبطش بمَن يحاول مساعدة اليهود أيضًا.

بعد الحرب العالمية الثانية، تمكَّن برونر من الإفلات من العقوبة، مستغلًا وجود شخص يحمل اسم عائلته نفسه ساهم في نقل اليهود إلى المحرقة (أنتون برونر الذي أُعدم لاحقًا كمجرم حرب)، عمل برونر كسائق للقوات الأمريكية، ثُم هرب إلى مصر في عام ١٩٥٤ حيث عمل كتاجر سلاح، وبعدها إلى سوريا.

(صور من أرشيف «الحركة التصحيحية»، حافظ الأسد ورؤساء الأجهزة الأمنية في فترة السبعينيات).

ڤِ سوريا، تلقفه نظام «الحركة التصحيحية»؛ حيث عمل مستشارًا خاصًا لرئيس النظام، مستشارًا ڤِ شؤون التحقيق والتعذيب. هذه هي النقطة التي جعلت من «بيت الخالة» يصبح أوشفيتز مع كل التحديثات التي تجعله أسوأ.

هذه هي النقطة التي جعلت من «المُعتقل» يتحول من مكان للانتقام الوحشي من المعارضين، إلى مكان لتعذيب ممنهج بأساليب منظمة تصل إلى الحدود القصوى من إمكانيات الإجرام والشر عند البشر. لم يَعُد المُعتقل هنا مكانًا للاستجواب، ولم يَعُد التعذيب وسيلة لانتزاع المعلومات أو الاعترافات. هذا للسجون والمُعتقلات العادية. «بيت خالة» السوريين تجاوز هذا تمامًا، أصبح مصنعًا للقهر والذل وتجريد البشر من إنسانيتهم. أصبح ممرًا للوصول إلى أوطأ دركات البهيمية التي يمكن أنْ ينحدر لها إنسان.

خلال السنوات التي تلت هروب ألويس برونر، حوكم كمجرم حرب، وحُكم عليه غيابيًّا بالموت. ومع تسرب معلومات استخباراتية عن وجوده ڤِ سوريا، بدأت دول غربية كثيرة تحاول الضغط على الحكومة السورية لتسليمه، لكن هذا الكنز ما كان سيسلم بسهولة. حاول الموساد أنْ يقتله عبر رسائل متفجرة أفقدته عينًا وأصابع اليد اليسرى، لكنه لم يمت.

عاش ألويس برونر تحت اسم د. جوزيف فيشر ڤِ دمشق لعقود، ٧ جادة كرجيه حداد[١]، عين الكرش[٢]. كان يشاهد وهو يذهب للتنزه ڤِ

---

(١) كرجيه حداد: سيدة أعمال سورية الأبوين والمولد نشطت في المهجر وموّلت الكثير من الأعمال الخيرية في البرازيل وسوريا.

(٢) عين الكرش: حي في دمشق بين شارع ٢٩ أيار وشارع بغداد، سُمي بهذا الاسم لأنّه كان يضم عين ماء وكان الدخول لها بقرش.

حديقة «الورد» المجاورة. مع العين المفقودة واليد المشوهة، لم يكُن من الصعب التعرف عليه، يقال إنَّه عاش لاحقًا في فندق الميريديان في شارع شكري القوتلي مقابل معرض دمشق الدولي.

في منتصف الثمانينيات أجرى مقابلة صحفية مع صحيفة ألمانية، قال فيها إنَّ ضميره مرتاح. وإنَّ اليهود كانوا نفاية بشرية وإنَّهم استحقوا الموت. قال أيضًا إنَّه نادم على شيء واحد فقط. إنَّه لم يقتل المزيد منهم. موعد وفاته ليس معروفًا بالضبط، يقال إنَّه عاش حتى ٢٠١٠، ويقال إنَّه تُوفيَ قبل ذلك بعشر سنوات. أيًّا كان، لقد قدم خلاصة خبراته في التعذيب، درَّب أعوان النظام على المنهج. سلمهم إياه كاملًا، غالبًا طور منه، وجعلهم يطورون منه أيضًا.

الوحش داخل الإنسان كامن على ما يبدو، وهذا الكُمُون لا ينتهي بموت واحد من رموز الشر. للأسف.

-٢٤-

لم أكُن قد سمعت بألويس برونر هذا من قبل. لم أشُك في معلومات أنس. ما كان يمكن أنْ يتورط في كذبة كهذه. لكني أحببت أنْ أرى مدى انتشار المعلومة على الإنترنت. بحثت في غوغل. فوجئت بأنَّ الأمر معروفٌ تمامًا. مجرم حرب نازي ومسؤول من مسؤولي الهولوكوست يعيش في دمشق وينقل خبرته في التعذيب. عين الكرش؟ جادة كرجيه حداد؟ سرت في جسدي قشعريرة.

في هذا الشارع شاهدت أبي وزوجته يدخلان بناية، ومعهما طفل صغير. أول مرة أراه. لا بد أنَّه أخي. كنت أنجز معاملة في بنك «سوريا والخليج» لأجل التحضير للسفر. لم ينتبه أبي لي. نظرت إلى البناية التي يدخلون إليها. ثُم إلى أخي. فهمت كل شيء. في البناء كان هناك مركز لذوي الإعاقة الذهنية. أدركت لماذا كان أبي يتهرب كلما سألته عن أخي. أدركت سر وجهه المهموم دومًا بعد فترة انتعاش ابتدأت مع الزواج الجديد. تصورت أنَّ شهر العسل قد انتهى وجاءت بعده هموم الزواج التقليدية. لكن هذا الانكسار في عينيه كان أكبر من أي شيء تقليدي.

حاولت أنْ أمنع نفسي من أنْ أبلغ أمي. خفت أنْ تشمت. خفت أنْ ألمح في عينيها فرحة. حاولت أنْ أكتم السر، ولكن، الطبع يغلب التطبع، أنا سطيف العوايني مهما حاولت أنْ أكون غير ذلك. أخبرتها. ظلمتها جدًّا إذ كنت قد توقعت فرحة أو شماتة. على العكس.. بدت مصدومة أولًا. غير مصدقة. ثُم أخذت تبكي وتستغفر الله. دخلت في مزاج كئيب للغاية، لكنها

أصبحت تعامل أبي أفضل بكثير، كما لو أنَّها تعوضه. استنتجت بالتدريج أنَّها ربما تكون قد دعت على أبي أو على زوجته في لحظة غضب أو يأس، وإنَّ هذا الذي كشفته لها قد أوحى لها إنَّ الله قد استجاب لدعائها على هذا النحو، وإنَّ هذا كله قد وَلَّد عندها شعورًا بالذنب وتأنيبًا للضمير، لهذا كانت تستغفر الله فور علمها بالخبر.

جادة كرجيه حداد ارتبطت عندي بكل هذا.. أخي الصغير الذي لا أعرفه معاق ذهنيًّا.. أبي منكسر.. وأمي تشعر بالذنب.. وأنا على سفر. ثُم يتضح أنَّ في هذا الشارع، ربما في هذا البناء، هناك من كان يدرب النظام على ما يفعله في السجون. بدا لي الأمر متداخلًا جدًّا. أنا وأبي وأمي وأخي وألويس برونر.

حاولت أنْ أقول إنَّها كلها أكاذيب الصحافة الغربية التي ربما اخترعت القصة كجزء من حملات الصهيونية ضد سوريا. حاولت فعلًا أنْ أضع هذا الاحتمال في ذهني. لكن لا. كل شيء يبدو متناسقًا. لا عداء حقيقي للنازية وما فعلته ضمن ثقافة النظام وأيديولوجيته. على العكس، كان هناك دومًا شعور مبطن بأنَّ «هتلر قصّر مع اليهود»! ما الذي يمنع النظام من استخدام مجرم حرب نازي والاستعانة بخبراته، لكن ليس مع اليهود هذه المرة، بل مع أبناء شعبه؟ لمجرد وجود شبهة معارضة. لا شيء. النظام يفعلها ويفعل «أبوها». لست ثورجيًّا. ولست مؤيدًا. أنا مجرد رمادي ولكني أعترف بأنَّ النظام يفعلها و«أبوها». بل حتى المؤيدون لن يجدوا مشكلة في الاعتراف بهذا. قررت أنْ أعيد النظر في توصيفي لنفسي. أعتقد أنَّ «الرمادي» لم يَعُد يناسب وضعي الحالي. أنا رمادي متعاطف مع «أسباب» الثورة. هكذا أفضل.

****

أمي وخالتي كانتا لا تزالان غير قادرتين على تحمل فكرة انتحار أنس. هذا كل ما كان يهمهما من الفيلم. «كيف مشنوق يا يزن؟ مَن شنقه»؟

أحاول أنْ أوضح لها أنَّه لا يشترط أنْ يكون هناك «مَن» شنقه. ربما يكون «شنق» نفسه بنفسه. بالضبط كما ألمح الفيلم في مقدمته.

- لا تقلها يا يزن لا تقلها. أنس لم ينتحر، كلنا نعرف المنتحر يذهب إلى النار، خالتك والله تموت كمدًا إذا يكون انتحر. ستجن. أبوه مشلول الآن. لو علم يموت بمكانه. مات الله يرحمه. قتلوه الله يرحمه. لكن ينتحر؟

- أمي، الله يرحمه أيضًا ويرحمنا جميعًا، على فرض أنَّه انتحر، نمنع رحمة الله عنه؟

- لماذا ينتحر؟ شاب أخته بتعشقه[1]. مثل القمر. ابن أحسن عائلة في الشام. لديه بيت في تنظيم كفر سوسة[2] باسمه. لو يريد أنْ يبيعه يمكن له أنْ يشتري أحسن بيت بألمانيا. ما الذي ينقصه حتى ينتحر؟

كيف يمكن أنْ أشرح أنَّ الأمر لم يكُن بهذه البساطة، وأنَّ وسامة أنس والبيت الملك الذي يملكه وكونه شاميًّا مائة بالمائة (وليس مثلي، فقط خمسين بالمائة ومِن الأم) لا يمكن أنْ تمنحه حصانة ضد الانتحار.

- أمي، هل نسيتِ؟ أقرب أصدقائه قُتِل. وحُكِم على الآخر بالسجن المؤبد. اضطر لترك الدراسة. كيف يمكن أنْ تساهم وسامته وشقته الملك في إزاحة كل هذه النكبات من حياته؟

- هل اشتكى لك من شيء؟ هل أخبرك بشيء؟

---

(١) أخته بتعشقه: يقال لوصف وسامة شاب.

(٢) مشروع كفر سوسة: حي دمشقي راقٍ في قلب العاصمة.

- لا يا أمي، لو كان قال لحاولت مساعدته. لكني عرفت أنَّه كان يذهب إلى طبيبٍ.

- طبيب ماذا؟

- طبيب نفسي.

- مَن قال لك ذلك؟ بنت هدباء؟ تريد هذه المقوصة أنْ تقنعنا أنَّ أنس كان مجنونًا؟ إي ما فشرت هي وأمها.

بنت هدباء، مجددًا. ومقوصة أيضًا. كنت أشك أنَّها تستخدم هذه الكلمة في وصفها. الآن تأكدت.

- أمي، أؤكد لكِ أنَّ هدباء حماصني لا عَلاقة لها بأي شيء، وأنَّ بنت هدباء لا تريد أنْ تقنعنا بأنَّ أنس كان مجنونًا، وأني أدرس الطب النفسي ونادرًا ما أرى (مجانين)، يمكن لأي شخص أنْ يحتاج إلى طبيب نفسي.

قلت لنفسي: أنا أحتاج إلى طبيب نفسي بعد هذه المكالمة.

- أي حديث عن ذهاب أنس إلى طبيب نفسي يعني أنَّه انتحر، وأنس لم ينتحر. الناس ستأكل (وشنا) يا يزن.

- هل هذا هو المُهم الآن؟ وضعنا الاجتماعي أمام الناس، وليس ما حدث حقًا؟

- لا تزد الأمور صعوبة. الله أعلم بما حدث. لكنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين الأمرين. الموت يمكن أنْ يأتي نتيجة سكتة قلبية أو صعقة كهرباء أو أي شيء. ممكن أنْ يكونوا قتلوه. لكن انتحر؟

- حسنًا، أنس لم ينتحر. ماذا بعد هذا؟

- أريد منك أنْ تتصل بخالتك سلوى وتقسم لها على هذا الكلام. أنت مَن شاهده. وحدك يمكنك أنْ تكذب ما ظهر على اليوتيوب وفي تقرير الشرطة. قُل لها إنَّه كان ميتًا (عادي) ولم يكُن هناك أي أثر للانتحار... وإنَّ الشرطة في كل مكان فاسدة وليس عندنا فقط. قالوا انتحر كي لا تحدث خلافات بين الدول. قُل لها هكذا.

- هل خالتي طفلة كي تصدق هذا الكلام؟

- نعم، حاليًا هي طفلة وستصدق أي شيء. الأم المفجوعة يا ابني تريد أي شيء أنْ يخفف من فجيعتها.

- تريدين أنْ أقسم كذبًا؟

- مَن قال كذبًا؟ ألم تقُل الآن توًّا إنَّه لم ينتحر؟ الآن توًّا أنت قلت هذا. هل تكذبني؟

لا فائدة. انتهى الأمر بأنْ أقسمت لأمي بأني سأقسم لخالتي إنَّ أنس لم ينتحر وإنَّ الشرطة فاسدة في كل مكان (مثل عنّا فرد شكل[1]).

****

متابعة النقاش عن موضوع أنس على السوشيال ميديا يمكن أيضًا أنْ تقود إلى مراجعة طبيب نفسي. أو تشير على الأقل إلى أنَّ الكثيرين يحتاجون إلى ذلك.

كان هناك شبه اتفاق على دخول أنس إلى النار. الخلاف كان بين من يقول إنَّه سيكون مخلدًا فيها، وبين آخرين قرروا أنَّه سيقضي مدة ما فيها (أحدهم قال بضعة آلاف من السنين) ثُم يخرج منها، الحمد لله.

---

(١) كما عندنا الشكل نفسه.

كان هناك ڤيديو منتشرًا لعالم يقول فيه (الظاهر أنَّ المنتحر لا يُغفَر له). ونقاش محتدم عن كونه كافرًا أم عاصيًا فقط. وتطمينات من مؤسسة دينية معروفة تؤكد أنَّه لم يخرج عن الملة ويُدفَن في مقابر

المسلمين، كذلك يمكن أنْ يُصلَّى عليه. الحمد لله. فاتنا أصلًا أنْ نسألهم قبل أنْ نصلي عليه وندفنه.

خارج نقاش الجنة والنار كان هناك نقاش آخر لا يزال مُصرًّا على أنَّ النظام قتل أنس. يمكن لتقرير الشرطة الألمانية أنْ يكون مزورًا، ويمكن أنْ يكون النظام قد رتب كل شيء بحيث يبدو الأمر انتحارًا.

كان انتحار أو موت أنس هو الحدث الذي يُناقَش أولًا، وليس محتوى الفيلم. أيام فقط، هدأ الأمر، وبدأ النقاش يتجه نحو المحتوى.. مقاطع من الشهادات بدأت تُقطع وتُنزل منفصلة على السوشيال ميديا. لا أحد تحدث عن الشركة المنتجِة حتى الآن. الفيلم لم يُزِل من اليوتيوب. لا تحرُّك حتى الآن من قِبل الشركة. على الأقل ليس ظاهريًّا.

وقفت أمام نور، قلت لها وجهًا لوجه، عينًا بعين: «أحسنت صُنعًا بنشر الفيلم يا نور».

نظرت لي شزرًا وقالت لي: يزن، متعبة جدًّا من صيام اليوم، (طلاع من راسي)[1] لست في مزاج لمزاحك.

- لا أمزح. أنتِ مَن نشرت الفيلم.

- أنتَ واهم، تتوهم أنَّك قادر على فهم كل شيء.

- نعم، أصيب وأخطئ، ولكني مصيب هذه المرة.. الأمر واضح وضوح الشمس.

سارت نحو المكتب وهي تمتم: مصيب؟ لا والله أنت مصيبة!

- لم أخبر أحدًا غيرك بأغنية أصالة.

«ماذا»؟ التفتت مستغربة.

- وحدك تعرفين أنَّ أغنية أصالة كانت على الإعادة عندما مات أنس.

سكتت لبرهة لا أكثر.

- ثُم؟ ما عَلاقة هذا بالفيلم؟

التفتت وصار ظهرها لي. اقتربت منها. أردت أنْ أرى وجهها عندما أقول هذه الكلمات.

(١) اخرج من رأسي، دعني وشأني.

- ... وكيف نكتب والأقفال في فمنا؟ وكل ثانية يأتيك سفاح ونصاب؟ حملت شعري على ظهري فأتعبني...

- ماذا تقصد؟

- هذه الكلمات، الأقفال على الأفواه، السفاح، حمل (شيء ثقيل) على ظهره، تكررت في المقدمة المكتوبة، كما في الأغنية التي قلت إنَّها رسالة انتحاره.

كنت أنتظر أنْ تزدرد بلعومها. ترمش عينيها. تعدل حجابها. أي حركة تقول إنَّها ارتبكت. أي شيء مما هو موجود في قاموس حركات الجسد عند الارتباك. لم تفعل.

نظرت لي بابتسامة مستفزة «عفوًا يزن، عندما أخبرتني بالأغنية، هل طلبت مني أنْ يبقى هذا سرًا بيننا.. أنْ لا أخبر أحدًا بالأمر»؟ قالت بلهجة درامية متعمدة.

كان دوري في الارتباك. أظن أني بلعت ريقي ورمشت.

- لا، لم أخبرك.

- أنا أخبرت مجموعة على الفيس بوك، كلهم أصدقاء لأنس، أي واحد منهم يمكن أنْ يكون هو مَن كتب المقدمة، عددهم ربما عشرة أو أكثر، تستطيع أنْ تحقق معهم إنْ أحببت.

كلامها منطقي. نجت من دليلي الأول. لن تنجو من الثاني.

- وهل قاموا جميعهم بصيام إلكتروني قبل أيام من نشر الفيلم؟

رمشت عيناها هذه المرة.

- ما عَلاقة الصيام الإلكتروني بالفيلم؟

- لم يكُن صيامًا إلكترونيًّا. تركتِ كل شيء له عَلاقة بكِ إلكترونيًّا هنا وسافرت إلى مكان آخر، ربما دولة إفريقية أو شرق أوسطية، أي دولة قوانينها ليست قوية جدًّا في متابعة الحسابات الإلكترونية، دول (ضايعة الطاسة) فيها، صنعت حسابًا على اليوتيوب، وحمّلت الفيلم عليه، ووضعت له توقيتًا لكي ينشر في وقت معين بعد عودتك.

تغير وجه نور. لأول مرة أراها ممتقعة الوجه. بقيت ساكتة قليلًا وهي تنظر إليَّ. نعم، لقد أصبت الهدف.

- إذن استنتاجي كان صائبًا. أنتِ ذكية جدًّا يا نور، وقوية، كل الاحترام لك.

بقيت ساكتة كما لو كانت تبحث عن شيء لتقوله لي.

«وأنتَ محقق بارع يا كونان. أعرف أنَّ الأمر واضح أني مَن نشرت الفيلم، بالنسبة إلى مَن يعرف أنَّ الفيلم معي... لكن ربطك للأمر باختفائي يدل على إمكانيات... لم أعتقد أنَّك ستكتشف الأمر بهذه السرعة». قالت وهي تلتفت لترى إنْ كان هناك أحد يسمع كلامنا.

- سأفكر بتغيير المهنة قريبًا.

- نعم، إنْ لم أقتلك قبلها!

أشارت إلى رقبتها، إشارة الذبح.

- ماذا؟ لماذا؟

- لقد فعلت كل هذا لكيلا يعرف أحد. أخبرتك عن مشكلة أنس مع الجهة المنتِجة وما يمكن أنْ يفعلوه.

قلت متصنعًا أني وجدت الحل: «حسنًا، ما رأيك بأنْ نعقد صفقة؟ توافقين على طلبي مقابل أنْ أسكت عن اكتشافي».

- عن أي طلب تتحدث؟

- طلبي ليدك!

رفعت حاجبيها مندهشة وقالت بصوت منخفض: «halte die klappe»[1]!

- أمزح معك.. لكن لماذا أخفيتِ الأمر عني؟ هل تعتقدين أني سأقول لأحد؟ بالعكس، أنا معك في الأمر، وأحييك على شجاعتك، لا يمكن أنْ تتخيلي تقديري لِما فعلت.

- شكرًا، لكن عليك أنْ تلتزم بالصمت تمامًا تجاه هذا. لا تعرف ما الذي يمكن أنْ يحدث.

- هل تَوقُّعي بأنك سافرت وحمّلت الفيلم في دولة أخرى صحيح؟

- نعم يا محقق كونان، صحيح، لكن ليست دولة إفريقية ولا شرق أوسطية.

- بربك، أين؟

- البرازيل. القوانين هناك ليست قوية بما فيه الكفاية، وتطبيقها أضعف بكثير، لذا، مع كل احتياطاتي التي أخذتها، قد أنجو.

- البرازيل! رباه. لقد طرت حول نصف العالم. كم ساعة؟

- ١٧ ساعة دون وقت الترانزيت. بالمناسبة، كان لدي مشاركة في مؤتمر في جامعة ساو باولو. سبب ذهابي رسمي جدًّا ومحترم جدًّا.

---

(١) اخرس، بالألمانية.

- والله إنَّك (قبضاية[1])! مشاركة في مؤتمر؟ كيف رتبتها بهذه السرعة»؟

- مجرد حضور شكلي. المُهم أنَّ ذهابي للبرازيل لم يكُن دون سبب وجيه.

- لا توجد دولة أقرب قليلًا دون قوانين إلكترونية؟

- نعم، الصومال وأفغانستان وموزمبيق، الذهاب إليها تهمة.. أو لافت للنظر جدًّا، وربما سرعة الإنترنت تجعل تحميل الفيلم يستغرق حتى رمضان القادم، البرازيل أضمن.

- لماذا رمضان بالمناسبة؟ نسب المشاهدة لن تكون مرتفعة حاليًّا.

- نسب المشاهدة غير مُهمَّة حاليًّا. أريد أنْ ينتشر الفيلم للمهتمين. سيحملونه وسيصبح له نسخ عديدة، بحيث إنَّ محاولة الشركة حذف الفيلم من اليوتيوب لن يكون فعّالًا، لأنَّه سيكون قد انتشر على مواقع كثيرة وعبر وسائل التواصل ومواقع التورنت، الفيلم أصلًا صار موجودًا على الفيس بوك في أكثر من خمسة حسابات لا أعرف عنها شيئًا.

- هل يمكن أنْ تكون هناك نسخة مترجمة أو مدبلجة؟ يخيَّل لي أنَّ الفيلم أيضًا موجه للمتلقي الغربي.

- نعم، نسختان، ألمانية وإنجليزية، أرسلتهما إلى أكثر من جهة إعلامية، وبكل الأحوال، ستظهر على اليوتيوب قريبًا، وضعت نسخًا احتياطية تظهر بأوقات لاحقًا، احتياطًا.

(١) قبضاية: جدعة، يعتمد عليها.

خرطت نور مشطي[1] تمامًا. ما هذه القابلية؟ هذه فتاة خارقة بكل المقاييس. إلى البرازيل يا نور؟! ودون هاتف خلوي أو أي جهاز آخر؟! أنا لا يمكن أنْ أذهب إلى البقالة المجاورة دون الهاتف. يا لقوتك يا نور. لو لم

أكُن قد طلبت يدها قبل أيام لطلبت يدها مجددًا. ولو رفضتني فسأطلبها مرة أخرى وأخرى. سأطلب يدها خمس مراتٍ. لا. عشر مراتٍ. على أمل أنْ تمل من طلبي وتقبل.

ثُم فكرت: هل تفعل كل هذا من أجل أنس؟ أم من أجل قضية تؤمن بها؟ لكن لم يكُن هناك غيرة في تفكيري، حتى لو كانت تفعل هذا من أجل أنس كشخص، أو حتى لو كانت تحبه، أمام كل هذا العطاء والتضحية لم أملك إلا أنْ أكبر ذلك فيها.

جاءتها زميلة ألمانية تسألها عن ترجمة شيء ما. تركتهما وخرجت لأعود إلى البيت. في المترو استلمت رسالة منها. وجه مغلق الفم بالسحّاب.

رددت عليها: لا تقلقي. هون حفرنا وهون طمرنا.[2]

ثُم قلت لنفسي: أتمنى أنْ لا تكون مشاعري مشمولة بالمثل.

---

(١) خرط مشطي: أعجبني جدًا.

(٢) مثل شامي يفيد كتمان السر.

(مشاهد مختلفة لضحايا من مختلف العصور، منذ العصور القديمة إلى العصر الحديث مرورًا بصور تعذيب لمحاكم التفتيش).

أي شخص طبيعي عندما يستعرض ما فعلته النازية، وما فعله سواهم بضحاياهم من تعذيب، لا بد أنْ يجد في نفسه أسئلة عن الطبيعة البشرية: كيف يمكن لكل هؤلاء البشر أنْ يكونوا بهذه القسوة؟

(صور لقتلة متسلسلين أُلقيَ القبض عليهم مع صور منفردة لضحاياهم)

قد نفهم الأمر عندما يكون حالة فردية، مجرم سادي ينفرد بضحيته ويتفنن بتعذيبها.. لكن الأمر في الهولوكوست وفي «بيت خالة» السوريين، وفي أماكن مشابهة كثيرة، الأمر مختلف، هناك عدد كبير من الضباط وعناصر الأمن والسجَّانين والحراس ممن يشاركون في حفلات التعذيب اليومية.. هل كل هؤلاء «مرضى نفسيين» بهذا المعنى؟ هل تم توظيفهم على هذا الأساس؟ هذا ببساطة لا يُعقل. غير منطقي.

ثمَّة شيء مخيف في هذه الأفعال. ليس مخيفًا في تفاصيلها والآلام التي تسببها.. بل مخيفًا في وجود كل هذا القدر من الوحشية والقدرة على الأذى في بشر قد يبدون طبيعيين جدًّا خارج نطاق أعمالهم ووظائفهم. ربما لديهم عائلة وأطفال وحياة اجتماعية تبدو طبيعية.

(صورة لديفيد ليفنغستون سميث، مع لقطات من محاضراته)

البروفيسور ديفيد ليفنغستون سميث من جامعة نيو إنغلاند درس ظاهرة العنف المفرط الذي تمارسه مجموعة من البشر تجاه مجموعة أخرى من البشر.

(غلاف الكتاب: يد بشرية ملطخة بالدماء)

في كتابه (أقل من إنسان: لماذا نذل ونستعبد ونبيد الآخرين؟[1]) يقدم البروفيسور ليفنغستون خلاصة دراسته عن هذا الأمر عبر مراجعة تاريخية لأبرز حالات الإبادة التي وصلتنا وثائق عنها، من ضمن هذه الإبادات التي ركز عليها في كتابه: حملات الفراعنة ضد أعدائهم، ما فعله المستوطنون البيض في السكان الأصليين لقارة أمريكا، الهولوكوست، مذبحة التوتسي في رواندا، وما فعله الجنجويد في سكان دارفور.

في كل هذه الحالات وسواها، يجد البروفيسور ليفنغستون ما هو مشترك ويكون ممهدًا لحالات الإبادة، ثمَّة نمط مشترك من التعامل «المسبق» مع «الفئة التي ستكون ضحية» في هذه الحملات.

حسب ليفنغستون، المشترك الأهم في كل هذه الحملات هو ما يسميه «Dehumanization» والترجمة الحرفية للكلمة هي «التجريد من الإنسانية» ولكن المعنى الذي يقصده ويتحدث عنه هو اعتبار الفئة المستهدفة أقل من بشر، حيوانات أو حشرات مضرة. في اللحظة التي ستقتنع أنَّ هذه الفئة رغم أنَّها ظاهريًّا تشبه البشر؛ فإنَّها ليست بشرًا في الحقيقة، إنَّ كل الاعتبارات الأخلاقية التي تتعامل بها مع البشر ستسقط، ومن ثَمَّ يمكن أنْ تفعل بها كل ما لا يمكن أنْ تفكر أنْ تفعله مع البشر.

---

(١) Less than Human: why we demean, enslave and exterminate others: David Livingstone Smith.

هناك في الغالب سياقات سياسية واجتماعية تتدخل في هذا الأمر وتستثمر فيه عند الضرورة، لكن الجانب الذي يركز عليه ليفنغستون هو «الجانب النفسي» الذي يسمح لـ«تجريد الإنسانية» أنْ يحدث أصلًا.

حسب ليفنغستون، هناك في الطبيعة البشرية عنصران يمكن أنْ يقودا إلى هذه الظاهرة. الطبيعة البشرية الأولى التي تساعد في هذا هي أنَّ البشر يميزون بين (المظهر الخارجي) للأشياء و(حقيقتها الجوهرية الداخلية). مثلًا: ليس كل ما يلمع ذهبًا، فقد تبدو المعادن الرخيصة من الخارج كما لو أنَّها ذهبٌ. لكنها ليست كذلك.

وهكذا يمكن للعقل البشري أنْ يتقبل فكرة أنَّ بعض الفئات تشبه البشر ظاهريًّا، لكنها في الداخل قد تكون وحوش مفترسة، أو قوارض طفيلية أو حشرات مضرة. وهذا يبرر أنْ تقضي عليها تمامًا. ضميرك لن يؤنبك لو قتلت وحشًا مفترسًا أو حشرة تنقل الآفات لبيتك ومحصولك.

(صورة لهرم تراتبي يظهر فيه طبقات المجتمع عند الإغريق، أو الطبقات حسب الرؤية الماركسية للعالم)

الطبيعة البشرية الثانية التي يمكن أنْ تساهم في «تجريد الإنسانية» هي أنَّ البشر تعودوا على رؤية العالم بشكل تراتبي، ضمن تسلسل يضع البعض -أو قيمًا معينًا- في القمة، ويضع دون ذلك الآخرين حسب تراتب محدد. هناك لكل ثقافة أو حضارة هرمها التراتبي الخاص بها، بعضها يضع الله أو الدين أو المؤسسات الدينية على قمة هذا الهرم، وبعضها يضع «المؤسسات الاجتماعية أو السياسية» في الأعلى، وبعضها يضع العرق، أو قيم حضارية معينة أو قيم الإنتاج والمادة.

وجود هذا الهرم التراتبي في طبيعة رؤية الإنسان للعالم يسهل أنْ يرى بعض الفئات (التي تشبه البشر، اعتمادًا على الطبيعة السابقة) كما لو أنَّهم دون البشر، subhuman. به بعض المواصفات التي تشبه البشر خارجيًّا، لكنه أقل منهم. ليس بشرًا.

(صور لنور كتيلي، مع صور مقتبسة من دراسته، من ضمنها الصورة الشهيرة لتطور الإنسان حسب داروين).

هذه الرؤية التراتبية منتشرة جدًّا. في دراسة رائدة قام بها «نور كتيلي» من جامعة نورث إيسترن في عام ٢٠١٥ وجد أنَّ أغلب الأمريكيين موضع الدراسة يضعون سلمًا تراتبيًّا للفئات البشرية حسب العرق أو الدين. في هذه التجربة قدمت صورة التطور الدارويني المشهورة للأشخاص المشاركين في التجربة وطلب منهم أنْ يقيموا وضع شعوب مختلفة ضمن هذه الصورة من التطور، أغلب المشاركين وضعوا الكنديين والأوروبيين واليابانيين في درجة التطور نفسها مع الأمريكيين، بينما وُضِعَ الصينيون، والكوريون الجنوبيون، والمكسيكيون في وضع تطوري أدنى، ووُضِعَ العرب والمسلمون في أقل درجة تطورية مقارنة بالأمريكيين.

من السهل تفسير الأمر بالإسلاموفوبيا وتكريس الإعلام لصورة معينة للعرب والمسلمين، وهذا صحيح، لكن لو فكرنا قليلًا بالأمر، لوجدنا أنَّنا نتعامل مع فئات بشرية كثيرة -أحيانًا من ضمن مجتمعاتنا نفسها- بالطريقة نفسها، ببساطة نعتبرهم أقل، أقل منا. نفعل ذلك لاعتبارات مناطقية أو دينية أو طائفية أو عرقية أو طبقية. نستطيع أنْ نتهم الغربيين بما نشاء، لكننا نفعل الشيء ذاته.. نعتبر أنَّ «فئة معينة» هي «دوننا...» قد لا يجعلنا هذا نرتكب الجرائم ضدهم بالضرورة، لكن هذه النظرة قد تجعلنا أقل اكتراثًا عندما نرتكب جريمة ضدهم.

هذا الاستعداد عند البشر إلى اعتبار بعض البشر أقل منهم، قد يساهم في مسؤولية الانتقال إلى «تجريد الإنسانية» التي تلعب دورًا أساسيًّا في تبرير ما يتعرض هؤلاء له من تعذيب، أو إبادة.

(صور لفتك الفراعنة بخصومهم منقولة من جُدران المعابد، الفتك بسكان أمريكا الأصليين، التوتسي يصورون كحشرات، ودعايات معادية لليهود في الثلاثينيات).

منذ أقدم العصور، وصف الأعداء بالحيوانات، وهذا الأمر قد يفهم مجازًا، مجرد وصف مهين، لكن التعامل معهم على أنَّهم حيوانات، دواب، يشير إلى أنَّ الأمر أعمق بكثير من مجرد «مجاز». والكلام لا يزال لليفنغستون. الفرعون «أمنمحات الأول» كان يجبر أعداءه على السير مثل الكلاب. المستوطنون البيض في أمريكا كانوا يبيعون لحوم السكان الأوائل في محلات قصابة لتكون طعامًا للكلاب. الهوتو كانوا يصفون التوتسي بأنَّهم «صراصير»، وتعاملوا معهم على هذا الأساس. النازيون كانوا يستخدمون دعاية مصورة يظهر فيها اليهود كأنَّهم هوام أو قوارض.

عندما تقتنع أنَّ هؤلاء ليسوا بشرًا، مجرد حيوانات «مفترسة» أو حشرات مضرة (ليست حيوانات منزلية مثلًا) فإنَّك ستكون أكثر استعدادًا لتقبل ما سيحدث بهم.. أو ربما حتى ستشارك بذلك. تاريخ البشرية شهد هذه الظاهرة باستمرار، ظاهرة التعامل مع الأعداء على أنَّهم ليسوا بشرًا. لكن النازية جعلت ذلك منهجًا منظمًا، نقلته إلى مرحلة أعلى.

(مشاهد لعملية وضع الأرقام على المعتقلين اليهود في معسكرات الاعتقال عبر الوشم)

حسب ما نملك من مصادر ومعلومات، النازيون كانوا أول من استخدم الأرقام بدلًا عن الأسماء للمعتقلين في المعسكرات. كانت عملية الترقيم مؤلمة جدًّا، تتم عبر وشم ناري حارق على الرسغ، والأرقام تكون حسب تصنيفات معينة. الذين يساقون إلى غرف الغاز فورًا ما كانت توضع لهم أرقام، لعدم الحاجة إلى ذلك. أما الذين يختارون للبقاء كسخرة، أو لإجراء التجارب الطبية عليهم، فقد كانوا يتحولون إلى أرقام. لم يكُن أي منهم يُنادَى إلا عبر هذه الأرقام.

للوهلة الأولى، قد يبدو أنَّ الأمر له عَلاقة بهوس التوثيق البيروقراطي الألماني. كل شيء يجب أنْ يوثق بالأرقام الدقيقة لتلافي أخطاء الأسماء وإمكانيات تشابهها. لكن الأرقام، وبهذه الطريقة، كانت تسلب المُعتقلين من إنسانيتهم، تحولهم إلى مجرد رقم. شيء له رقم. لكنه ليس بإنسان. الاسم له ذاكرة. عواطف. تجارب. معتقدات. أما الأرقام فهي جامدة. بلا ذاكرة. بلا مشاعر وبلا معتقدات. كل اسم من أسمائنا فيه جزء كبير من هويتنا وشخصيتنا وذاكرة تختزن كل مَن نادونا بهذا الاسم.

عندما يُسلَب الاسم منا. ونصبح مجرد رقم، فإنَّ كل ذلك يُسلَب منا أيضًا. الأمر لم يكُن فقط للتوثيق، ولا فقط للإذلال. لكن كان ضروريًّا بالنسبة لمصنع الإبادة النازية أنْ تحول هؤلاء إلى أرقام.. أشياء.. لأنَّ هذا سيجعل ما سيحدث بهم مقبولاً أكثر، منطقيًّا أكثر، عند السجَّانين أنفسهم.

عقول كبار الطغاة، والعقول المدبرة لعمليات الإبادة قد لا تحتاج إلى هذه الخطوة. لكنَّ المنفذين، الضباط، الحراس، الجنود المشرفين على ما يدور من عمليات تعذيب، هم في الأساس أشخاص عاديون،

«ليسوا مرضى نفسيين مثل كبار الطغاة».. ولكي يفعلوا كل ما يؤمرون به دون تردد، فهم يحتاجون إلى أنْ يروا هؤلاء المُعتقلين كمجرد «أرقام»، «أشياء». ليسوا بشرًا.

(مشاهد لسجلات فيها أرقام المعتقلين السوريين، صور لأشخاص ماتوا تحت التعذيب وتحتها أرقام، لا أسماء).

هذا الدرس النازي طبق في بيت خالة السوريين بحذافيره. لكن دون الوشم. كل مُعتقل صار عليه أنْ ينسى اسمه. يذكر رقمه فقط. يحفظه تمامًا. ولا يستخدم اسمه.

رشا شربجي اعتُقِلَت وأولادها الخمسة معها. أصبحوا جميعًا أرقامًا.

«**لم نَعُد أشخاصًا لدينا أسماء. بل أصبحنا مجرد أرقام لأشياء. ممنوع أنْ نستعمل أسماءنا. رقمي أصبح (٧١٤).. أولادي أصبحوا أرقامًا ملحقة برقمي..** (٧١٤-١، ٧١٤- ٢...)».

بعض المُعتقلين كان يحلم بأنْ يناديه الحارس باسمه الكامل. حتى لو كان يُنادَى لكي يُعذَّب. لكنه يريد أنْ يسمع اسمه. يستعيده. يرد بنعم على شيء يخصه، لا على رقم حل محل هُويته.

جزء من شهادة مهند غباش

(طالب حقوق في حلب، اعتُقِل بسبب مشاركته في التظاهرات السلمية)

«في بعض الليالي كان الضابط الذي يسمي نفسه «هتلر» يتسلى بنا، يجمع الضباط ليشربوا العرق، ويجعل بعضنا يتحول إلى طاولات ليضع عليها أقداح العرق وقناني الماء، وكراسي ليجلس عليها الضباط. آخرون كان عليهم أنْ يتحولوا إلى حيوانات يحددها هو، كلاب، قطط، دجاج،

وعليهم أنْ يقوموا بأصوات هذه الحيوانات، مَن يفشل منهم في تأدية الصوت كما يجب، يعاقب بشدة. كذلك كان على المُعتقل الذي يؤدي دور الكلب أنْ يظهر الشعور بالغيرة إذا قام هتلر بمداعبة معتقل آخر يقوم بدور الكلب أيضًا».

* * * *

غالبًا كان هذا الضابط الذي يسمي نفسه هتلر قد اختار الاسم لارتباطه بالوحشية فحسب، لكنه لم يكُن يدرك أنَّه يقوم بالضبط بتطبيق ما فعله النازيون بأعدائهم. في مصنع الهولوكوست تحول اليهود أولًا إلى

قوارض عبر الدعاية المضادة، ثُم إلى أرقام في معسكرات، ثُم أحرقوا جثثهم وحولوا أجزاء منها إلى «صابون». لقد تحولوا إلى «شيء» حرفيًّا.

(أجزاء من خطاب بشار الأسد وهو يصف المعارضين بالجراثيم)

في بيت خالة السوريين، تم وصف المعارضين أولًا بالجراثيم. ليس هذا صدفة. بل جزءًا من نمط تاريخي ممهد لِما سيحدث لاحقًا، القوارض، الصراصير، الكلاب، الفئران كلها أوصاف استخدمت لتبرير وتسهيل الإبادة القادمة.

الجراثيم أحقر بكثير من كل ما سبق، هي غير مرئية ولكنها تسبب أمراضًا خَطِرة، هي بالتأكيد في أدنى درجات التطور. قد تجد مَن يتعاطف مع الكلب، مع الفأر، حتى مع الصرصار... لكن مع الجراثيم... لا إمكانية هناك لتعاطف. وهذا كان مقدمة لِما سيحدث في «بيت خالة» السوريين. كل ما يحدث هناك، هو دليل على التجريد المنهج للإنسانية.

-٢٦-

(لو فكرنا قليلًا بالأمر، لوجدنا أنّنا نتعامل مع فئات بشرية كثيرة -أحيانًا من ضمن مجتمعنا نفسه- بالطريقة نفسها، ببساطة نعتبرهم أقل، أقل منا. نفعل ذلك لاعتبارات مناطقية أو دينية أو طائفية أو عرقية).

عندما قال أنس هذا لم أستطع إلا أنْ أفكر: هل فكر بي عندما كتب هذا الكلام؟ هل فكر بابن خالته الديري؟ هل كان يعتبرني بالفعل أقل منه - لأنَّه شامي أصيل، بينما أنا أمي شامية فقط، وأبي من الدير. أم أنَّ الأمر كله في ذهني فقط. لم يقُل لي أنس أي شيء عن هذا. ليس سوى نظرة واحدة رمقني بها ذات يوم وقالت الكثير. لكنه لم ينطق. أنس كان يعرف كل شيء عن شعوري تجاه الأمر. لا بد أنَّه كان يعرف.

مرة في الصف السابع، في بداية السنة، تجمعت عليَّ مجموعة من «زعران[1] الصف». «تأكلون بأيديكم في البيت أم بالملعقة والشوكة مثلنا»؟ «هل تسمون الملعقة خاشوقة»؟ «كم مرة تستحمون في السنة»؟ «هل تجلسون على الأرض أم على كراسي وكنبايات»؟ «هل صحيح أنَّ بيت جَدك خيمة»؟ كل هذه الأسئلة التي تعكس ما يعتقده بعض الشوام عن دير الزور أو درعا. كانت تلك هي المرة الأولى التي أتعرض بها إلى هذا الاستهزاء المباشر، ولم أكُن متوقعًا له، ولم أعرف ماذا أرد أصلًا وكيف أرد. يومها تدخل أنس، وقال لهم إني ابن خالته وإنَّ مَن عنده

---

(١) زعران: أشقياء، أصحاب مشاكل.

سؤال يستطيع أنْ يوجهه له. نال هو قليلًا من الاستهزاء يومها، جابهه باستهزاء مماثل يجيده هو، وانتهى الأمر.

شعرت بحرج عظيم منه، مرة لأنَّ كل هذه الأسئلة طرحت أمامه، ومرة لأنَّه أصبح صاحب فضلٍ عليَّ، ومرة لأني أحرجته، أصبح عليه أنْ يواجه أنَّ خالته تزوجت من «شاوي»[1]. لم نتحدث بالأمر إلى أنْ حدثت «الثورة».

كُنا على الغداء في بيت خالتي في الأشهر الأولى للثورة. قال أنس إنَّ النظام هو الذي فرق بين الشعب وجعلنا نصنف أنفسنا. هذا شامي وهذا برات السور وهذا فلاح وهذا حمصي وهذا حلبي وهذا ريفي وهذا مديني وهذا شاوي وهذا سني وهذا مسيحي وهذا علوي.

لا أزال أذكر حماس أنس. كان لا يزال في مرحلة رومانسية زهرية اللون متناسبة مع هتافات «واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد».

غاظني هذا جدًّا. أعرف تمامًا أنَّ النظام يمكنه أنْ يستثمر في كل ما هو موجودٍ من نعرات لتدعيم قوته وتثبيتها، لكن أنْ يكون هو الذي زرع كل هذه التصنيفات؟ هذا وَهمٌ يتداوله الثوار فحسب. تلك النظرة على وجه آنسة الابتدائية عندما قارنت بيني وبين أنس لم تكُن من صُنع النظام. رزان التي حاولت التقرب إليها في الجامعة، وأرسلت إليَّ مع صديقتها لتقول لي بما معناه: «أبي لا يقبل إلا بالشوام.. ومانك شامي» لم تفعل.

---

(١) شاوي: مفرد شوايا وهم قبائل البدو نصف الرحل، يفترض أنَّ الاسم يميزهم عن البدو الرحل الأكثر ارتباطًا بالإبل، بينما الشوايا يربون الشياه والغنم، يسكن هؤلاء في سورية محافظات الرقة والحسكة ودير الزور ومعظم ريف حلب الشمالي والشرقي، مع امتدادات في أرياف إدلب وحماة وحمص، مع العلم أنَّ سكان مدينة دير الزور يقصرون التسمية على سكان ريف المدينة فقط. للمزيد مقال: مقاربة لمسألة «الشوايا» في المنطقة الشرقية من سورية، سليمان الطعان.

ذلك بسبب النظام، بل بسبب نظرة متعالية موجودة تجاه كل ما هو غير شامي، خصوصًا عندما يكون «شاوي» حسب تصنيفاتها. «الشاوي» عندهم شتيمة أصلًا.

يومها قاطعت حماسه وأنا أسأله ببرود: «وقبل (الحركة التصحيحية)[1]، لم تكونوا تقولون (بعد الشام بشبر، فلاح)»؟

عم الصمت لثوانٍ. تنحنح والدي. قال والد أنس: «كل الناس خير وبركة يا ابني»، قالت أمي معتذرة عن سلوكي: «يزن مضغوط بالامتحانات ومعصب وبيحكي شروي غروي[2]».

لم يكُن كلامي شروي غروي. كنت واثقًا منه، مختنقًا به منذ سنوات طويلة. كنت على وشك أنْ أقول إنَّ زوج خالتي، والد أنس، الذي قال للتو «كل الناس خير وبركة» هو نفسه الذي قال: (بعد الشام بشبر فلاح) عندما حاول جاهدًا أنْ يمنع زواج أبي من أمي كي لا يكون عديله (شاوي). قال: ما كُنا نرضى بالفلاح، صرنا نرضى بالشاوي؟ على الأقل هذا ما أسرت به أمي إليَّ عندما عددت تضحياتها بزواجها من أبي ذات مشكلة بينهما.

رد أنس بحدة: «نعم، كانت موجودة قبل الحركة التصحيحية، لكنها زادت، ربما لو أنكم لم تدعموا النظام وتعملوا في جيشه وأمنه، لقلّت».

أصبحت الوجوه ممتقعة وغاضبة. الإحراج على وجه والد أنس، والغضب لدرجة الاحمرار على وجه أبي.. كما لو أنَّ الإشارة إلى «العمل في جيش النظام وأمنه» جرحته أكثر من أي إشارة أخرى. كانت لدى والدي عَلاقات واسعة بأمن النظام بحكم عمله أولًا في القضاء قبل أنْ يستقيل

---

(١) انقلاب حافظ الأسد عام ١٩٧٠.

(٢) شروي غروي: أي كلام فارغ لا معنى له.

ويتفرغ للمحاماة، عَلاقاته هذه مُسخَّرة تمامًا لمصلحة أصهاره وأصدقائه من الدمشقيين، رغم ذلك، وفي لحظة ما، يجد أنَّ هذه العَلاقات يمكن أنْ تكون «منقصة» له. أبي لم يجد يومًا من أصوله شيئًا ينقص منه. على العكس، كان يفخر بأنَّه ديري، ويلمح إلى الكرم والشهامة وأشياء من هذا القبيل. لكن الإشارة إلى «النظام» والعَلاقة بالنظام من قِبَل أشخاص اعتادوا الانتفاع من هذه العَلاقة إلى الحد الأقصى كان أمرًا مستفزًا له.

تمكنت خالتي وزوجها من احتواء كل ما حدث. أسكتنا أنا وأنس ولم يُفتح الموضوع مجددًا. تندر والد أنس على إعلان رامي مخلوف[1] قبل يوم بأنَّه سيصبح «رجل أعمال خيرية»، وتحدث أبي عن اشتباكات في طرابلس في لبنان وقال إنَّ توقيتها غريب، كما تحدثا عن زعيم القاعدة الجديد الذي نصب بعد مقتل بن لادن قبل ذلك بأسابيع، وعن خطاب مرتقب للرئيس خلال الأيام القادمة، وعن تحرك مفاجئ لسوق العقار في دمشق، يقال إنَّ رجال أعمال إيرانيين خلفه.

بقيَ أنس صامتًا، كذلك أنا. كان هناك الكثير مما يجب أنْ نتحدث عنه لننهيه أو نوضحه لكننا لم نفعل. حاول والدي أنْ يفتح أي حوار معه. ريال مدريد كان قد خسر أمام برشلونة في الدوري الإسباني قبل أقل من شهر. ما رأيك؟ كما لو أنَّ والدي ضغط على زر الأدرينالين عند أنس. شيئان كانا يفعلان ذلك مع أنس:

ريال مدريد وأصالة. ثُم جاءت الثورة لتكون مفتاح أدرينالينه الأكبر. تحمس أنس على الفور وهو يؤكد أنَّ ريال مدريد كان أداؤه أفضل من برشلونة رغم خسارته اللقب. والدي كان برشلونيًّا عتيدًا، لذا كان يمكن

(١) رامي مخلوف هو ابن خال بشار الأسد وأهم أصحاب الأموال والأعمال في سوريا.

أنْ يكملا مناكفة الحوار السابق بصيغة أخرى، دون أنْ يتدخل أحد لإسكاتهما.

كانت هذه آخر مرة أرى أنس فيها في سوريا، لم أره بعدها إلا بعد سنوات في ألمانيا. وعندما التقينا، لم نتحدث أيضًا عن هذا الأمر. حدث الكثير في السنوات التي مرت بحيث أصبح الكلام لا معنى له.

شعرت الآن كما لو أنَّ أنس كان يستأنف حوارنا الغاضب آنذاك، لكن بنضج ووعي، نعم، هناك مشكلة في نظرتنا لبعضنا، لكنها مشكلة لا تخص «الشوام» وحدهم، بل هي مشكلة في الطبيعة الإنسانية. نرى العالم من خلال هرم تراتبي بحيث نجعل البعض «أقل منا». كل منا يرى الفئة التي ينتمي لها على قمة الهرم، ويرى الفئات الأخرى «أقل» منه بمعايير مختلفة، قد يراها بخيلة أو قليلة الشرف أو تؤثر المادة على أي شيء. هكذا هم البشر. يقسمون العالم إلى مراتب وأصناف. ريف ومدينة. جوات السور وبرات السور. سُنة وشيعة. بدو وحضر. ليس الشوام وحدهم في ذلك. أبي نفسه يرى العالم بالطريقة نفسها، لكنه يضع الديرية في القمة. يعتقد أنَّ الديرية أكرم وأكثر شهامة ومروءة من الجميع. ولم يكُن ينسى أنْ يقول إنَّ الكل خير وبركة.

وجدتني قريبًا جدًّا مما يطرحه بعد كل هذه السنوات، كُنا على وشك المواجهة يومها، واليوم أسمع كلماته بعد موته فأجدها مقنعة لي بل وتدافع عني وعن موقفي. لم نكُن نتخيَّل كم ستقربنا هذه السنوات.

لم نكُن نعرف أنَّه بعد أيام من ذلك اللقاء، سيكون هناك خطاب «الجراثيم» الشهير الذي سيرد ذكره في فيلم أنس.

****

دخل أنس في مجال يفترض أنَّه أقرب إلى تخصصي. لكنه أبلى بلاء حسنًا، كالعادة. لا يمكن إنكار ذلك. هل هذا السيناريو إعداده وحده؟ أم أنَّ هناك مَن ساعده؟ هل ساعدته نور؟ أنس كان ذكيًّا بلا شك. لكن هذا السيناريو فيه عمق يتجاوز الذكاء.

ما عرضه أنس عن «التجريد من الإنسانية» يبدو مقنعًا جدًّا. هذا ليس من ضمن ما ندرسه مباشرة في تخصص الطب النفسي، علم نفس الجماهير ليس من اختصاصنا. الأفراد وحدهم يأتوننا، غالبًا نَصِف لهم دواء لتخفيف الأعراض التي يعانون منها. لكن أمراض جماهيرية مثل التي تحدَّث عنها أنس في الفيلم، ليست ضمن نطاق اختصاص الطب النفسي للأسف، أعترف أنَّها قد تكون أهم بكثير مما نتعامل به من الحالات الفردية، لكنها أكبر بكثير من مسؤولية «الطبيب النفسي».

بحثت عن البروفيسور الذي أشار إليه أنس. ليفنغستون. يبدو رصينًا للغاية. تسعة كتب منشورة وعشرات البحوث، وجائزة مُهمَّة عن الكتاب الذي أشار له أنس. محاضرات مسجلة على اليوتيوب في جامعات مرموقة. وضعت إشارة تذكير لعلي أتمكن من الاستماع لاحقًا لبعض محاضراته.

كطالب يدرس الطب النفسي، لم يخطر ببالي قط ما ذكره أنس. كنت أعتقد أنَّ «مسؤولي التعذيب» في المعتقلات لا بد أنْ تكون لديهم ميول سادية أصلًا، أو مشكلات نفسية يعوضونها عبر العنف تجاه ضحاياهم. مشاعر نقص أو عداء للمجتمع، أو تعرض لعنف سابق في الطفولة. لم أعتقد أنَّ الأمر يكون بشكل جماعي أو تكون له وسائل لتثبيته. رغم ذلك، لا أرى مانعًا من الاثنين، أنْ يكون ما قاله ليفنغستون عن «التجريد من الإنسانية» صحيحًا، وأنْ يكون المعذبين لهم ميول سادية أو اضطرابات

نفسية تسهل قيامهم بعمليات التعذيب. بالنسبة للطب النفسي: كل حالة هي حالة خاصة ومنفردة بظروفها.

«هل حاول أنس أنْ يتواصل مع سجَّان أو جلاد سابق.. مُنْشَق أو تائب»؟ سألت نور عبر الواتس آب.

- حاول بالفعل. لكنهم يخافون من تعرضهم لملاحقة قانونية، أو انتقام شخصي، لذا أنكروا جميعًا أي صلة لهم بالأمر، وهدده واحد أو أكثر باللجوء إلى الشرطة لو تواصل معهم مجددًا.

إذن كان أنس يفكر بأنْ يرى الأمر من وجهة نظر الجلاد.

- أين وجدهم؟

- دول اللجوء (معباية)[1] بهم. كثير من عناصر الأمن فُصلوا من عملهم أو سجنوا بسبب الرِّشَى أو عقوبات إدارية، هؤلاء استغلوا موجة اللجوء وجاؤوا بقصص عن اضطهادهم المفترض.. عدا آخرين لم يتعرضوا لشيء أصلًا لكنهم يريدون جنسية أوروبية فحسب، احتياطًا يعني.

- كيف تعرفونهم؟

- البعض منهم كان يتباهى بذلك أصلًا، وحساباتهم على الفيس بوك كانت مليئة بصور تشير إلى ذلك، طبعًا لا معلومات دقيقة عن تعذيب أو ما شابه، لكن البعض منهم كان يخدم في فروع أمنية معروفة بالتعذيب فيها.

---

(١) معباية: مليئة.

كان كلامها منطقيًّا. حتى لو أنَّ واحدًا منهم شهد صحوة ضميره، أو أنَّه كان بالأساس مُجبرًا على ما يفعل، من المُستبعد جدًّا أنْ يعترف لإعلامي بذلك. خوف الملاحقة القانونية والانتقام سيجبرانه على أنْ يكون ندمه بينه وبين نفسه.

حاولت أنْ أبحث عن نماذج مقاربة، اعترافات لمعذِبين سابقين. وجدت قليلًا منها. صحفي عُذِّب في الأرجنتين في أواخر السبعينيات

يقابل جلاده بعد سنوات طويلة. الجلاد في السجن لكنه مُصر على الإنكار. ثُم يتراجع عن الإنكار ويصر على أنَّه كان يخدم بلده، ينفذ الأوامر. يرفض بكل الأحوال أنْ يدلي بأسماء «ضابطيْن» كانا يشاركان في تعذيب الصحفي. يخاف من انتقامهما حتى وهو في السجن.

كان اللقاء نموذجيًا. في تصوري أغلب الجلادين سينكرون أولًا، وإذا تزحزحوا عن الإنكار فإنَّهم سيؤكدون أنَّهم كانوا ينفذون الأوامر فحسب. أعتقد أنَّ هذا سيكون في كل مكان، الأرجنتين وسوريا وكل مكان فيه تعذيب. بحثت أكثر لأرى إنْ كان هناك من درس الطبيعة النفسية للسجَّانين والقائمين على التعذيب. وجدت عددًا كبيرًا من البحوث، بعضها درس حالة الأطباء النازيين الذين أشرفوا على عمليات القتل والتعذيب، وبعضها درس تجارب أحدث في اليونان وتشيلي، الكثير من هذه الدراسات وجدت أنَّ «الطاعة العمياء» للسلطة هي المفتاح الأول في تكوين شخصية «المُعذِّب» وليس وجود ميول عُنف سابقة، هو يطيع كل ما يوجه له من أوامر بغض النظر عن منطقيتها أو انسجامها مع ما يؤمن به، وهذا يجعل «رؤساءه» ينتقونه لمهام التعذيب، ويتم ذلك بالتدريج، يحرس الأبواب الخارجية للمُعتقل أولًا، ثُم أبواب الزنازين، ثُم أبواب

«غرفة التعذيب»، في كل مرة يشعر أنَّه أصبح أكثر أهمية كلما اقترب أكثر من التعذيب، ثُم يدخل إلى داخل غرفة التعذيب دون أنْ يشارك، يشاهد فقط، ثُم فجأة يؤمَر بالانتقال إلى قمة الهرم، دور التعذيب الفعَّال. ويكون قد تأهل تمامًا -عبر هذه الخطوات المتدرجة- ليأخذ الدور وهو يشعر بأهميته وأنَّه أخيرًا نال الأمر.

دراسة أخرى عن «الأطباء النازيين» قام بها البروفيسور «روبرت جاي ليفتون» أشارت إلى أنَّ هؤلاء يضطرون لاتخاذ وسيلة دفاعية تمكنهم من الاستمرار بالدورين، دور المُعذِّب في المُعتقل، ودور الإنسان العادي الذي قد يكون زوجًا وأبًا وأخًا. هذه الوسيلة هي «المضاعفة» التي يقوم بها الشخص بخلق شخصية أخرى له، يعيش بها دور المعذِّب، لها عاداتها وطريقة كلامها وغالبًا يكون لها اسم مختلف، بينما تبقى شخصيته الأصلية يعيش بها حياته الشخصية خارج المُعتقل. بدا لي الأمر معقدًا جدًّا. وضعت علامة على اسم البروفيسور ليفتون صاحب هذا التفسير لأرجع له لاحقًا.

* * * *

قررت أنْ أشارك الأمر مع كنان. رأي طبيب من داخل التجربة غالبًا سيكون مُهمًّا. أعرف أنَّ كنان كان مُهتمًّا بالطب النفسي -على الأقل في أثناء سنوات الدراسة- ربما فكر في تفسير لقدرة بعض البشر على أنْ يكونوا بهذه الطريقة.

أرسلت إليه رسالة مختصرة عما وصلت له. رد عليَّ بكلمة واحدة.

- انس الأمر، لا تتعب نفسك.

- أنسى ماذا؟

- لا يوجد تفسير واحد. لكل منهم تفسيره الذي قد لا يعمل مع غيره وربما لا يكفي حتى له.

- كيف؟

- تشم رائحة طائفية واضحة مع واحد منهم، فتقول إنَّ دوافعه في التعذيب طائفية، ثُم تُفاجأ به يعذب شخصًا من طائفته نفسها بالحماس نفسه، وتجد شخصًا آخر من طائفتك نفسها ينافسه في القدرة على تعذيبك.

- الأول ربما يعذب بالحماس نفسه لابن طائفته لأنَّه يعتبره خائنًا مثلًا، والثاني ربما يريد أنْ يثبت للأول أنَّه ليس متعاطفًا معكم بسبب طائفته.. أقول (ربما).

- صحيح، ولكنها تبقى مجرد تخمينات، في الغالب لكل منهم له دوافع منفصلة ومستقلة عن الآخر، لكنها تشترك جميعها في النتيجة، التعذيب الوحشي الذي لا يتخيَّله بشر سوي.

- مثل ماذا؟ دوافع أخرى محتملة؟

- ربما يشعر بأنَّه غير مُهم لأنَّه غير متعلم، فيكون شديد الاندفاع بتعذيب كل من هو متعلم، ولكنه أيضًا ينغمس في تعذيب أشخاص بسطاء دراويش.. تشعر أحيانًا بحقد مناطقي ترتاح لتفسير أنَّه قد يكون الدافع، ثُم تجده يعذب ابن منطقته بالطريقة نفسها.. وهكذا.. لا قانون واضح ومحدد.

- ما رأيك بما قاله ليفتون عن المضاعفة، خلق شخصية مستقلة بديلة تستخدم داخل المُعتقل؟

سكت قليلًا ثُم أرسل:

- لا أعتقد. هناك معذب كان يصورنا في أثناء التعذيب، ويقول إنَّه سيعرض هذا الفيديو لزوجته في أثناء معاشرته لها.. الأمر يشير إلى وجود شعور بالنقص في رجولته بالتأكيد، لكن.. هذه حياته الأخرى، وهو يمزج بين الاثنين في هذا الفعل.

بقيت صامتًا. رغم عدد الحالات النفسية التي مرت عليَّ، لا يزال البشر قادرين على إثارة استغرابي.

- هناك سجَّان وسخ للغاية. ربما أوسخ مَن مر عليَّ. كنا نسميه «عاصي».. احزر ليش؟

- مِن العصيان؟

- لا.

- يمسك عصا دائمًا؟

- لا.

- خلص، عجزت.

- تيمُّنًا بعاصي الرحباني.

- عاصي الرحباني، لماذا؟

- لأنَّه كان يعذبنا بينما الموبايل في جيبه يصدح بأغاني فيروز.

- فيروز! رباه.

سيكون الأمر غريبًا أيضًا لو كان يستمع لأم كلثوم أيضًا، أو أي مطرب آخر. لكن فيروز!

- تعرف أغنية (رجعت الشتوية)؟

- طبعًا أعرفها.

أرسل إليَّ صورة، فم مفتوح دون سن أمامي. الملامح غير واضحة.

- هذا أنا. كسر لي عاصي سني الأمامي وهو يسمع (رجعت الشتوية).

- يا الله!

- وكسر لي ثلاثة أضلاع على (شايف البحر شو كبير).

لن أتمكن من سماع أي أغنية لفيروز بعد هذا.

- وقتل أحد الأطباء المُعتقلين ضربًا بالجِدار حتى الموت، بينما كانت الأغنية (كيفك أنت).

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أرجوك كنان لا تكمل.

- أعتذر منك صديقي، خبرني الآن أنت كيفك أنت؟

- ملّا أنت.

- قال بيقولوا صار عندك ولاد؟

- لا والله، ليس بعد. لكن ربما قريبًا.

- جد؟ ألف ألف مبروك، يجعلها جازة الدهر إنْ شاء الله.

أعتقد أني استعجلت بذكر الأمر بتفاؤل مبالغ به.

- لا يزال الأمر في بدايته جدًّا، والبنت لم توافق بعد، أنت تعرفها.

- مَن؟

- نور.

لم يرسل شيئًا لثوانٍ.

- نور نجار؟

مَن إذن؟ كم نور مشتركة بيني وبينه؟

- نعم، نور نجار.

لم يرسل شيئًا لثوانٍ أخرى. هذا الصمت غامض ويثير الشك. هل أمي تتواصل مع كنان؟

- ألف مبروك يا رب.

- ما رأيك بها؟

- ممتازة حتمًا، راكزة[1] وأكابرية وأخت رجال.

تخيَّلت أمي تترجم هذا الكلام بأنَّها (سمّاوية)[2] و(يخلالها بلد)[3]. أحسست أنَّ ثمَّة «لكن» في الكلام.

- هل كان هناك شيء بينها وبين أنس الله يرحمه؟

صمت مستفز أيضًا.

- إذا كان هناك شيء فقد كان محترمًا وضمن حدود مقبولة، لكن أقترح أنْ تسألها هي، لا أشك أنَّها ستجيبك دون تردد.

إذن كان من طرفها أيضًا، وليس من طرف أنس فقط كما كنت أتمنى.

أسألها؟ الآن؟

مستحيل.

---

(١) راكزة: ثقيلة، أكابرية: محترمة. أخت رجال: يعتمد عليها.

(٢) سماوية: ماكرة، مسمومة.

(٣) يخلالها بلد: واسعة الحيلة، قادرة على التعامل مع بلد كاملة.

شهادة -١٢-

منير الفقير

صوت وصورة. اسم حقيقي

«لا أنسى أبدًا منظر الجثث المتروكة في حمامات مشفى المَزَّة العسكري. كانت الجثث تنقل من المراكز الأمنية إلى المشفى لغرض إصدار شهادات الوفاة، ثم تسحل بعدها إلى الهناغر، لكنهم لم يكونوا يضعونها في الثلاجات، بل على أرض الحمام، بعض الجثث كانت لمتوفين للتو، غالبًا لم يكونوا قد ماتوا تمامًا إلا بعد أنْ وصلوا إلى المشفى. هناك شاب كنت أعرفه، من داريا، اسمه نبيل الأحمر، نقل من المركز الأمني على أنَّه جثة، لكنه كان لا يزال حيًّا، ومات على باب المشفى».

«الجثث كانت تنزف، أو تفرغ ما فيها من سوائل وفضلات، وكنا نضطر للدخول حفاة إلى الحمام، والمشي فوقها».

«المرعب أنَّنا كنا نتعود، في الأيام الأولى المنظر مرعب، وبعد أيام يصبح المنظر عاديًّا جدًّا، ندخل مضطرين لقضاء الحاجة، وندوس على الجثث التي تغطي أرض الحمام بالكامل».

«كل سرير في مشفى المَزَة العسكري كان عليه ستة مرضى تقريبًا، كل منهم مقيد بقدم واحدة إلى السرير، أحيانًا كثيرة كانوا يقضون حاجتهم على أنفسهم وعلى الباقين بجروحهم وإصاباتهم المختلفة.. بحيث يتحول كل سرير إلى مكان لانتقال العدوى».

«أحد المساجين كان معي على السرير نفسه امتنع عن الطعام لمدة شهر كامل، عاش على الماء، كي لا يضطر إلى الذهاب إلى الحمام والمشي على الجثث».

«كان هناك طبيبان، واحد اسمه ريمون، كان جيدًا في تعامله معنا ولم يضربنا قط، والآخر كان سيئًا للغاية، وكثيرًا ما كان يعدم المريض بيده، أو عندما يقول له مريض إنَّ لديه ألمًا في مكان معين كان يضربه على هذا المكان تحديدًا».

«بعض الحراس كانوا يدخلون للقتل لا على التعيين، يكون أحد أقاربهم قد قتل في جبهات القتال، فيدخلون لإعدام بعض الأشخاص دون تحديد فقط للتنفيس عن غضبهم».

«أحد الحراس أعدم واحدًا من مُعتقلي السخرة[1] لأنَّه لم ينظف الممر جيدًا».

«كان هناك سجناء لفصيل إسلامي في مهجع منفصل. ذات ليلة جاء لهم الضابط بمومس قال لهم إنَّها مصابة بالإيدز، وأمرهم أنْ يمارسوا معها الجنس الشرجي.. أو يقتلهم».

---

(١) معتقلي السخرة: هم معتقلون ولكن يسخرون لأعمال التنظيف في المُعتقل، ويستطيعون التنقل داخل جزء من المكان لغرض التنظيف أو أداء ما يكلفون به.

المقطع الرابع من الفيلم

(صور تركيبية لجثث مُكومة في حمامٍ، أَسرَّة مكتظة بمرضى مقيدين)

الشهادة السابقة لو حاولنا رؤيتها على ضوء فكرة تجريد الإنسانية، لوجدناها متسقة تمامًا.

الجثث مُكومة على أرض الحمام، براز ودم وبول مختلط بالجثث، وفي مكان يضطر كل المعتقلين إلى الذهاب إليه، بل يضطرون إلى المشي على الجثث، لأنها تملأ أرض الحمام.

لماذا يحدث ذلك؟

لكي يشعر المُعتقلون أنَّهم لم يعودوا بشرًا. فقدوا إنسانيتهم، هذه الجثث تعود لمن كانوا مثلهم، ذات يوم، بشرًا، ثُم صاروا مجرد كومة من اللحم والدم والبراز. وعندما يأتي دورهم في الموت، سيكونون مثل هذه الكومة. أقرب إلى الحيوانات. لا يعاملون كبشر حتى بعد موتهم. بل حتى الحيوانات تُعامَل أفضل منهم.

(لقطات من فيلم وثائقي «يوم واحد في أوشفيتز»).

في الفيلم الوثائقي (يوم واحد في أوشفيتز) تأخذ الناجية من الهولوكوست كيتي هارت موكسون جولة في معسكر أوشفيتز الذي اعتُقِلَت فيه عندما كانت في السادسة عشر من عمرها، في منطقة الحمامات تشرح كيف كان عشرات الآلاف يتزاحمون على الدخول إلى الحمام لقضاء حاجتهم، وكيف كان الأمر ينتهي بأنْ يتلطخ الجميع بالفضلات.

تقول كيتي إنَّ هذا كان يسهل على النازيين التعامل معهم على أنَّهم فضلات. ماذا تفعل مع الفضلات؟ تزيلها. تسكب الماء عليها لتذهب.

كلما كنت ملطخًا بفضلاتك وفضلات الآخرين فإنَّك ستكون أقل بشرية وأقرب إلى الفضلات.

الشيء ذاته مع ستة مرضى مقيدين على سرير واحد، يتبولون ويتبرزون على السرير ذاته. بعد أيام، سيكونون قد تحولوا إلى شيء منتزع الإنسانية، وهذا سيسهل على الكادر الطبي المتعاون أصلًا مع المؤسسات الأمنية أنْ يتعامل معهم لا كمرضى، بل كأشياء.

(عمر الشغري، صوت وصورة - اعتُقل وعمره ١٦ سنة، خرج بعد سنتين بعد أنْ دفعت أمه رشوة، وسُجل على أنَّه أُعدَم).

«عندما خرجت من المُعتقل، لم أكُن أفهم ما يحدث، قالوا لي إني سأُعدَم. ثُم تركوني في الشارع وكنت محنيًّا وعيناي مغطيتان، بقيت فترة طويلة هكذا، لم يكُن هناك أي صوت، أزلت الغطاء عن عيني، ونظرت إلى الشمس وأغمي عليَّ».

«أخذني الشخص الذي أشرف على موضوع الرشوة، نزلنا في دمشق، كانت الناس تنظر إليَّ باستغراب، ولم أفهم لماذا، لم أكُن واعيًا بمنظري. ذهبنا أولًا إلى فندق، رفضوا استقبالنا. قالوا لنا أنتم كنتم في سجن صيدنايا، لا نستقبلكم. ذهبت إلى المشفى. مشفى خاص. الطبيب سألني أين كنت ولماذا شكلي هكذا. قلت له إني كنت في سجن صيدنايا. الطبيب رفسني بقدمه عندما سمع ذلك. والممرضات أخذن يضربنَني. ألقوني خارج المشفى. لم يخرجوني. بل ألقوني حرفيًّا. رفسًا وركلًا ودفعًا».

«بعد أشهر من وصولي إلى السويد، كنت لا أزال عاجزًا عن النوم بشكل طبيعي في السرير، أتكور على نفسي وأستند على الجِدار في طرف السرير، هكذا أنام، بالمساحة المتاحة نفسها لي عندما كنت في السجن».

(صوت أنس مع صور لعمر الشغري)

تجربة السجن بكل ما فيها من تعذيب وهزال وربما أشياء أخرى كانت واضحة على مظهر عمر جعلت الناس خارج المُعتقل تتعامل معه أيضًا على أنَّه «شيء» لا يستحق العناية أو الاستقبال. هل هو الخوف من النظام أم أنَّ النظام قد تمكَّن بالفعل من ترسيخ «لا إنسانية» كل مَن يعتقل في نفوس الناس؟ هذا الحماس في طرد عمر وركله لا يعكس أنَّ الأمر مجرد خوف من النظام.

كان هناك نجاح للنظام في جعل عمر يبدو -في عيون مَن هو خارج المُعتقل أو بعضهم على الأقل- كما لو كان مجرد «شيء».

* * * *

(صور متداخلة بين الهولوكوست النازي وضحايا المُعتقلات في سوريا، على نحو يشير إلى وجود التشابه والتطابق أحيانًا).

رغم أنَّ بيت خالة السوريين قد استفاد من تجربة الهولوكوست النازي استفادة مباشرة عبر استشارات ألويس برونر، لكنها كانت استفادة في الوسائل، التقنيات، أما الأهداف فقد كانت مختلفة، ويجب فهم هذا الاختلاف لأنَّه جوهري.

الهولوكوست كان له أهداف متدرجة.. بدءًا من عزل اليهود وإقصائهم عن المجتمع الألماني -ثُم الأوروبي- ثُم تطور إلى فكرة ترحيلهم بعيدًا عن أوروبا (ما يعرف بخطة مدغشقر في شرق إفريقيا) وهي الفكرة التي

وافق عليها هتلر، ولكن منع تنفيذها سيطرة الحلفاء على الممر البحري المؤدي إلى الجزيرة، ومن ثَمَّ برز الحل الأخير كهدف نهائي، وهو إبادة كل اليهود.

«بيت خالة» السوريين أمره مختلف. الهدف كان واضحًا وثابتًا منذ البداية. لم يتدرج ولم يتغير. الإبقاء على نظام الحكم مهما كان الثمن.

(خطاب بشار الأسد في افتتاح مؤتمر وزارة الخارجية والمغتربين بتاريخ ٢٠/ ٨/ ٢٠١٧)

في هذا الخطاب، صرح بشار الأسد بشكل واضح عن أشياء كان يلمح لها سابقًا، منذ خطاب الجراثيم الشهير، في هذا الخطاب، بعد ست سنواتٍ من الحرب، يقول بشار الأسد إنَّ بلاده قد خسرت خيرة شبابها، ولكنها بالمقابل ربحت «مجتمعًا صحيًّا متجانسًا». إذن؛ المجتمع الصحي المتجانس، هو الذي ربحه بشار الأسد.

من المنطقي إذن، إنَّ معايير «الصحة» والتجانس هنا هي المعايير التي تبقي نظام عائلة الأسد في الحكم. المجتمع الصحي المتجانس هو المجتمع الخانع الخاضع لحكم آل الأسد. دون أنْ يفكر بالمساس بذلك.

يختلف الأمر إذن عن إبادة الهولوكوست لليهود، وأقرب إلى القضاء على «شهود يهوه» أو «الشيوعيين» أو «أصحاب الميول الجنسية المختلفة» ضمن الهولوكوست نفسه. هو أصعب من ناحية، وأيسر من ناحية أخرى. أصعب من ناحية تحديد «الجهة المستهدفة»، اليهود معروفون، هم يهود منذ ولادتهم، لا يمكن تغيير ذلك.

أما من لا يتجانس مع معايير نظام الحكم، فهو يمكن أنْ يكون أي شخص، الأمر لا يقتصر على عرق أو طائفة أو دين أو منطقة جغرافية.

الاستهداف لا يمكن أنْ يحدث إلا بعد التحديد، والتحديد هنا صعب، ليس كما يحدث عندما تستهدف طائفة أو عرقًا معينًا.

أما الأيسر، فهو أنَّ «الكلفة البشرية» قد تبدو أقل من كلفة الهولوكوست، رغم أنَّ النظام لم يكترث قط لذلك.

(صفحات من تقرير الهيئة العليا لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة - ٢٠٠٤)

يقول التقرير الصادر عن الهيئة العليا لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة عن التعذيب ووسائل الحد منه، إنَّ الكثيرين من مقترفي جرائم التعذيب يحاولون تبرير أفعالهم بالقول إنَّهم يلجؤون إلى هذه الوسائل لجمع معلومات ضرورية، لكن مفاهيم كهذه تشوش على الغرض الحقيقي للتعذيب ونتائجه حيث إنَّ أهم أهداف التعذيب هو وضع الضحية في أشد حالات اليأس والكرب مما يؤدي إلى التدهور في فعالياته الاجتماعية والعاطفية والعقلية (حتى بعد انقضاء فترة طويلة على التعذيب).

بهذه الطريقة، فالتعذيب أبعاده أعمق بكثير من إحداث الألم الجسدي المباشر للضحية، بل المستهدف هو شخصيته وعَلاقاته بمن حوله وثقته بمجتمعه ومحيطه.

ثلاثة أهداف مركزية للتعذيب على المدى البعيد أعمق وأهم بكثير من «الحصول على المعلومات». أولاً، تجريد الضحية من إنسانيته.. تحويله إلى مجرد «شيء». ثانيًا، ترويع الباقين خارج المُعتقل عندما يسمعون بما يحدث.. وثالثًا، كسر إرادة الضحية، كسر أحلامها وطموحاتها وأسرها بقية العمر في شراك الآثار المستديمة للتعذيب..

هنا يختلف بيت خالة السوريين عن الهولوكوست. المشترك هو «التجريد من الإنسانية».. لكن الهولوكوست ينتقل إلى الإبادة. بيت الخالة يذهب إلى الهدفين الآخرين.. ترويع الباقين، وتحطيم الناجين.

****

شهادة -١٣-

هيثم سقباني

اسم مزور - وجه مخفي - صوت صريح

«أخذوني من مكان عملي. وضعوا الطماشة على عيني ولم أرَ شيئًا. عندما وصلت ما تصورت أنَّه الفرع الأمني ضُربت حتى أغمي عليَّ... أو لا أعرف ماذا حدث.. استيقظت ووجدت نفسي في عنبر كبير مليء بالجثث.. الكثير منها كانت مغلفة بأكياس. لم أفهم أين أنا. لدقائق اعتقدت أني في الآخرة. أني مت وأنَّ هذه هي الآخرة. أو أني في كابوس. ثُم بدأت أدرك بالتدريج أني في مكان لخزن الجثث، واعتقدت أنَّهم وضعوني هنا لأنهم تصوروا أني مت. بالخطأ يعني. لم أعرف ماذا أفعل غير أنْ أستمر بالتظاهر في الموت. عسى أنْ أنجو هكذا. فُتح باب العنبر وأدخلوا المزيد من الجثث، كانوا يغنون ويضحكون بينهم، لم ينتبه لي أحد. بعد ساعات جاء عنصر وصار يضربني في بطني. عرفت أنَّهم تركوني عمدًا هناك وأنَّهم يعرفون أني على قيد الحياة».

«تركوني يومين دون طعام، في صباح اليوم الثالث طلبوا مني أنْ أختار جثة من الجثث لكي آكل لحمها. قلت لهم إني لا أريد أن آكل أي شيء. تركوني يومين آخرين. جاؤوا وطلبوا مني أنْ أختار جثة لآكلها، رفضت، فقالوا إني إنْ لم أختر، فإنَّهم سيأتون بابن أختي ويشوونه أمامي، ويجبرونني أنْ آكله».

«جاؤوا بجثة امرأة في الخمسين، ممتلئة، عارية تمامًا، وثدياها مقطوعان. لم أعرف إنْ كانوا قد قطعوهما وهي حية أم بعد أن ماتت».

«... كان هناك طفل عمره ٨ أو ٩ سنوات، لا يتجاوز العشر سنوات بكل تأكيد، اغتصبه العنصر، وصوره وهو يغتصبه.. ثُم أخذ يريه ڤيديو اغتصابه وهو يضحك.. والطفل يبكي».

«كنت متأكدًا مِن أني سأموت.. لا أعرف كم عدد الجثث التي رأيتها، لكني اعتقدت أنَّ كل من يدخل هنا يموت.. تصورت أنَّه لن ينجو أحد».

«لم أعرف لماذا اعتُقِلت.. ولا لماذا عُذِّبت.. لم يُجرَ معي أي تحقيق.. لم يسألني أي أحد أي سؤال... وعندما أطلقوا سراحي فجأة بعد أسبوعين لم أفهم لماذا أيضًا».

«الآن أفهم.. كانوا يريدون أنْ أتحدث عما رأيته.. يعتقلون البعض مثلي فقط لننقل الرعب الذي يحدث إلى الناس... اعتقلوني لهذا السبب وعذبوني لهذا السبب وأطلقوا سراحي لهذا السبب».

«أتحدث الآن لسبب معاكس. أتحدث كي يعرف الناس. كي لا يسمحوا بتكرار هذا الشيء».

شهادة -١٤-

شاهر محمد طارق يونس

فرع فلسطين/ فرع الأمن العسكري حلب

«علقوني عاريًا في رافعة جنزير بلنكومن التي تستخدم في رفع محركات السيارات، ضربني السجَّان وشتمني ثُم ذهب.. فوجئت أنَّ هناك فتاة شابة عارية تمامًا معلقة في رافعة مقابلة. كانت آثار التعذيب ظاهرة عليها.. بقع لحروق على صدرها وإبطها، عرفت لاحقًا أنَّهم يطفئون سجائرهم هناك، وهناك دم متجمد على فخذيها. أنفها ينزف، وشعرها محلوق بطريقة عشوائية، جزء من فروة رأسها ظاهرة».

«عرفت من كلام السجَّان معها أنَّ اسمها منال، طالبة جامعية من دمشق، وتهمتها كانت أنَّها أرسلت رسالة نصية إلى (قناة معارضة)، كان يضربها بالبوري الأخضر الذي نسميه الأخضر الإبراهيمي وهو يسألها عن هذه الرسالة.. لم تكُن تقول أي شيء، تئن فقط وتدعو الله أنْ يخلصها، كانت تقول له أحيانًا: مشان الله. فيرد: الله غير موجود الآن.. خرج. وعندما كانت تقول له: مشان النبي، كان يرد عليها: النبي مجاز اليوم».

«كنت أشعر أحيانًا أنَّ منال أقوى مني، أقرأ في نظراتها شفقة عليَّ وعلى ما أتعرض له، وأحيانًا أقرأ في نظراتها استغاثة، ويجعلني أشعر هذا أيضًا بالضعف. لم نتبادل كلمة واحدة. لكن كل شيء كان مفهومًا».

«تناوب علينا عدة سجَّانين، أكثرهم حضورًا كان (أبو ربيع)، كان أكثرهم تركيزًا على الجنس، يجبر منال على النظر إلى عورتي، ويسألها

إنْ كانت تعجبها، ويحاول أنْ يحفزني جنسيًّا عبر استخدام (الأخضر الإبراهيمي) ليحك عورتي... ثُم بعد ذلك يضربنا على نحو هستيري».

«في اليوم الثالث للتعليق، دخل أبو ربيع وأخذ يتوعد ويشتم وهو يشرب الشاي من قدح في يده، ثُم أخذ يسكب الشاي على عضوي التناسلي، وكان ساخنًا جدًّا، فأخذت أصرخ من الألم، وأخذت منال تصرخ بشكل هستيري، فضربني بقدمه في بطني وعلى أسفل بطني، ثُم أخرج (الولاعة) من جيبه، وأشعلها واقترب من منال وأحرق شعر عانتها. آخر ما أتذكره كان رائحة الشياط، ثُم رحت في غيبوبة».

«عندما أنزلوني، كانت منال على الأرض. ملفوفة في كيس نايلون، وعلى جبينها رقم».

«كان هناك معنا شخص ثالث مُعلق أيضًا، لكن أبعد قليلًا، لم أنتبه لوجوده إلا عندما كلمه السجَّان. صيدلي من درعا. كان مُعلقًا قبلي، وعندما أنزلوني، كان لا يزال مُعلقًا. لا أعرف ماذا حدث له».

«في مرة أخرى، كانت هناك فتاتان، أخرجهما السجَّان من مهجع النساء، ونادى على عساكر السخرة[1] وقال لهم (شوفوا شغلكم). كانوا خمسة أو ستة عساكر تناوبوا على اغتصاب الفتاتين».

«ربما كان الجوع من أصعب ما مررنا به في السجن. بسبب سوء الأوضاع وقلة النظافة، كانت أقدامنا تنتفخ وتتشقق، تصبح جلود الأقدام مثل جذع شجرة بخشونته وملمسه. وبسبب الجوع الشديد، كنا

---

(١) عساكر السخرة: هم جنود يقضون مدة خدمتهم الإلزامية في المعتقلات ويقومون بالحراسة أو التنظيف، أي أنَّهم ليسوا عناصر ثابتة في الفرع الأمني، وهم مختلفون عن معتقلي السخرة الذين يكونون معتقلين ويكلفون بمهام التنظيف والخدمة.

نأكل جلد أقدامنا... أحيانًا كان البعض يتمادى، فيأكل أيضًا جلد قدم زميله الجالس بجانبه».

«بعض المُعتقلين هم عناصر أمنية ارتكبوا مخالفات إدارية فيحكم عليهم ويعتقلون معنا لفترة ولكن معاملتهم تكون مختلفة، عادة يكون هذا المعتقل هو (الآمر الناهي) داخل المهجع، ويقوم بالتعذيب مثله مثل أي سجَّان. أكثرهم قذارة كان (أبو شادي)، مسؤول الحاجز الأمني بمدخل جرمانا[1].. (أبو شادي) هذا قتل ثلاثة معتقلين في يوم واحد، خلال فترة لا تتجاوز الساعتين أو أقل».

«القتيل الأول هو عبد الحليم، شاب بسيط درويش من حلب، ذهب ليتفقد بيته الواقع في مناطق التماس بين الجيش الحر وجيش النظام، أوقفه الحاجز ومنعه من الدخول لوجود قناصة، عبد الحليم قال لهم بطريقة عادية (قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، فجن جنونهم لأنَّه استخدم آية قرآنية في الحديث معهم. اتهموه بأنَّه داعشي. بل أنَّه أمير داعش. جلدوه بسلك معدني سبب له جروحًا بقيت مفتوحة لفترة طويلة، ثُم ضربوه بكيبل حديدي على رأسه، عندما وصل إلينا كان قد أصيب بلوثة في عقله... في يوم في أثناء تعنيف وشتم (أبو شادي) لنا قاطعه عبد الحليم قائلًا (لو سمحت هات لي كاسة ماي) وكان هذا أمرًا ليس منطقيًّا وأثار غضب (أبو شادي) ولكن قال لبعض المُعتقلين أنْ يجلبوا له قدح ماء، بالصدفة الذي جلب له القدح كانت يده موشومة، فرفض عبد الحليم أنْ يأخذ الماء منه وقال إنَّ الوشم حرام. هنا جن جنون أبو شادي وظل يضربه إلى أنْ مات».

---

(١) جرمانا: ضاحية جنوب شرق دمشق.

«كانت القوانين في المهجع أنْ نبلغ الحارس عندما تحدث حالة وفاة. ندق الباب ونقول (فلان فطس). ممنوع منعًا باتًا أنْ نقول فلانًا مات. كلمة فطس أساسية في التبليغ بالوفاة وإلا تعرضنا للضرب. يومها أبلغنا الحارس بأنَّ عبد الحليم (فطس). فقال لنا أنْ نلفه في بطانية وننتظر بينما يعد هو الشاي ليشربه».

«القتيل الثاني كان صيدلانيًّا أصيب بإسهال شديد وصار يقضي حاجته على نفسه دون قدرة على التحكم، وساءه ذلك فأخذ يدعو الله بصوت مرتفع أنْ يميته.. وأزعج هذا أبو شادي فقام وأخذ يدوس على بطنه إلى أنْ مات».

«عندما أبلغنا الحارس بأنَّ فلانًا فطس، قال إنَّه لم ينتهِ بعد من الشاي (ضعوه في بطانية)».

«القتيل الثالث كان مهندسَ معلوماتية، تحدث بصوت مرتفع عن تأخر الطعام، وكان هذا يعتبر جريمة وقلة أدب، فقام أبو شادي بوضع رأسه أمام الجِدار على الأرض، وأخذ يركل بقوة على الرأس إلى أنْ دخل في غيبوبة، ومات بعد قليل».

«عندما بلغنا الحارس بأنَّ فلانًا الثالث قد فطس، نهرنا قائلًا أنْ لا نقاطعه في أثناء شرب الشاي. كنا أتفه من أن يترك تحضير الشاي وشربه من أجل موت واحد منا أو ثلاثة».

«كان هذا هو المهجع رقم ١٠ في فرع فلسطين معروف بمهجع الموت لارتفاع نسبة الوفيات فيه... يوم خرجت من الفرع، كنا اثنين، أنا وشخص آخر خرجنا معًا، أما الوفيات فقد كانت إحدى عشرة وفاة في يوم واحد».

«قضيت أربع سنوات في المُعتقل، منها ١٤ شهرًا داخل زنزانة منفردة. كانت الفترة صعبة جدًّا، لكني لم أكُن قادرًا على تحديد إنْ كانت هذه الفترة أفضل من سواها أو لا. في المهجع الجماعي، كان الاكتظاظ يمنعنا من النوم بشكل يقترب من الطبيعي، كنا أكثر من ١٠٠ شخصٍ في غرفة لا تتجاوز مساحتها ٤ في ٥ أمتار.. كنا نقسم اليوم بيننا على ثلاث مناوبات، ثماني ساعات وقوفًا، وثماني ساعات جلوسًا، وثماني ساعات نومًا بأنْ نضع رؤوسنا بين أقدامنا، ولكن عمليًّا ما كان من الممكن الحصول على هذه الساعات الثمانية بسبب العقوبات والأصوات والاكتظاظ، في الزنزانة المنفردة كنت تقريبًا أستطيع النوم وأنا مُمدد. ليس مُمددًا تمامًا، لكن نسبيًّا».

«من أنواع العقوبات المستخدمة كان عقوبة الـ(٥٠٠) وتتألف من ٥٠٠ ضربة على جسد المُعتقل يتناوب على أدائها عدة سجَّانين، كلما تعب واحد جاء آخر، وضع العقوبة كان الاستلقاء على البطن ثُم رفع القدمين، ثُم تنهال الضربات بالأخضر الإبراهيمي على أي مكان.. القدمين.. الظهر.. الرأس... كثير من الشباب توفوا في أثناء هذه العقوبة».

«من أنواع العقوبات أيضًا الحرمان من الطعام، ويحدث بأنْ تُرمى وجبات الطعام في دورات المياه، وتبليغنا بذلك.. أحيانًا كنا نمتنع عن الطعام بأنفسنا لكيلا نضطر إلى قضاء حاجتنا... الدور على قضاء الحاجة كان يستغرق وقتًا طويلًا، غالبا ٣٦ ساعة.. إذا سجلت على الدور في الثامنة صباحًا، فإنَّ دوري سيحل في الثامنة مساء في اليوم التالي».

«كنت أشعر أني داخل مسلسل رعب بلا حلقة أخيرة. أحسد من تأتي حلقتهم الأخيرة بالموت. وأتساءل، متى أرتاح وأموت... مسلسلي كان طويلًا جدًّا.. كنت أتمنى الموت فقط».

«كنت أقضي الوقت في أحلام يقظة تبدو اليوم غريبة جدًّا. أحلم بأنْ تأتي توصية من جهة عليا في الدولة، جهة تقول إنَّ فلانًا يخصنا وتأمر لي... بسندويشة. سندويشة فقط. هذا ما كنت أحلم به».

«كُنا نحلم أيضًا بالملح والسكر. الطعام كان خاليًا تمامًا من الملح. والسكر كان يعتبر رفاهية لا نستحقها».

«لم أكُن أتوقع أنْ أنجو، ولا أزال أتعامل مع خروجي كمعجزة. اعتُقِلت من منزلي في حلب وكنت في فترة النقاهة من عملية جراحية، الضمادات لا تزال في بطني، ومحلول السيروم معلق في يدي. اعتُقِلت هكذا. وأنا أصلًا شخص معاق، لدي شلل أطفال. عندما نُقلت من حلب إلى دمشق سحلوني على أرض مطار المَزَّة، وضربوني في أثناء ذلك وفي الاستقبال في المطار على مكان إعاقتي تحديدًا، مما سبب لي كسرًا في مفصل الساق لم يعالج إلا عندما ذهبت بعد سنوات إلى فرنسا.. لياقتي الصحية عمومًا كانت سيئة قبل دخولي المعتقل، لذا لم أتوقع أنْ أنجو، كنت أرى من هم أفضل مني لياقة بدنية يموتون.. لذا كان موتي أمرًا طبيعيًّا جدًّا، كنت أشعر أصلًا أنَّ الموت بيننا في المهجع، لكننا لا نعرف أين يجلس، وعندما يموت واحد منا، كنت أفهم أنَّ الموت كان يجلس بجانبه».

«لم يكُن البقاء على الحياة هاجسًا لي.. كان هاجسي أنْ يعرف أهلي أني قد نقلت إلى دمشق. كنت أعرف أنَّهم يبحثون عن الجثث في حلب، وكنت أريد منهم أنْ يعلموا أني هنا في دمشق، وأنْ يبحثوا عني بين الجثث في دمشق».

«تعرفت إلى صديق هناك اسمه صفوان، من حلب أيضًا. كُنا نقضي الوقت في أحلام يقظة بسيطة، أنْ نخرج من المُعتقل وأدعوه عندي في

البيت على «السندوانات»[1] من يد والدتي، أو يدعوني هو على «المامونية»[2] من صنع والدته. صفوان كان يحب فتاة ويرغب في الارتباط بها، لكن والدته كانت ترفضها وترغب في تزويجه من قريبة لهم. ذات ليلة قال لي صفوان إنَّه يشعر أني سأخرج قبله، وأوصاني أنْ أذهب إلى والدته وأنقل لها سلامه، وأخبرها إنَّه يقبل بالزواج ممن ترضى هي، ويطلب منها أنْ تعد له (المامونية)... نمنا ليلتها، واستيقظت بعد ساعات، ولم أجد صفوان. سألت عنه. قالوا لي إنَّه مات ونُقل في أثناء نومي. لم أستطع أنْ أنفذ وصيته.. ولا يزال الأمر يعيش معي».

«في إحدى جلسات التحقيق وضعوني في مغطس مليء بالماء القذر. كل جسدي مغطى بالماء عدا رأسي. ثُم جاء المحقق بخشبة مربوطة بسلك كهربائي، ووضعها في الماء. كانت الصاعقات الكهربائية في كل جسدي، عدا الألم الهائل لم أكُن قادرًا على التنفس، عندما كان يرفع الخشبة من الماء كنت آخذ شهيقًا فقط. هذا كل ما كنت أريده. في أثناء ذلك دق هاتف المحقق. فأوقف التعذيب ورد عليه. فهمت أنَّه يحدث ابنه، (بابا شو علمتكم الآنسة اليوم بالإنجليزي؟ طيب شو معنى banana؟ صحيح. شو معنى apple؟ تفاحة. نعم بابا). كان يدلل ابنه كما يفعل أي أب رؤوف لطيف بأولاده. ثم يستأنف التعذيب بالكهرباء».

«في أواخر صيف ٢٠١٣ حدث شيء غريب لم نفهمه. فجأة توقف التعذيب والتحقيق. قالوا لنا سنترككم للموت تحت الحجر والتراب. لم نفهم ماذا يقصدون. أعطونا تعيين «الخبز» لأسبوع بدلًا من التعيين

(١) السندوانات: أكلة حلبية، مشابهة للقبوات في دمشق أو الممبار في مصر، وتعتمد على حشو أمعاء الخروف بالرز.

(٢) المامونية: حلويات مكونة من سميد وسمن وسكر.

اليومي المعتاد واختفت أصوات الضباط والسجَّانين. فقط أصوات عساكر الخدمة الإلزامية.

بعد أشهر تمكنا من فهم ما حدث. كانت مذبحة الغوطة التي استخدم فيها سلاح كيمياوي قد حدثت في تلك الفترة، وكانت هناك احتمالية أنْ تحدث ضربة عسكرية أمريكية على مقرات النظام، وشاع أنَّ فرع فلسطين من ضمن هذه المقرات التي يحتمل أنْ تُقصف. كانت خطتهم هي إخلاء الفرع من الضباط وعناصر الأمن، وترك المُعتقلين للموت تحت القصف».

«نقلت إلى سجن عدرا بعد قرابة السنتين. الأمور كانت أفضل بالمقارنة بما سبق. امتحنت بكالوريا أدبي ودخلت الجامعة عن طريق الانتساب. علوم سياسية. لكن فُصلت عندما صدر عليَّ الحكم بتهمة التطاول على حزب البعث».

«بعد أربع سنوات خرجت من المُعتقل شخصًا آخر، كل الذكريات بكل التفاصيل لا تزال تعيش معي. يكفي أن أرى شخصًا يشبه أحد المُعتقلين أو يمر اسم شخص يشبه اسم أحد المعتقلين حتى أتذكر كل شيء. لا أزال أنام بطريقة معينة، يجب أنْ أتمسك بشيء كي أتمكن من النوم. طرف منضدة أو دولاب. يجب أنْ أرتب طريقة نومي بحيث يكون السرير قريبًا من شيء صلب أتمسك به. كما لو أني على شيء غير ثابت وأحتاج إلى شيء لأحفظ توازني.. كل مناماتي هي عن المُعتقل وفي المُعتقل. كل ما مررت به يسكنني بشكل دائم».

«لدي شعور دائم ومؤلم بالذنب، الذنب لأني خرجت ونجوت وبقي خلفي آخرون لم يخرجوا.. أو ماتوا».

«لا أريد أنْ أنسى، بل أني أصر على التذكر، على حفظ التفاصيل، أشعر أنَّ نسياني لشيء هو خيانة لكل مَن مات في المُعتقلات أو مَن بقي فيها. لذا أريد أنْ أحكي كل شيء، وأوصل صوتي إلى كل مَن يسمع».

«الناس تعتقد أنَّ التعذيب يحدث لكي نتكلم. لانتزاع الاعترافات، في الحقيقة التعذيب يحدث لا لنتكلم بل لكي نسكت جميعًا. لكيلا يكون هناك صوت واحد ضدهم.. أعرف أنَّ معرفة تفاصيل ما حدث في المُعتقل قد تجعل البعض يخنعون ويستسلمون للنظام، لكني واثق أنَّ هناك آخرين سيتشكل عندهم -ولو بالتدريج- وعي رافض لكل هذا النظام».

«يجب أنْ نتكلم... يجب أنْ نتكلم ونقول ماذا حدث...».

****

جملته الأخيرة تتكرر ويصبح لها صدى، تتداخل مع عبارات أخرى قيلت في الشهادات السابقة (لن أنسى، لا أريد أنْ أنسى..).

نرى لقطات صامتة لأصحاب الشهادات السابقة.. بعضهم يمسح دمعة.. أو ينظر إلى الأرض مطرقًا.. أو ينظر بثبات إلى الكاميرا..

الجملة الأخيرة لا تزال تتردد مع صدى.. بالتدريج يتداخل صوت شاهر مع صوت أصالة.. يبدأ خافتًا ثُم يرتفع بالتدريج...

حبيبي أنا عاملة مش سمعاك

عشان خايفة لا يوم أتهد

مانا من كُتر أوجاعي

بخاف أوصف مشاعري لحد

بخاف على بُكرا من بُكرا

وأخاف دايمًا أنا من الجاي

وقلبي مات على فكرة

لكنَّهُ مُصِرّ يظهر حَيَّ

في ناس الغربة كَسْرَاها

وناس الغربة كَارهاها

وناس مضطرة ف بتبعِد

وشايلة بلدها جواها

وهو يا سوريا ده الموضوع

وطن بيموت عشان الكل مش سامع

مش فاهم مش حاسس.. قال نفسي[1]

(١) أغنية عيش سكر وطن، كلمات إيهاب عبد الواحد.

-٢٧-

طلبني الدكتور «هاينز» إلى مكتبه. ذهبت وأنا أحمل هَمَّ التهرب مجددًا من البحث الذي اقترحه عليَّ. لم يكُن لدي أي عذر أو حجة في عدم إنجاز أي شيء بخصوص البحث.

عندما دخلت عليه فوجئت به يحمل نسخة من جريدة (زوددويتشه تسايتنغ) واسعة الانتشار، ويفتحها على صفحة في الداخل بحيث تكون واضحة لي. صورة أنس في الطرف الأقصى وتحت الصورة عنوان (سوريا: أوشفيتز بنسخة محدثة Auschwitz aktualisiert). وسألني: هل هذا هو قريبك الذي حدثتني عنه؟ أشرت برأسي أنَّ نعم وأخذت الجريدة من يده دون استئذان وأخذت أقرأ.

في الخامس عشر من آذار، وهو تاريخ انطلاق الثورة السورية، قام أنس خزنجي (٢٩ سنة) بشنق نفسه في شقته في نويكولن في برلين. أنس -اللاجئ في ألمانيا منذ ٢٠١٤- قام بإخراج فيلم عن شهادات المُعتقلين في سجون الأسد، لكن هذا الفيلم لم يخرج للعلن إلا بعد موته؛ حيث وُضِع على اليوتيوب من قِبل أشخاص مجهولين ووصلت منه نسخة بترجمة ألمانية إلى مقر الجريدة قبل يومين.

الفيلم ينقل شهادات مروعة عما يحدث في سجون الأسد وهو أمر أصبح معروفًا للجميع لكن الفيلم يقدم ربطًا بين أساليب التعذيب المستخدمة وبين الهولوكوست عبر شخصية «ألويس برونر» الذي كان واحدًا من مساعدي رودولف أيخمان وتمكن من الفرار وعمل في

سوريا كمستشار للنظام السوري في شؤون التعذيب إلى حين موته في الفترة ما بين ٢٠٠١ و٢٠١٠.

الفيلم يوضح أيضًا وجود اختلافات بين الهولوكوست وما يحدث في سوريا رغم وجود تشابه في أساليب التعامل، وهي اختلافات تجعل النسخة المحدثة من أوشفيتز أكثر ترويعًا. كما أنَّ الفيلم يقدم وجهة نظر سيكولوجية عن أهداف التعذيب الأعمق بكثير من إلحاق الأذى أو الحصول على اعترافات.

لا توجد أي إشارة إلى أي من أسماء فريق العمل، ولا حتى اسم أنس خزنجي، كذلك لا شيء عن الجهة المنتجة، وهذا يثير الكثير من الأسئلة عن دوافع انتحار المخرج، ومن قام بنشر الفيلم لاحقًا. رغم احتواء الفيلم على شهادات مروعة، فإنه مشغول بطريقة تلمس القلب والعقل.

همست لنفسي: بريه[1] عليك يا أنس. والله ألف بريه عليك. فعلتها.

قال الدكتور «هاينز»: يبدو العمل مُتقنًا، سأحاول أنْ أبحث عنه. بحثت عن «ألويس برونر»، ووجدت عنه الكثير. يبدو أنَّ له بصمة كبيرة فيما جرى عندكم.

كنت أقول لنفسي: شنق نفسه في ذكرى الثورة. أي رسالة. كنت قد نسيت هذا الأمر تمامًا.

قلت «لهاينز»: نعم، العمل متقن ومؤثر بالفعل.

- عليك أنْ تكون فخورًا بقريبك هذا.

(١) بريه: براڤو باللهجة الشامية الشعبية.

«بالفعل أنا فخور». قلت بصدق.

- أؤمن جدًّا بأثر الأفلام على الناس، ليس فقط الأفلام الوثائقية، الدرامية أيضًا. هل سبق أنْ سمعت بمسلسل اسمه «هولوكوست»؟

- مسلسل؟ لا أعتقد.

- كان مسلسلًا أمريكيًّا في أواخر السبعينيات، من أربع حلقات، بطولة ميريل ستريب إنْ كنت تعرفها..

- نعم، أعرفها...

- ربما لم يكُن المسلسل قويًّا من الناحية الفنية، لكنه أحدث ردة فعل كبيرة في ألمانيا في تلك الفترة، قبله لم تكُن السينما أو التلفاز تركز على (الضحايا)، بل على المجرمين، المسلسل ركز على عائلة يهودية تعرضت للهولوكوست، وأحدث صدمة في طريقة تعاملنا كألمان مع الأمر، جزء كبير مما يعرف بعقدة ذنب الهولوكوست عندنا كشعب نشأت عند مشاهدة هذا المسلسل الأمريكي الذي أعد لجمهور مختلف. كنت في مراهقتي آنذاك، ولا أزال أذكر النقاشات التي حدثت بعد كل حلقة، صدمة الجمهور كانت كبيرة، كثيرون لم يكُن يعرفون ما معنى (يهودي) وما هو الهولوكوست بالأساس. المفردة لم تكُن معروفة جماهيريًّا قبل المسلسل. هناك مؤرخ معاصر مُهم اسمه فرانك بوش، كتب كتابًا عنوانه (نقطة التغيير ١٩٧٩) واعتبر هذا المسلسل من الأحداث التي غيرت العالم سلبًا وإيجابًا في تلك السنة.. مع وصول الخميني للسلطة، وانتخاب مارغريت تاتشر...

- سأحاول أنْ أراه.

بالتأكيد لن أفعل. مسلسل من إنتاج ١٩٧٩. وقال للتو ليس قويًّا. تفاصيل الهولوكوست السوري تكفيني.

- هناك ردة فعل من هذه العقدة الآن، هناك مَن يقول إنَّنا دفعنا ثمنًا كافيًا، وإنَّ الأجيال الحالية لم تكُن قد ولدت أصلًا وقت الهولوكوست، فلماذا عليها أنْ تشعر بالذنب. أعتقد أنَّ الحديث عن هولوكوست آخر غير ألماني سيواسي الألمان.

فكرت مع نفسي: هذا آخر ما كان يفكر به أنس قطعًا، مواساة الألمان على شعورهم بالذنب. تخيَّلت وقع الأمر على السوريين لو سمعوا بهذا التحليل.

- ماذا درس قريبك؟ هناك حديث عن علم النفس في المقال.

- أنس درس طب الأسنان في سوريا، لكنه لم يكمل لأنَّه اضطر للخروج من البلاد، درس صناعة الأفلام هنا في معهد متفيلم في برلين. أظن أنَّ علاقته بعلم النفس كانت عبر القراءة فقط.

- لن أصدر حُكمًا قبل أنْ أشاهد بنفسي، لكن يبدو الأمر مثيرًا للاهتمام على أقل تقدير.

قلت بتردد:

- أستطيع أنْ أحصل لك على النسخة المترجمة إنْ شئت د. هاينز.

لا يزال هناك جزء مني يتصرف كعريف الصف الذي يريد أنْ يرضي الآنسة بأي شكل.

- كيف هل أنت مَن سرب الفيلم؟

أوف. لم أتوقع أنْ يصل الأمر إلى هذا.

- لا، لست أنا. لم تكُن لي عَلاقة قوية بأنس لهذه الدرجة، لكني أعرف فتاة كانت تعمل معه.

نظر لي نظرة باردة وقال:

- هل أذنت لك بالتصريح بأنَّ لديها نسخة من الفيلم؟

وقعت بسبب دور عريف الصف هذا.

- لا، لكن بالتأكيد لا خطر من اطِّلاعك عليه يا دكتور.

- أفضل أنْ أنتظر عندما تنشر النسخة.

ثُم أكمل:

- هل جمعت مقالات أو بحوث منشورة عن البحث الذي قررت أنْ تعمل عليه؟

- كنت أرغب في شرح مسألة متعلقة بالأمر، لو سمح وقتك.

«هل يتطلب الشرح أكثر من خمس دقائق»؟ قال بطريقة طبيعية جدًّا وليس كما لو أنَّه يطردني كما سنفهم الأمر في دمشق.

- لا، أقل من خمس دقائق. الأمر هو أنَّ هذا البحث يتعلق بموضوع حساس جدًّا بالنسبة لي، النظام لا يزال قائمًا في سوريا، وعائلتي هناك، وجواز سفري لا يزال سوريًّا...

ثُم لم أكمل الجملة، كما لو أني أقول له (والباقي بديهي)...

نظر لي نظرة مَن ينتظر أنْ أكمل.

- ... أحتاج أنْ أنتظر قليلًا لكي أرى كيف ستسير الأمور قبل أنْ أشرع في البحث. إذا صدر البحث باسمي الصريح فسيكون من الصعب جدًّا

العودة إلى سوريا. وقد تكون الأمور صعبة أيضًا بالنسبة إلى أسرتي هناك.

نظر لي نظرة أعرف مغزاها جيدًا. نظرة تقارنني بأنس. عشت حياتي وأنا أحاول تجاوز هذه النظرة. وها هي تطاردني حتى هنا، برلين. وحتى بعد وفاته.

لا بأس. قلت لنفسي. أنس بطل. أنا لستُ كذلك. ألف كلمة جبان ولا مرة واحدة الله يرحمه[1]. نظر في ساعته ثُم قال:

- حسنًا إذن، هير غانم، لا مشكلة. يمكنك أنْ تنتظر تغيُّر الأمور في سوريا.

كنت على وشك الاستئذان للخروج عندما قال، كما لو أنَّه يطلق عليَّ رصاصة:

- لدينا مثل يقول، قطعة الأثاث التي يفضلها الشيطان هي الكنبة المريحة.

"Des Teufels liebstes Möbelstück ist die lange Bank".

الألمان هم أقدر الشعوب على قصف الجبهة. لكنهم لا يفعلون ذلك على أساس أنَّهم يقصفون الجبهات. هذا هو حوارهم العادي فحسب.

خرجت أَجُرّ جبهتي المقصوفة وأنا لا أزال أردد «ألف كلمة جبان»..

خلال العمل، استرقت النظر إلى هاتفي وبحثت عن خبر الفيلم في المواقع الألمانية. الخبر موجود في أكثر من موقع بالفعل. يبدو أنَّ أنس تمكن من لمس عقدة الهولوكوست. عندما خرجت ابتعت نسخة من الجريدة التي رأيتها عند دكتور هاينز وجريدة بيلد. ودي فيلت. بيلد لم تكتب شيئًا. ودي فيلت كتبت: أوشفيتز، الجزء الثاني في سوريا.

---

(١) مثل شعبي، أنْ يقال عنك جبان أفضل من أنْ يقال الله يرحمه.

براڤو عليك يا أنس، فعلتها والله. قلت لنفسي وأنا أفكر كم كان أنس سيسعد بأنَّ محاولته لنقل شهادات الناجين وصلت إلى الإعلام الألماني. شعرت بالحزن عندما فكرت بذلك. كما لو أني فهمت خسارة موته أكثر من أي وقت. ونور أيضًا، براڤو عليها. هي التي أوصلت الفيلم إلى العالم. هذه الفتاة خارقة.

كتبت لها: دكتور «هاينز»، تنسيقية برلين وضواحيها، حدثني عن فيلم أنس اليوم، قرأ ما كتبته جريدة زوددويتشه تسايتنغ وكان مُهتمًّا للغاية. أحسنت.

ردت: الحمد لله.

- الخبر في كل مكان، متى سيظهر الفيلم المترجم؟ هاينز مُهتم بمشاهدته.

«خلال أيام قليلة، إنْ شاء الله». ثُم سكتت.

شعرت أنَّها ليست على ما يرام.

- أنت بخير؟

أرسلت إليَّ صورة ملتقطة من شاشة.

توضيح

تعلن مؤسسة «مستقبل الشرق والعالم» أنَّ الفيلم الوثائقي المعنون «بيت خالتي: الأسوأ من أوشفيتز» والذي نُشر على اليوتيوب من قِبَل مجهولين، لا يمثل المؤسسة ولا يعبر عن وجهة نظرها رغم امتلاكها للمادة الخام للفيلم ومن ثَمَّ لحقوق عرضه حصريًا؛ حيث سبق للمؤسسة أنْ اتفقت مع المخرج أنس خزنجي على إنتاج الفيلم، ولكن

بسبب عدم وجود مصداقية لبعض الشهادات ووجود تحيز مسبق فقد فضلنا أنْ نعدل من محتواه، فإنَّ ظروف وفاة المخرج حالت دون تنفيذ ذلك.

إنَّ نشر الفيلم في هذه الظروف يُعَد انتهاكًا فاضحًا لقوانين حماية الملكية، وسنعمل على متابعة كل الإجراءات لحذف الفيلم من مواقع التواصل ومنصات المشاهدة.

إنَّ ربط القضية السورية بقضية الهولوكوست هو مؤامرة صهيونية واضحة لزرع الشقاق في صفوف الأمة الواحدة، كل سوري شريف بغض النظر عن موقفه من الأحداث لا يقبل أنْ يدنس موقفه بربطه بمجموعة مبالغات استثمرتها الدعاية الصهيونية لأجل اغتصاب فلسطين وتهجير شعبها الحر الأبي.

كنت أريد أنْ أسب سبابًا فاحشًا. لو لم تكُن نور فتاة لكتبت ألفاظًا تليق بما قرأت.

- توقعت أنْ أقرأ في النهاية (والنصر لقضية شعبنا).

- نعم، جماعة الممانعة والمقاومة.

- أين مقرهم؟

- عاصمة عربية.

- لو كانوا هنا لدفعوا ثمنًا غاليًا. بيانهم هذا يلمح إلى إنكار الهولوكوست.

- بيانهم للجمهور العربي، تشكيك في مصداقية الشهادات المصورة في الفيلم دون أي دليل، فقط قنبلة دخانية للتشويش، ثُم ربط بين الفيلم

الذي يعادي نظامًا يتبنى شعارات المقاومة مع فكرة أنَّ الفيلم يستند على أسطورة صهيونية.

- الجمهور الذي سيصدق هذا التوضيح لن يتأثر في الفيلم بالأساس، غالبًا هذا الجمهور يقول عن شهادات الفيلم إما (كله كذب) وإما (نعم ويستحقون).

- أنت محق، ليس الجمهور الذي يريده أنس.

رأيتها لاحقًا في مركز رعاية اللاجئين. تخيَّلت أنَّها ستكون سعيدة بالاهتمام بالفيلم في الصحف الألمانية، لكنها لم تكُن كذلك على الإطلاق. على العكس. كانت تبدو قلقة ومتوترة. لا تكف عن النظر إلى هاتفها كما لو أنَّها تنتظر رسالة ما.

- ما الأمر نور؟ تبدين قلقة. يجب أنْ تكوني فرحة بأنَّك تمكنتِ من إيصال صوت أنس إلى العالم. ردود الفعل مُبشرة فعلًا.

- نعم، لكن رد فعل (مؤسسة مستقبل الشرق والعالم) قد لا يكون مُبشرًا أبدًا.

- ماذا توقعت؟ طرت إلى آخر العالم لكي تتجنبي أنْ يصلوا إليكِ. لا بد أنْ يصدروا بيانًا على الأقل.

- لست قلقة من وصولهم لي الآن، سيتطلب الأمر وقتًا أكبر بكثير إنْ نجحوا في هذا أصلًا.

- ماذا إذن؟

- الأمر معقد يا يزن.

- بسَّطِيه لي. ما الأمر؟ ما الذي يقلقك الآن؟ بيانهم لا يشير إلى أي ملاحقة قانونية لمَن نشر الفيلم، فقط حديث عن إزالته من مواقع التواصل، وهذا أمر متوقع ولكنه غير مُجدٍ أصلًا بعد هذا الانتشار. تجاوزتم المائة ألف مشاهدة على نسخة الفيلم الأصلية التي وضعتها أنت، وهناك نسخ أخرى كثيرة في كل مكان.

- لست قلقة من هذا أيضًا..

- ماذا إذن؟

- دعنا نتحدث عن ذلك لاحقًا. بكل الأحوال يحتاج الأمر إلى شرح وتركيز..

ثُم سكتت وقالت:

- وقوة أعصاب.

زادت حيرتي بجملتها هذه. مَضت إلى ترجمة بعض الأوراق المطلوبة وتدقيق أخرى. قرابة التاسعة مرت عليَّ نور وقالت لي إنَّها انتهت وستنتظرني في خارج المركز.

أنهيت عملي وخرجت. كانت نور تقف تحت عمود النور. ترتدي معطفًا أزرق، وحجابًا أبيض، ما كانت ترتديه نفسه في المركز، لكن الآن بدت مختلفة جدًّا تحت عمود النور. يتدفق النور عليها من أعلى، فتزيد نورًا على نور. كان المشهد مثل لوحة فنية خلابة. لوحة يمكن أنْ يكون عنوانها (ابنة قاسيون تضيء في برلين).. وقفت أتأملها ولا أرغب في المغادرة، ثُم انتبهت لي فمشيت نحوها وقلت: كافيه لوتسيا[1] لا يبعد كثيرًا.

---

(١) كافيه في كرويتزبيرغ ببرلين.

- مزدحم جدًّا الآن، فلنتمشى إلى محطة المترو.

لم يسبق لي أنْ رأيتها هكذا. ما الذي يربكها وهي بهذه القوة. ما الذي يخيف ابنة هدباء؟ هل يمكن أنْ تكون مرتبكة بسبب شيء آخر لا عَلاقة له بالفيلم؟ ربما بسبب طلبي ليدها؟ هل قررت أنْ ترد أخيرًا؟ دق قلبي بشدة من الاحتمال. ثُم تذكرت: نور مرتبكة وقلقة ولكن لا إشارة أبدًا على أنَّ هذا له عَلاقة بي من قريب أو بعيد.

مشينا صامتين. أسترق النظر إليها وأنتظر أنْ تبدأ الكلام. بقيت ساكتة.

- ما الأمر يا نور؟ لم أرك هكذا من قبل.

- لو كان الأمر يتعلق بي لما كنت مهمومة هكذا. الأمر يتعلق بشخص آخر، للأسف ما فعلته يمكن أنْ يمسَّه.. رغم أنَّه لا يمكن أنْ يشعر بشيء.

- البطيخة؟

- أي بطيخة؟

- حل الأحجية التي ذكرتها الآن.

- أنا جادة يا يزن، أريد أنْ أتحدث لك كأخ.. أنت تعرف معلومات.. ولكن ليس كل شيء.

سقطت من سماء توقعاتي بكلمة «أخ» هذه. قبل دقائق كنت أحلم بأنَّها مرتبكة بسببي. والآن أنا أخوها؟

- أخ؟ لا شكرًا. اسحبيها فورًا لو سمحتِ. لا أريد هذه الأخوة. قولي لي

إنَّ طلبي لا يزال In Bearbeitung [1]، اتركي لي فرصة للأمل.. لكن هذه الأخوة... أتشرَّف ولكن لا، شكرًا.

سكتت كما لو أنَّها تفكر فيما قلت.

- هذه مشكلة أخرى، لكني الآن في شيء أكثر تعقيدًا، إنْ كنت لا ترغب بسماع ما عندي، كصديق أو كأخ أو كطبيب نفسي، قُل لي كي أذهب.

صديق أو طبيب نفسي أفضل بكثير حتمًا من أخ. لا بشارة في أي منهما ولكن «الأخ» محبطة جدًّا.

- حسنًا، أقلقتني. ما الأمر؟

- لم أقُل كل شيء بخصوص مشكلة أنس مع الشركة.. هناك ما لم تعرفه.

بدأنا الآن.

- أنس لم يكُن خائفًا من العقد والشرط الجزائي مع المؤسسة ولا حتى مع إمكانية السجن لعشر سنوات، الأمر سيكون مُحرجًا جدًّا لهم ومن غير المحتمل أنَّهم كانوا سيمضون في هذا الأمر إلى هذه الدرجة، عدا عن أنَّ حُكمًا كهذا لن يكون من السهل الحصول عليه.

- مِم كان خائفًا إذن؟

«هددوه بشيء آخر» وسكتت بتردد.

- ما هو هذا الشيء الآخر يا نور؟ اوقفي دور التشويق.

- أقسم لي أنَّك لن تقول ما سأخبرك به الآن. أبدًا.

---

(١) قيد المعالجة، كلمة تقال في الدوائر الحكومية عندما يكون طلب المراجع لم ينجز بعد.

- أقسم بالله إنَّ ما ستقولينه الآن لن أخبر به أي أحد بأي حال، ما القصة يا نور؟

- تذكر عندما قلت لي إنَّ تفاصيل مقتل معاذ غير متناسقة واستنتجت أنَّ أنس متورط بالأمر بشكل ما.

- نعم أذكر.

لا يمكن لي أنْ أنسى ما فعلته بي يومها. بلاط قهوة آينشتاين لم يصبح نظيفًا قط كما حدث يومها.

- حسنًا، لقد كنت محقًا جزئيًّا.

- ماذا؟! وماذا إذن عن بلاط قهوة آينشتاين؟

- لم تكُن محقًا فيما يخص استنتاجك.. لكن ملاحظتك كانت صحيحة.. تفاصيل مقتل معاذ الصداف كانت غير متناسقة.

- ما هو الاستنتاج الصحيح إذن؟

- ليس استنتاجًا. بل هو حقيقة.. الأمر معاكس بالضبط لما وصلت إليه..

لثوانٍ بقيت أحاول أنْ أفهم ما قالت.

- معاذ هو الذي...؟

- معاذ هو مَن تعاون مع الأمن. وتسبب بالحكم على شاب بالمؤبد واغتصاب فتاة وموت شابين تحت التعذيب.

- لماذا قتله الشبيحة إذا كان متعاونًا معهم؟

نظرت لي نظرة تعني: (لم تفهم بعد؟) ولم ترد.

وفهمت.

- ... يا الله... معاذ لم يُقتَل على يد الشبيحة أو الأمن؟ بل على يد الثوار؟!

- هذا صحيح. لا أبرر ولا دخل لي بالقصة لكنه تسبب بموت شابين تعذيبًا واغتصاب فتاة وسجن مؤبد لآخر.. على الأقل.

سكت وأنا أرى الآن فقط ما لم أنتبه له قبل ذلك. طلقة في الرأس. لا تعذيب. لا يشبه أسلوب النظام. الجثة في جوبر. منطقة ثوار. لم يترحم عليه كنان. ولا نور. ولا مرة قالوا معي «الله يرحمه» عندما يرد اسمه. ولا حتى أنس. عندما أريته صورنا وكان معاذ فيها، لم يعلق أي شيء. تذكرت ما قاله كنان لي عندما سألته عن أثر مقتل معاذ على أنس، قال: ما الذي تعرفه عن الأمر؟

- ... وأنس هو الذي سلمه لهم؟

- لم يكُن يعرف ما سيحدث. كان الأمر مجرد شك. لم يكُن يتوقع أنَّ الأمر سيصل إلى هذا الحد.. لكنه أخذه لهم ليستجوبوه.. كانت هناك شكوك وكان أنس يريد من معاذ أنْ يحسم الأمر بالنفي.

- يُفهم من هذا أنَّه سلمه للثوار؟

- نعم.

- هل أنتِ متأكدة من هذا؟

- نعم. للأسف. معاذ اعترف بكل شيء قبل أنْ يُقتَل.

بقيت مشدوهًا بهذه المعلومة الجديدة.

أعدت فهم ما مر به أنس من جديد. صديقه الأقرب كان متعاونًا مع الأمن. الآن أفهم لماذا قال كنان إنَّ أنس فقد إيمانه بنفسه بسبب ما حدث لمعاذ. كيف استطاعت نور أنْ تغطي على شكوكي يومها.

- هل اعتُقِل وتعاون معهم تحت الضغط.

- ضغط نعم.. اعتقال؟ لم يحدث.. يبدو أنَّه تعاون معهم قبل الثورة أصلًا.

- كيف؟!

- تعرض معاذ لمشكلة في السنة الأولى في الجامعة، اتّهمه أستاذ بالغش وكان على وشك أن يُفصَل.. ويبدو أنَّه تواصل مع أحد ضباط الأمن ليساعده في حلها، ولكن الضابط طلب منه أنْ يفتح عينيه لو سمع شيئًا ضد النظام.. ووافق معاذ.. ثُم استمر الأمر.

هذا أكثر تعقيدًا مما تصورت. ثُم تذكرت، ما عَلاقة كل هذا بما نحن فيه الآن؟ لماذا نور قلقة الآن من هذا؟

- ما دخل معاذ بكل هذا الآن؟

سكتت قليلًا ثُم أخذت نفسًا وقالت:

- لأنَّ المؤسسة كانت تضغط على أنس بهذا الأمر.. ما كان يخاف منه أنس لم يكُن الغرامة أو السجن.. بل هذا الموضوع.. موضوع معاذ.

- لم أفهم. كيف يمكن لهذا الموضوع أنْ يُهدد به أنس؟

- هناك مَن صور اعتراف معاذ.

- تمام.. ثُم؟ كيف لهذا أنْ يتحول إلى تهديد لأنس.

- وفي نهاية الڤيديو... يُقتَل معاذ.

بدأت أفهم.

- هذا الڤيديو.. لم يكُن أنس قد رآه. رغم علمه أنَّه كان هناك تصوير. هذا الڤيديو وصل إلى المؤسسة بطريقة لا نعرفها، وأرسلوه إلى أنس ليضغطوا عليه في موضوع الفيلم.

هذا مرعب.

- ماذا في الڤيديو؟ هل فيه ما يوحي أنَّ أنس كان مشتركًا في تصفية معاذ؟ قلتِ لي إنَّه كان رافضًا لذلك...

«لديك سماعة أذنين»؟ سألتني وهي تحضر هاتفها لشيء، وضعت سماعتي، شغّلت ڤيديو في هاتفها وأعطتني إياه.

مكان نصف معتم. معاذ يتحدث. يشتم نفسه وهو يبكي. يتحدث عن شيء حدث في السنة الأولى في الجامعة. ذهب إلى الضابط في فرع المخابرات. جارتهم دلته عليه. كان مهددًا بالفصل. وذهب. قال له إنَّه سيحل موضوعه ولكن يريد منه أنْ يكون عينًا على طلاب الجامعة. أخبره أنَّ هناك موجة «عبادة شيطان» بين الشباب ويهم الحكومة أنْ تسيطر عليها. قال معاذ إنَّه كان يقدم معلومات لا أهمية لها. فقط للتخلص من الضابط. لم يكُن هناك شيء أصلًا يستحق أنْ يُنقَل. ثُم بعد الثورة. تتغير الأمور. عندما يلاحظون تهربه يهددونه بتسريب كل شيء عنه. يجهش بالبكاء. كنت مضطرًا.. يصرخ. يأتي صوت أنس. نرى وجهه للحظات. يصرخ وهو يقول لا.. لا.. لا، يتحدث مع شخص آخر لا نرى وجهه، ضجة ومعاذ يرقب ما يحدث بهلع. ثُم صوت رصاصة ونارها قرب رأس معاذ، صوت صراخ أنس باكيًا.

مذهولًا أعيد الفيديو وأرفع الصوت كي أتأكد مما سمعت. أنظر إلى نور. قلت في نفسي: ليتني لم أعرف أي شيء عن هذا كله.

ثُم قلت لها:

- لكن الفيديو لا يدين أنس... واضح من صوته أنَّه لم يكُن يريد أنْ يحدث ما حدث.

- نعم، لكن لم يكُن هذا ما يخيف أنس، هم تصوروا أنَّه سيخاف من هذا، من كونه شاهدًا على جريمة لم يبلغ عنها، وكانت ستضر أنس حتمًا... أنس كان خائفًا من تسريب الفيديو من أجل سمعة معاذ. من أجل أهله. هذا الفيديو كان سيجعل معاذ يُقتَل مجددًا. لم يكُن أنس يريد أنْ يمس معاذ وعائلته أي شيء. بالنسبة إلى الناس مات شهيدًا على يد النظام. هذا الفيديو يقول إنَّه كان عواينيًّا.. سيفضح ويشهر به.

شعرت بالدوار. صوت معاذ وهو يبكي وصرخة أنس كانت لا تزال في أذني. كما لو أني لم أزح السماعة. اتكأت على الجدار وأفرغت كل ما في جوفي.

أعطتني نور قنينة ماء من حقيبتها. شعرت بأني يجب أنْ أكون أقوى. سكبت الماء على وجهي وحاولت تمالك أنفاسي.

- هل كانوا في مؤسسة مستقبل الشرق يعرفون ما يخيف أنس من الفيديو حقًّا؟ أم أنَّهم تصوروا أنَّ خطورة الفيديو تكمُن في كون أنس قد شهد مقتل صديقه على يد الثوار؟

- لا. على هذا راهنت. أنْ يكون كل هَمّهم من الفيديو إدانة أنس

بالمشاركة أو بالسكوت عن قتل معاذ.. وبهذا يكون الفيديو قد فقد قيمته بالنسبة إليهم الآن.. فلا يرون أي فائدة من نشره.

شعرت الآن فقط أني فهمت كل ما حدث مع أنس. الآن فقط فهمت الصورة الكبيرة. لا حلقات مفقودة الآن. في كل مرة كنت أعتقد أني وصلت إلى الصورة الكبيرة، ثُم يتضح لي المزيد منها. فهمت الآن أنَّ أنس ربما كان قد وصل إلى أنَّ موته هو الحل الوحيد لنشر الفيلم بأقل قدر محتمل من الخسائر، على الأقل لأسرة معاذ.

التفتُّ لنور. شعرت أني أراها لأول مرة. قوتها بدت لي برودًا وقسوة في المشاعر أكثر منها (قوة طبيعية). هل يكون كل ما حدث قد حدث بالاتفاق معها؟ تذكرت قوتها ورباطة جأشها في استلام الجثة. في الدفن. في كل ما حدث. فيما قالته من أنَّها كانت متأكدة من انتحاره حتى قبل تقرير الشرطة. هل كان كل شيء بتنسيق أنس المسبق معها؟ هل كانت تعرف أنَّه سينتحر؟ هل وافقته على ذلك على أنْ تكمل هي موضوع نشر الفيلم؟ هل عرفت أنَّه سينتحر دون أنْ تحاول منعه؟

- متى عرفتِ بأمر الفيديو؟

- عندما أرسلوه لأنس.. لم أكُن أعرف أصلًا أنَّ هناك فيديو قبل هذا. لكن أنس كان أخبرني بكل شيء عما حدث.

- هل كان أنس يخبرك بكل شيء دائمًا؟

- تقريبا. ليس كل شيء.

شعرت في صوتها بنبرة تراجع. تريد أنْ تغلق هذا الطريق.

- ... كل شيء تقريبًا، لكنه لم يخبرك عن قرار انتحاره؟

تغير وجهها فورًا.

- قرار انتحاره؟ ماذا تقصد يا يزن بهذا الكلام؟

فكرت أنَّه لا فائدة من فتح هذه الجبهة الآن.

- لا شيء، مجرد سؤال، كنت أقرب شخص لأنس كما هو واضح، غريب أنْ يكون قد انتحر دون أنْ يلمح لك مثلًا أو يترك رسالة.

- موضوع الفيديو كان قبل أكثر من ثلاثة أشهر من انتحار أنس. في هذه الفترة ابتعد أنس كثيرًا. أخبرتك قبل ذلك بهذا.

صحيح. قالت شيئًا عن ذلك. لكن ربما كان هذا أيضًا جزءًا من خطة متقنة.

- لماذا أخبرتني الآن بالفيديو؟ ماذا سينفعك هذا؟

جفلت من سؤالي.

- أنا قلقة من أنْ يكون رهاني على عدم تسريب الفيديو خاطئًا.. وأنْ يلحق الأذى بمعاذ.

- وماذا سيتغير من هذا بإخباري؟

غيرت فورًا من لهجتها، عادت نور القوية.

- مجرد فضفضة لصديق، لا أكثر ولا أقل، لا تهتم ولا تشغل بالك.

- صديق؟ هل أنا أخ أم صديق أم طبيب نفسي؟ من أنا بالنسبة لك؟

نظرت لي بتحدٍّ:

- الأمر لا يتعلق بك يا يزن. لست محور الكون. الأمر يتعلق بمعاذ وأمه وشقيقاته.

كُنا قد وصلنا محطة المترو تقريبًا.

التفتت لي وقالت: سأذهب الآن، شكرًا لك على كل شيء.

****

عدت إلى البيت، وقفت تحت الدوش دون أنْ أخلع ملابسي كلها. كان صوت صراخ أنس لا يزال في رأسي. تخيلته ليلتها، عندما حدث ما حدث. ثُم يوم استلم الفيديو بعد سنوات. لا بد أنَّ كل شيء عاد له كما لو كان قد حدث من جديد.

بكيت بصوت عالٍ، أجهشت بالبكاء، آه يا أنس يا ابن خالتي. آه يا فخر أبيك وأمك. يا زين شباب الحي. ليتني لم أعرف ما مررت به. ليتني لم أرَ هذا الفيديو ولم أعرف عنه.

انهمرت دموعي قبل ذلك على أنس، لكن اليوم كان مختلفًا. كنت أصرخ بكاءً.

شهادة -١٥-

جوري

اسم مستعار / صوت وصورة / الوجه مموه / الصوت متغير

«الاغتصاب الذي يحدث في المُعتقلات نادرًا ما يتعلق بالشهوة أو بالجنس. هناك حتمًا اغتصاب كهذا، لكنه يحدث عرضًا، عسكري أو سجَّان وجد فرصة حيوانية فاغتنمها. أما عندما يكون ضمن التحقيق فالأمر مختلف تمامًا. الاغتصاب في هذه الحالة هو لسببين: الأول، هو كسر الرجال أقارب المغتصبة. زوج أو أخ وأب. والسبب الثاني، هو كسر نفسية المغتصبة، تحطيمها تمامًا وبشكل دائم، اغتصابي أنا كان من النوع الثاني».

«الاغتصاب أولًا من أصعب الأمور في الحديث عنها، غالبًا الرجال الذين يتعرضون للاغتصاب لا يذكرون ذلك أبدًا. والفتيات -وعددهن أكبر- نسبة ضئيلة منهن من تقبل الحديث عن الأمر. الاغتصاب ليس مثل التعليق أو الكرسي الألماني أو بساط الريح أو الضرب بالأخضر الإبراهيمي، كل هذه وسائل تعذيب مرعبة، لكن الحديث عنها أسهل، أما الاغتصاب فالحديث عنه يشبه أنْ يعاد الأمر من جديد. كل وسائل التعذيب الأخرى تسلط الألم على الجسد من الخارج، الاغتصاب عملية تنتهكك من الداخل، وتبقى معك».

«بدايةً كان هناك خوف من الحديث عن الاغتصاب في المُعتقلات، خوف على (مستقبل) الفتيات. خوف أنْ يصبح الأمر مثل وصمة تلاحق كل مُعتقلة، كما حدث مع البوسنيات. لكن الحقيقة هي أنَّ النظام لعب

على الأمر بطريقة مُمنهجة ومُنظمة، ليست كل مُعتقلة مغتصبة. هناك مُعتقِلات لم يَمْسَسْهن أحد. بل هناك مُعتقلات كُن في فروع أمنية فيها اغتصاب روتيني، لكنهن لم يسمعن بذلك أصلًا. هؤلاء عندما يخرجن سيقُلن: لا اغتصاب هناك. وهذا سيسهل ترك انطباع عن أخريات بأنهن كاذبات، أو أنَّ هناك شيئًا ما «مختلف» معهن».

«مسألة الاغتصاب في أحيان كثيرة تحدث بعد فترة من دخول المُعتقل. يحدث الأمر بالتدريج. تُركت أنا ثلاثة أيام في منفردة. كنت أسمع فقط صوت الاغتصاب. لكن لم يتعرض لي أحد أيامها بشيء. ولا حتى بكلمة. عندما استُدعيت للتحقيق أول مرة، كنت لم أُعذب بعد. لم يمسّني أحد حرفيًا. فقط تُركت في المنفردة. لكن عندما دخلت غرفة التحقيق فوجئت بثلاث نساء عاريات معلقات من أيديهن. عليهن آثار تعذيب. رؤوسهن محلوقة على النصف. تركني المحقق أجلس على كرسي وأمامي النسوة. واحدة منهن كانت صغيرة، ربما دون العشرين. بعد قليل جاؤوا بفتاة صغيرة. ربما دون الرابعة عشر. لهجتها ريفية. تصرخ وتستغيث. قال المحقق (خلوها تشوف الله).

اغتصبها ثلاثة سجَّانين أمامي. لا أعرف كم من الوقت دام الأمر. لكنها ظلت تنزف من عورتها. أغمي عليها أو ماتت لا أدري، عندما خرجت كانت لا تزال ملقاة على الأرض».

«حاولت أنْ أقول شيئًا في أثناء ذلك. توسلت لهم أنْ يتركوها. لكن يبدو أنَّ الخطة كانت تقضي بأنْ يتجاهلوني تمامًا. انتهت جلسة التحقيق الأولى دون سؤال واحد. فقط شاهدت ما حدث. وعدت إلى المنفردة».

«جلسة التحقيق الثانية كانت بعد يوم. استُدعيت. جلست أمام المحقق. أعصابي منهارة، لكن جسديًّا لم يمسّني أحد بعد. قدم لي فنجان قهوة وماء. شربت الماء فقط. لا أسئلة. ثُم أدخلوا فتاة أعرفها من خارج المُعتقل، ولم أكُن أعرف أنَّها اعتُقِلت، سألوها بضعة أسئلة عن اسمها وسكنها ودراستها، ثُم سألوها عن «التمويل من دول المؤامرة» الذي تستلمه. عندما أنكرت انهالوا ضربًا عليها بالعِصي، ثُم بدؤوا بنزع ثيابها عنها، ويقولون لها سنغتصبك الآن. الفتاة كانت عذراء، صرخت (أنا بنت) وهي تتوسل لهم أنْ يتركوها وشأنها. قال واحد منهم لها لا تقلقي. رح نتوصى فيكِ. أدخلوا سيخًا حديديًّا لفض بكارتها. ثم تناوبوا على اغتصابها. كانوا ستة أو سبعة عساكر. أخرجوني قبل أن ينتهي الاغتصاب. لم يُوجَّه لي سؤال واحد».

«بعد يوم في جلسة التحقيق الأولى، وجَّه لي المحقق، أول سؤال. سألني: هل تفضلين حفلة... أم سهرة؟ لم أفهم ما المقصود. قال. الحفلة هي ما شاهدته أمس. أما السهرة فهي (مجرد شخص واحد) يمكنك اختياره. رفضت وصرخت وقلت له إني أفضل أنْ أموت تحت التعذيب، فقال لي: لن نمنحك فرصة الموت تحت التعذيب. سنغتصبك بكل الأحوال، لكن يمكنك تحسين الظروف التي سيحدث فيها هذا، وقال لي سنترك لك فرصة للتفكير..

لاحقًا جاءت «أم علاء» وهي مخبرة مندسة بين السجينات - تقول إنَّها سجينة أيضًا لكنها (رتبت وضعها). قالت لي إنَّ من الأفضل لي أنْ أقبل بالسهرة، شخص واحد ويمكن أنْ يكون من الضباط (نظيف ومثقف) أفضل من أنْ تكون حفلة مع مجموعة عساكر (لم يستحموا من جمعة). فضلت أنْ أتجاهل ما قالت وأنْ لا أرد عليها.

في اليوم التالي أدخلوني على غرفة فيها كرسي حديدي، ثُم أدخلوا شابًا، نزعوا عنه ملابسه، وأجلسوه على الكرسي وربطوه عليه بشدة، ثُم حركوا عتلة مرتبطة بالكرسي، وأخذ الشاب يصرخ من الألم، اتضح أنَّ في الكرسي أنبوبًا معدنيًّا اخترق شرج الشاب، استمروا برفع العتلة والشاب يصرخ من الألم. ثُم أخذوني إلى غرفة أخرى وسألني المحقق هذه المرة: حفلة أم سهرة أم جلسة»؟

«بعد يوم أخذوني إلى غرفة فيها سرير. ربطوني عليه. سرير فيه جزء متحرك تُربَط عليه الساق. مثل سرير الفحص عند الطبيبة النسائية. قالوا لي إنَّ اليوم هو يوم اغتصابي، لكن سيعطونني فرصة، سيتركونني لخمس دقائق أدعو اللّه فيها أنْ ينقذني منهم، فإنْ جاؤوا بعد ذلك واغتصبوني فهذا يعني أنَّ اللّه يقف معهم لا معي، وأنَّ ما يحدث لي عدلٌ لأنَّ اللّه ضد الفتنة وضد العملاء من أمثالي، حسبما قالوا..

دخل عليَّ بعدها ستة عساكر، واحد منهم كان ضخمًا جدًّا وعلى يديه وشم لرئيس النظام، ثُم جاء ضابط يسمي نفسه (بلال)، العساكر بدؤوا يخرجون عوراتهم من سراويلهم. قال لي الضابط: حفلة أم سهرة؟ لم أرد عليه. أغمضت عيني وأنا أصرخ. قال لي: إنْ لم تختاري، الشباب يفضلون حفلة. توسلت به أنْ يدعني وشأني. قال: شكلك عاجبك جماعي. صرخت لا. قال الـ(لا) لا تنفع. عليك أنْ تختاري. عليك أنْ تقولي بلسانك أريد مع (الضابط بلال) فقط. كان يريدني أنْ أختار بلساني. بوضوح.

لم يكن أمامي خيار آخر. أي شيء أقوله كان يرفضه ويقول لي: إنْ لم تحددي فهذا يعني أنَّك تريدين (جنس جماعي).

في النهاية قلت له ما يريد أنْ يسمعه. خرج العساكر. ونزع هو ملابسه. كان كل جزء من جسدي مربوطًا على السرير المتحرك بطريقة تتيح له أنْ يكون ما يريده سهلًا.

في اللحظة التي بدأ فيها سمعت آيات القرآن الكريم. تصورت أولًا أني أتخيَّل ذلك. لكن لا. كانوا قد شغلوا آيات معينة. آيات من سور النساء والإسراء والنور. جمعت مع بعضها في تسجيل واحد ظل يتكرر بصوت مرتفع، بصوت مقرئ يعرفون أني أحب صوته، لأنَّ تسجيلاته موجودة على هاتفي الذي بحوزتهم. لا أريد أنْ أذكر اسم المقرئ، لا ذنب له في الأمر، لكني لم أعد قادرة على سماع صوته.

سماع القرآن في أثناء اغتصابي كان عذابًا موازيًا لعذاب الاغتصاب. لم أستطع أنْ أمنع نفسي من الأسئلة. كيف يحدث كل هذا. كنت أحفظ أجزاء من هذه السور، وضمنها هذه الآيات. تمنيت لو أني لم أكُن حفظتها، أو أني لا أعرفها. كان وقعها عليَّ سيكون أسهل. في لحظة تذكرت عندما كنت أذهب لدروس الحفظ في الجامع. لم أتخيَّل قط أنْ يحدث لي هذا على صوت هذه الآيات.

عندما انتهى كل شيء، قال لي الضابط: هل رأيت؟ الله لم يقف معك ولم يستجب لدعائك لأنَّك على خطأ. لأنَّك على باطل. لو كنت على صواب لما زنيتِ معي. هذا لم يكُن اغتصابًا. كان زنا برضاك. أنت من اخترته. بلسانك. لا تخدعي نفسك بأنَّك اُغتصبت وأنَّك ضحية. أنتِ زانية. أنتِ اخترت الزنا معي. بقي يكرر ذلك وهو يرتدي ملابسه ويخرج.

تركوني في الغرفة لفترة ثُم شغلوا آيات القرآن نفسها مرة أخرى. انتبهت هذه المرة إلى وجود مكبرات صوت في أركان الغرفة. كدت أجن.

أصرخ كي لا أسمع الآيات. كانت يداي مربوطتين، لم أستطع أنْ أصم أذني. استمر العذاب بالآيات طويلاً. ربما ساعة. نمت أو أغمي عليَّ وأنا أسمعها.

بعد فترة دخل الضابط نفسه. وشغل من جواله آية (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله..). ثُم قال لي: لم تخشعي. لم يحدث لك شيء. ألا يعني هذا أنَّك لست مؤمنة؟

في اليوم الثاني تكرر الشيء ذاته. السؤال نفسه. حفلة أم سهرة. الموقف نفسه كله كما لو كان اليوم كله يعاد. لكن هذه المرة حقنوني بإبرة في أعلى الفخذ. قالوا هذه لكيلا يحدث حمل أو عدوى. لكن فهمت لاحقًا أنَّها لزيادة المتعة. كانوا يريدونني أنْ أشعر بالمتعة في الاغتصاب كي أحتقر نفسي.

كل ما حدث كان مكررًا. السرير نفسه رُبطت عليه. العساكر وعوراتهم والضابط نفسه يجبرني على الاختيار. الآيات نفسها. العذاب نفسه. الكلام نفسه عن أني زانية، وأنَّ هذا كان زنا باختياري ولم يكُن اغتصابًا. وأنَّ الله تخلى عني لأني لم أكُن على صواب، وأنَّه يقف معهم لأنهم صواب.

ثُم أصبح يتكرر الأمر أكثر من مرة في اليوم نفسه. حاولت أولًا أنْ أكون جثة هامدة في أثناء الاغتصاب. لا ألم حتى. لا شيء. كنت قد قرأت ذلك سابقًا في مدونة عن الاغتصاب كتبتها ناشطة إيرانية من منظمة مجاهدي خلق. وكان هذا يؤثر فعلًا في الضابط. يزعجه. يصبح أكثر عنفًا رغم أنَّه يحاول كبح ذلك.

حاولت أنْ أجاريه في الكلام. عندما يقول لي إنَّ الله تخلى عني وإنَّه يقف معهم. لم أكُن أقوى على شيء.. لم أكُن أقوى على التفكير والنقاش والمحاججة.

بعد أسبوعين تقريبًا من تكرار كل شيء بالتفصيل، السرير. الاختيار. الاغتصاب. الآيات. الحوار. أصبحت مقتنعة بما يقولونه لي. أنا زانية. أستحق كل ما يحدث لي. الله عادل وما حدث لي كان بأمره. الله تخلى عني لأني زانية. تخلى عنا جميعًا لأنَّ ما قمنا به كان باطلًا.

أفهم الآن أني تعرضت لعملية غسيل مخ مبرمجة، لكني لم أكُن قادرة على التمييز آنذاك. لم أكُن قادرة على التفكير أصلًا.

كان الضابط يقول لي إنَّهم صوروني في كل مرة «زنيت» فيها. وإنَّ هذه الفيديوهات يمكن أنْ توزع على كل معارفي وأفراد أسرتي، لكنهم يريدون مني أنْ أتعاون وأنا مؤمنة بالتعاون معهم لا لأني مجبرة على ذلك أو تحت الابتزاز. قال لي إنَّه سيمحو كل الفيديوهات ولا يسمح لأحد أنْ تكون عنده نسخ منها، لكن ذلك فقط عندما أكون مؤمنة بالتعاون معهم خدمة للبلد ولله.

كنت في كل مرة، يعيدونني فيها بعد الاغتصاب، أكتب على الجدار «إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ». كل مرة. وعندما تركت المُعتقل، كانت الآية مكتوبة ١٩ مرة على الجِدار».

«في المُعتقل عرفت قصصًا تشبه قصتي لحد التطابق. الجامع المشترك بيننا أنَّنا كُنا شخصيات مؤثرة فيمن حولنا. ناشطات أو قياديات. الأخريات الأقل نشاطًا أو تأثيرًا لم يكُن اغتصابهن يحدث على هذا النحو المعقد. لم يكُن الهدف جعلنا نتعاون كما قد يبدو. ولا تعذيبنا أو إذلالنا. بل الهدف كان كسرنا. كسرنا كان سيؤثر على كثيرين وكثيرات ممن حولنا. كل ما في المُعتقل كان هدفه ذلك. حتى اللواتي لم يغتصبن -وهن كثيرات أيضًا- بعضهن عاش تجربة الاغتصاب عبر أخريات. كانت هناك واحدة

في المُعتقل: حبلت من الاغتصاب، وولدت في المُعتقل. أخذوا ابنها بعد أنْ بلغ السنة تقريبًا. أي بعد أنْ تعلقت به. كان بإمكانهم أنْ يأخذوه من أول يوم. لكنهم تعمدوا أنْ تتعلق به ثُم يأخذونه منها. عندما عرفتها كانت قد فقدت عقلها».

«أخرى -أعطوها الحقنة أيضًا- كانوا يتعمدون الانتهاء من الاغتصاب في (مرحلة معينة)، لا أعرف كيف أقول الأمر، لكنها أخذت تعتبر نفسها (مومسًا)، وتعامل نفسها على هذا الأساس أيضًا. كان الهدف تحطيمنا، ليس بالتعذيب الجسدي فقط، بل برؤيتنا لأنفسنا، وكانوا يريدوننا أنْ نخرج ونحن نحمل هذا الحطام».

«عندما خرجت، لم يكُن هناك خدش واحد في جسدي، لا أثر ظاهر للتعذيب. لكني كنت محطمة تمامًا، جثة ممزقة في الداخل. شعوري بالذنب يقتلني. شعوري بأني أستحق كل ما حدث لي. كنت أشعر أنَّ كل ما أؤمن به خذلني. وأنَّ الله تخلى عني».

«أعرف أنَّهم في فترة الثمانينيات كانوا يوشمون عبارات معينة على أجساد المُعتقلين. عبارات مثل: الأسد ربي أو لا إله إلا الأسد. كانوا يريدون من الشخص أنْ يكره نفسه وجسده لهذه الدرجة. أنْ يبقى يتذكر كلما نظر إلى نفسه. أنْ يكون الأمر عذابًا مستمرًا حتى بعد أنْ يخرج من السجن.. معي تجاوزوا الوشم على الجلد. كان هدفهم أنْ يضعوا وشومهم على روحي من الداخل».

«عندما أفرجوا عني أعادوا لي هُويتي. نظرت إليها ولم أفهم لمَ أعطوني هذه الهوية. شعرت بأني فتاة أخرى لا عَلاقة لها بالفتاة التي اسمها وصورتها على الهُوية».

«بعد أكثر من خمس سنوات، لا أزال أعيش على الأدوية النفسية والمهدئات، وجلسات العلاج النفسي. في الظاهر أبدو بخير. لست كذلك. الحمد لله. أنا أفضل بكثير الآن. لكني لا أزال أعاني.

أريد أنْ يعرف العالم ما حدث ويحدث. لست متأكدة من أنَّ هذا سيحدِث فرقًا في العالم. لكنه سيحدِث فرقًا معي على الأقل. لأني سأكون ميتة أكثر لو بقيت صامتة. من غير المنطقي أنْ يفعلوا كل هذا بي، ثُم لا أتكلم.. لا أقول... كان هدفهم أنْ أسكت، أنْ أتحطم بصمت. لقد آذوني نعم، لكني على الأقل أتكلم. فشلوا في تحطيمي لدرجة السكوت».



-٢٨-

أوقفت الفيلم هنا.

ما قالته جوري كان يتجاوز قدرتي على التحمل. شعرت بعقلي يحاول أنْ ينسى بعضَ ما قالته. شعرت بشيء في داخلي يقول لي أنت لم تسمع هذا. انس هذه الجملة من ذاكرتك. وهذه أيضًا. لم تسمع شيئًا. وهي لم تقُل شيئًا. للأسف كان وعيي أقوى من حيل اللاوعي هذه.

بقيت لفترة ساكنًا، لا أتحرك، يغمرني شعور بائس بتعاسة يائسة. شعرت أني أكره كل شيء. كل شيء. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ولم أعرف كيف سأنام وكيف سأستيقظ وكيف يمكن لأي شخص سمع هذا أنْ يواصل حياته بعد ذلك كما لو أنَّ شيئًا لم يكُن.

شعرت بكل شيء يصبح مُرًّا فجأة. شعرت فعلًا بالطعم المُر على لساني على الفور. كيف يستقيم العالم مع ما يدور. كيف يمكن أنْ يفلت هؤلاء من العقاب. ما معنى كل شيء وأي شيء إذا كان هذا يحدث. وددت لو أصرخ. لو أحطم شيئًا. وددت لو أني أتمكن من فعل أي شيء. وددت لو أنَّها كانت تكذب.

ربما كانت تكذب. سأقنع نفسي أنَّها تكذب. هي تكذب بالتأكيد. ربما اغتصبوها كما اغتصبوا سواها، لكنها تبالغ بالتفاصيل. نعم، هذه التفاصيل لا يمكن أنْ تكون صحيحة.

فجأة أصبح الاغتصاب «العادي» شيئًا مُستحبًّا بالمقارنة مع هذا الذي سمعته. صرت أتمنى لو أنَّهم اغتصبوها فقط دون كل هذه التفاصيل.

أخذت حبة ديازيبام ٥ ملليغرام، وقررت أنْ أنام. هذه الفتاة كانت تكذب بالتأكيد. اسمها مستعار وصوتها متغير، يمكن أنْ تكون أي شخص. يمكن أنْ تكون ممثلة أو مدعية. لم يحدث هذا الذي قالته. بقيت أكرر أنَّ الأمر لم يحدث. ربما غفوت قليلًا. استيقظت فجأة قرابة الساعة الثالثة فجرًا. تذكرت ما سمعته. قلت إنَّ هذا كان منامًا رأيته. مجرد كابوس. ثُم شاهدت كل شيء حولي كما كان عندما كنت أرى الفيلم. علبة السبيزي المفتوحة متروكة على اللابتوب. نصف ساندويشة البيرغر من إيمرين لا تزال على الطاولة. لم يكُن منامًا للأسف. لكنها كانت تكذب. تذكرت ما حاولت إقناع نفسي به قبل أنْ أنام. كانت تكذب.

بقيت أتقلب في السرير، لماذا هي كاذبة؟ لأن ذلك سيكون مريحًا لي. هذا فقط يجعلني أكذبها. عدا ذلك، فالجميع، بكل ألوان الطيف من المعارض إلى المؤيد مرورًا بالرمادي، ومن جماعة (كنا عايشين) إلى جماعة (الله يطفيها بنوره) كلهم متفقون، أنَّ النظام يفعلها ويفعل المزيد.

من ناحية الإجرام، لا شك يفعلها، من ناحية احترام الدين، يفعلها قطعًا، أعوانه ينطقون بكلمات الكفر روتينيًّا.

الشيء الوحيد المفاجئ -لي على الأقل- فيما ذكرته الفتاة هنا، هو «تنظيمهم». ربما كنت أعتقد أنَّهم يعذبون بوحشية، يغتصبون للشهوة والتعذيب والإذلال. لكن هذا التنظيم والمنهجية في الاغتصاب؟ لم تخطر ببالي. هذه التفاصيل التي ذكرتها جوري تدل على وجود برمجة لكل شيء. كل التفاصيل مخططة بإتقان لكي تكسر الفتاة، تحطمها من الداخل حتى بعد فترة طويلة من خروجها من المُعتقل. تخرج وتحمل المُعتقل معها. كما قالت جوري بالضبط.

هذا فقط هو الذي كان غريبًا قليلًا، لكنه ممكن جدًّا. مَن يستورد الخبرات النازية في التعذيب يمكنه أنْ يستورد خبرات أخرى لم تهزم ويسقط أصحابها، لذا بقيت «مجهولة». لا أعرف إنْ كانت تكذب أو لا. لكنهم يفعلونها وأكثر. قولًا واحدًا.

هل لا أعرف حقًا إنْ كانت تكذب أو لا؟ الصوت وطريقة الحديث والتفاصيل كلها تشير إلى صدقها. لدي هذا الحدس قبل أنْ أبدأ بدراسة التخصص. وكلما زادت الحالات التي رأيتها تأكدت من صحة حدسي بصدق الناس أو كذبهم. يخطئ أحيانًا. لكن نادرًا جدًّا.

إذن جوري لم تكُن تكذب للأسف. وهذا العالم تحدث فيه هذه الأشياء المروعة، ورغم ذلك تسير الحياة على طبيعتها، بل وقد يعيش المجرمون حياة رغدة هانئة مع عائلاتهم. الحمد لله، هناك آخرة. لأول مرة أشعر بنعمة الآخرة بهذا الشكل. الحمد لله سيحاسبون ويعاقبون.

ولأول مرة أشعر أيضًا كم هو خطر أنْ تكون نعمة الآخرة وسيلة لإسكات جوري، أو إسكات من يحاول الدفاع عنها... أو جعلي أنام كما لو أنَّ شيئًا لم يكُن.

نهضت من سريري. ثقل الديازبام في رأسي ومرارة العالم كله على لساني. شعور بالتفاهة والعجز يجعلني لا أستطيع حتى أنْ أنام. أفهم الآن تمامًا لماذا انتحر أنس. الآن اكتملت الصورة. تصورت أنَّها قد اكتملت مع ڤيديو معاذ. لكن لا.. الآن اكتملت. أفهم الآن أكثر وأكثر كل دوافعه فيما فعل... لم يستطع أنْ يتعايش مع كل ما عرفه -بتفاصيل التفاصيل- مع عجزه عن تغيير ذلك.

ثُم فكرت: لكنه حاول أنْ يغير شيئًا عبر هذا الفيلم.. لم يكُن عاجزًا تمامًا. بالعكس، لقد وثق صوت هذه الفتاة جوري وأصوات غيرها. لم يكُن عاجزًا. حاول بالفعل. لكنهم....

رجعت إلى سريري محاولاً النوم. كلما أغمضت عيني أتخيَّل المشهد الذي وصفته جوري وقد أصبح يضج بالتفاصيل. تذكرت ما قرأته عن «اضطراب الصدمة الثانوي». أعتقد أني على وشك أنْ أصاب به من مجرد مشاهدة ما وثقه أنس من شهادات. الله يعين قلبك يا أنس.

فتحت القرآن من هاتفي. سورة الرحمن بترتيل المنشاوي. أحبها وتهدئني كثيرًا. لم تجب على أسئلتي ولا طلبت منها ذلك. كنت أريد أنْ أهدأ قليلاً. قبل أنْ تنتهي، برقت في بالي فكرة. بدت لي مثل قشة لا أملك إلا أنْ أتعلق بها في غرقي.

كتبت إيميلًا إلى دكتور هاينز، أطلب فيه تغيير بحثي إلى دراسة الأساليب النفسية المستخدمة في حالات التعذيب في سوريا. أرسلت الإيميل. ونمت.

****

في اليوم التالي شاهدني الدكتور هاينز في الرواق.

- ماذا حدث للكنبة المريحة؟

كنت على وشك أنْ أقول إنَّها لم تعد مريحة، وإني لم أستطع النوم عليها أمس.

- شاهدت جزءًا من الفيلم لم أكُن قد شاهدته من قبل، من الواضح أنَّ كوادر التعذيب مدربة من خبراء نفسيين.. لا بد أنْ يكون هناك في الطرف المقابل خبراء في ذلك أيضًا.

هز رأسه متفهمًا.

- وماذا عن عدم الذهاب مجددًا إلى سوريا؟

كنت قد فكرت بهذا الأمر في المترو وأنا في طريقي إلى المشفى اليوم.

- لست واثقًا من رغبتي في العودة إلى سوريا بينما أشياء كهذه تحدث فيها.

- Viel Glück! Du wirst es brauchen.[1]

- بالتأكيد، شكرًا لك.

****

مساء بعد المشفى ذهبت إلى المركز. قابلتني نور ببرود جعلني لا أقول لها عن قراري بإجراء بحث عن حالات التعذيب في السجون في سوريا. خفت أنْ تعتقد أني أتملق لها بهذه الطريقة. شاب رمادي (يطبق[2]) ثورجية بهذه الطريقة الرخيصة. ماذا تظن؟ لست مُتيمًا بها. حسنًا. أنا مُتيم بها بالتأكيد، ولكن ليس لهذه الدرجة. تأثري أمس بشهادة جوري كان مستقلًا تمامًا عن أي مشاعر لنور. فضلت أنْ أحتفظ بمسافة أمان تبعدني عنها ما دامت تتصرف هكذا. لم أشعر بالذنب لأني طرحت عليها تلك الأسئلة التي أزعجتها. كانت أسئلة منطقية. ولا أزال أعتقد أنَّها ربما كانت تخفي شيئًا.

مرت عليَّ هي، تحمل حقيبة رياضية، وضعتها على الأرض وقالت: اللابتوب. وحاجيات أخرى لأنس كانت عندي. أعتقد أنك أحق بها. أنت أقرب الورثة شرعًا هنا.

- شكرًا لك، كان يمكن أنْ أمُر وآخذها أنا، لمَ تكبدت.

---

(١) حظًا طيبًا.. ستحتاجه.

(٢) يطبق: يلاحق، يغازل.

قاطعتني: والحقيبة أيضًا له.. لا داعي لإرجاعها.

بدت لي كما لو أنَّها تقول: لا داعي لاعتبار الحقيبة حجة للحوار معي. من المؤكد أنَّ لوني تغير لكني قلت: شكرًا لك، إنْ شاء الله.

لثوانٍ شعرت بانخفاض حاد في الضغط. هل كان هذا رفضًا رسميًّا لطلبي؟ كان أقرب إلى الطرد والقطيعة. لعل ذلك أفضل من أبقى معلقًا بحلم موافقتها. فلينتهِ الأمر. سأكون مضطربًا منهكًا بضعة أيام، أو أسبوعًا، ربما اثنين، ثُمَ يصبح الأمر عاديًّا.

«نور» قلت بصوت مرتفع.

التفتت لي، كانت تعود إلى مكتبها.

اقتربت منها وقلت بصوت حاولت أنْ يكون طبيعيًّا: «ماذا بخصوص طلبي؟ هل لا يزال قيد المعالجة»؟ قالت دون أنْ يرمش لها جفن: «لا يا يزن، أنا آسفة، abglehnt[1]».

لم أُصدم. كنت قد توقعت الرفض.

- هذا من حقك طبعًا، وأحترم رفضك، وأتشرف بك أخت فاضلة، لكن هل من الممكن أنْ أعرف إنْ كان حوارنا السابق قد أثر على هذا القرار؟

قالت فورًا كما لو أنَّها ترد على سؤال من مراجع هنا في المركز.

- لا أبدًا، هذا القرار كان منذ البداية، أنت رفضت سماعه وطلبت تأجيل الأمر.. لكنه لم يتغير.

- حسنًا، شكرًا لك.

---

(١) مرفوض.

«العفو أهلًا وسهلًا». هكذا بكل بساطة.

أكملت عملي. لم أنظر لها. خرجت أيضًا دون أنْ ألقي التحية على أحد. ولم أنظر خلفي. متيم بها نعم. لكن لدي كرامة أيضًا. بضعة أيام، أو أسبوع، أو اثنان، وينتهي الأمر. ربما أكثر قليلًا، لكنه سينتهي. إنْ شاء الله.

(صوت أنس مع مشاهد من فيلم «خيار صوفي - ١٩٨٢» صفوف من اليهود تنزل من القطار في أوشفيتز، صوفي تحمل ابنتها الصغيرة بيديها ويحتمي بها ابنها الأكبر قليلًا، يقترب منها ضابط نازي ويدور بينهما حوار).

في عام ١٩٧٩ صدرت رواية (خيار صوفي) للكاتب الأمريكي ويليام ستايرون، حازت الرواية على الجائزة الوطنية للرواية عام ١٩٨٠، وتحولت عام ١٩٨٢ إلى فيلم سينمائي فازت فيه الممثلة ميريل ستريب بجائزة الأوسكار عن أحسن دور بطولة نسائية.

في «خيار صوفي» تكون البطلة قد اعتُقلت وسيقت إلى أوشفيتز لاتهامها بالتعاون مع اليهود، يمر بها الضابط النازي، فتقول له إنَّها ليست يهودية، بل هي كاثوليكية مؤمنة.. فيسألها إنْ كانت تؤمن بالمسيح المخلص ويطلب منها أنْ تختار أي من ولديها سيذهب الآن إلى المسيح: الصبي أم البنت. على الأم أنْ تختار من سيموت خنقًا بالغاز، ومن سيعيش.. إذا عجزت عن الاختيار، فسيأخذونهما معًا.

وفي لحظة ضعف ستحاسب نفسها عليها طيلة عمرها، تختار الأم البنت الصغيرة، فيأخذونها.. البنت الصغيرة تصرخ بينما تغيب عن الأنظار، تنظر إلى أمها التي تفتح فمها لتصرخ... لكن بلا صوت.

هذه الواقعة حدثت فعلًا في أوشفيتز لامرأة قيل إنَّها يونانية أو رومانية، ولا شيء يدل على أنَّ هذا «التخيير» كان ثابتًا في التعامل مع أمهات أوشفيتز.

خيار صوفي لم يكُن منهجًا ثابتًا في أوشفيتز، لم يكُن هناك من درب الضباط عليه، كانت هناك كمية إضافية من اللؤم والحقارة في نفسية الضابط النازي..

أما «خيار جوري» فهو منهج مُعد بإتقان، يُنفَّذ بالتدريج يومًا بعد يوم، تُعد فيه الأسئلة مُسبقا، وتُنتقَى فيه الآيات وتُسجل وتُعد مكبرات الصوت لتُستخدم في وقت الاغتصاب، وتُستخدم آيات أخرى في وقت آخر، حقن طبية تستخدم لكي تشعر المغتصبة أنَّها تتمتع، ووسائل أخرى لجعلها تشعر كما لو أنَّها تريد المزيد من الاغتصاب.

«خيار جوري» هو منهج يساهم فيه خبراء في علم النفس، يقدمون خلاصة خبرتهم لمساعدة هذا النظام الذي يمكن أنْ يقدم دروسًا خاصة للشيطان.

خيار جوري لم يكُن خيار جوري فحسب، بل هو في حقيقته خيار «السوري» -كل فرد سوري بغض النظر عن انتمائه الاجتماعي أو الديني، من أي محافظة أو مدينة أو ريف- في الحقيقة عليه أنْ يختار واحدة من العبوديات التي يقدمها النظام.. أي محاولة للخروج من هذه الخيارات، ستجعل هذا الفرد يزور «بيت خالته» أو يقيم عندها.

-٢٩-

لأربعة أيام بقيت حقيبة أنس قرب الباب. لم أفتحها. كنت أريد أنْ أنسى الموقف الذي أوصلها لي. لم أنسه بالتأكيد، لكن فضلت أنْ لا أخوض فيه. مرت الأيام الأربعة بصعوبة. لكن ليس أكثر صعوبة مما توقعت.

سيطرت على نفسي بحيث لم أرسل إلى نور شيئًا على الواتس آب. كما أني لم أدخل على محادثاتي معها كثيرًا لأرى آخر ظهور لها. مرة فقط كل ساعة تقريبًا. ليس أكثر. سيقل الأمر بالتدريج. على العموم لست بنادم على شيء قُلته. ربما نادم قليلًا فقط. لكن حتى ولو كنت نادمًا. لا تراجع. أي محاولة مني للتقرب منها مجددًا لن تجلب لي سوى المزيد من الإحراج. حاولت أنْ أقنع نفسي أنَّ الأمر مجرد سيالات عصبية. أوكسيتوسين ودوبامين، سأتعود على الأمر أو أجد تعويضًا محفزًا لهذه السيالات في شيء آخر. للأسف لم يتغير شيء في شعوري بسبب هذه القناعة.

أغرقت نفسي بالعمل، بالبحث عن دراسات يمكن أنْ تساعدني في موضوع بحثي، تناولت الإفطار مرة مع إيهاب ومجموعة من أصدقائه، كنت رأيت بعضهم في جنازة أنس. اكتشفت أنَّ إيهاب موهوب بالطبخ أيضًا. الإفطار كان «شاكرية»[1] تنافس بجدارة شاكرية أمي وتسقية حمص بالزيت[2] لا تقِل عنها قوة. كذلك تناولت الإفطار مرة أخرى مع مجموعة أطباء وأطباء أسنان سوريين تعرفت إليهم في صلاة التراويح

(١) الشاكرية: أكلة شامية مكونة من اللبن واللحم والرز.

(٢) التسقية: هي الأكلة التي تُسمى فتة في بعض البلدان العربية.

في مسجد المركز الثقافي للحوار الذي نسميه مسجد أوسلو، ثلاثة من حمص وواحد من حماة، وكما هو متوقع كان الصراع حول «حلاوة الجبن» محور الجلسة، هل هي حمصية أم حموية؟ تم تحكيمي للبت في الأمر على اعتبار أني «شامي» محايد، لكني أفلتُّ من الأمر كما يليق بشامي لا يريد أنْ يخسر أحدًا.

لم أخرج من البيت صباح آخر خميس في رمضان لأنَّه كان عطلة عامة، عطلة عيد الصعود، وهي عطلة تلي عيد الفصح بـ٤٠ يومًا، كنت مُنهكًا من الصيام وقد أشرف رمضان على الانتهاء، بقيت أتقلب بكسل في الفراش دون أنْ أفعل شيئًا. ثُم خطر لي أنْ أفتح حقيبة أنس وأرى ما فيها.

إلى جانب اللابتوب هناك كاميرا نيكون، ودفتر ملاحظات وكتيب عن دورة إخراجية وكتابان بالإنجليزية عن السينما الوثائقية، مجموعة كتب لا رابط بينهم: المسيري وعلي طنطاوي وبرهان غليون ورواية لغادة السمان. وقرص مدمج لألبوم (مهتمة بالتفاصيل) لأصالة.

وصلت اللابتوب بالكهرباء، عندما فتحته خيِّل لي أنَّ رائحة سجائر أنس المفضلة تملأ المكان. L&M أزرق. كانت تضايقني عندما سكنت معه في شقته. اليوم تذكرني به. ذهب أنس وبقي دخانه. أم أني أتوهم؟ لا يمكن لرائحة سجائر أنْ تبقى كل هذه المدة.

شغلت الجهاز. يبدو أنَّ نور قد ألغت «كلمة السر». هل فعلت ذلك كي لا أتصل بها وأسألها عنها. هذا أفضل. أنا أصلًا لا أريد أي تواصل معها. كررت مع نفسي كما لو أني أرغب بأنْ أقنع نفسي بذلك.

صورة سطح مكتب اللابتوب كانت صورة معروفة لطفل سوري يبكي وتحتها جملته القاتلة: «سأخبر الله بكل شيء».

فكرت: يبدو أنَّ أنس قرر أنْ يخبر الكل بكل شيء.

سطح المكتب منظم جدًّا كما هو متوقع من أنس. كنت أحيانًا أنسق ما موجود على سطح مكتب جهازي فقط لأتخلص من تعليقاته عن «عفاشتي»[1] حسب معايير هوس التنظيم التي تتحكم بأنس.

كل ملفات سطح المكتب منسقة، بحيث يقود كل ملف إلى آخر وآخر، ملف أغاني يؤدي إلى ملف عربي وغربي، العربي يقود إلى ملف لأصالة وملف آخر يضم كل الآخرين، وملف الآخرين هذا بدوره ينقسم إلى ملفات. ملف أصالة ينقسم إلى ملفات. طرب. خليجي. بوب. ديني.

الشيء ذاته مع الموسيقى الغربية: ملف للموسيقى الكلاسيكية، لموسيقى البوب، لموسيقى العصر الجديد. الكتب قسمها بالأسلوب نفسه. والصور. كل شيء في حياته كان منظمًا بهذه الطريقة. مثل قمصانه في الدولاب. يرتبها حسب الألوان، بل وحسب ترتيب الألوان في الطيف الشمسي. وكل لون يضعه حسب تدرجاته. حتى الجوارب والملابس الداخلية. بل أنَّه كان يرتب بهذه الطريقة مشترياته عندما يضعها على طاولة الدفع. كان يعتبر أنَّ هذا هو «الطبيعي». مجرد رؤيته لملابسي في حقيبتي وقد نظمتها دون اعتبار للألوان كفيل بإزعاجه. كل شيء عنده يجب أنْ يكون في قوائم وملفات منظمة.

أول مرة أنتبه إلى أنَّ هذا ربما ساهم في انتحار أنس. كيف يمكن لشخص يعتقد أنَّ العالم كله يجب أنْ يكون منظمًا منسقًا مثل خزانة ملابسه أنْ يتعايش مع كل الظلم والوحشية في العالم نفسه؟ عليَّ أنْ أسجل هذه الملاحظة. ربما كانت الميول الانتحارية لأصحاب اضطراب

(١) عفاشتي: بهدلتي.

الترتيب القهري ناتجة من هذا التناقض بين العالم كما يرغبون أنْ يروه وبين العالم كما هو.

فتحت المتصفح، تاريخ الزيارات مَمحو. ربما تكون نور قد محته. أو ربما يكون أنس قد برمجه بحيث يُمحَى تلقائيًّا كل فترة معينة. غالبًا نور قد فعلت.

خطرت ببالي فكرة. أعرف تمامًا هوس أنس بالتنظيم. هل سيكون عنده شيء في حاسوبه عني؟ في خانة البحث، كتبت اسمي: يزن الغانم.

ظهرت لي نتيجة واحدة. في ملف إكسل شيت بعنوان «Syrians in Germany». فتحت الملف. هناك خانات متعددة. دمشق. ريف دمشق. حمص. حلب. إدلب. درعا. اللاذقية. طرطوس. الحسكة، إلخ. كل المحافظات.

للحظات، دق قلبي بشدة كما لو أني على وشك الحصول على نتيجة امتحان مصيري. أين سيكون اسمي؟ دمشق أم دير الزور؟

اسمي في دمشق. إذن كان أنس يعتبرني شاميًّا.

لعله يقصد أني «أسكن» دمشق. بحثت بسرعة عن اسم صديق حمصي له هنا في ألمانيا، كان قد انتقل مع أسرته إلى دمشق وسكن فيها منذ أيام البكالوريا. اسمه في حمص، ليس في دمشق.

أحسست بأني ظلمت أنس. ثُم أحسست فورًا أني أظلم دير الزور كلها. ماذا لو اعتبرني أنس أو أي أحد آخر أني ديري؟ أي طواحين هواء هذه التي أحاربها أو أتوهم أني أفعل؟

تذكرت تعليق أنس عن «خيار جوري». هذا الخيار هو خيار السوري. كل سوري وأي سوري بغض النظر عن منطقته أو مدينته. الكل يتساوون في هذا الخيار. الخالة تعامل الكل سواسية في بيتها. هذه هي الحقيقة. برات السور وجوات السور، الكل سواسية في بيت الخالة. السور الوحيد الحقيقي هو سور بيت الخالة.

بحثت عن اسم نور. وجدتها بشكل طبيعي. نور نجار، رقم هاتفها وأين تقيم في برلين. الشخص «العادي» لن يفعل ذلك مع فتاة يحبها. لن يضعها ضمن ملف إكسل شيت. ارتحت قليلًا، لعل هذا يعني أنَّه لم يكُن هناك شيء بينهما. لكنه وضعني أنا، ابن خالته في ملف إكسل شيت. لن يفعل هذا سوى أنس. كلنا سواسية عندما يأتي هاجس التنظيم.

في خانة البحث، وضعت «بيت خالتي».

كما توقعت قادني هذا إلى ملف شامل يضم ملفات كثيرة جدًّا. ملفات تضم مقاطع ڤيديو للشهادات التي صورها قبل التقطيع. ملفات للمقاطع التي تم استبعادها. ملفات لقطات وثائقية تؤدي إلى ملفات أخرى. هولوكوست. سوريا. قيصر. صور تركيبية. صور بيانية.

بحثت ضمن هذا الملف حسب الأحجام الأكبر. ظهرت لي الملفات الأكبر، واضح أنَّها لنسخ متقدمة من الفيلم. رتبتها حسب التاريخ. وجدت ملفين بتاريخ لاحق لانتحار أنس. وآخر ملف قبل انتحار أنس كان يوم الثالث من آذار. قبل اثني عشر يومًا من تاريخ الانتحار. كان قد سمى الملف: baitkhalty.finalfinal حجمه كان أكثر قليلًا من ٢ غيغا.

ملفا نور كانا باسم (baitkhalty.readyfinal وbaitkhalty.ready) دخلت على الأحدث منهما كان الحجم أقل قليلًا من ملف أنس. بفارق نحو ٥٠ ميغا.

ربما اضطرت أنْ تخفض قليلًا من الدقة من أجل سهولة التحميل؟ لكن ما الفرق الذي ستحدثه خمسين ميغا بايت أقل؟

ذهبت إلى خواص كل ملف. الدقة ذاتها (١٩٢٠ × ١٠٨٠).

فتحت ملف أنس. مدته ٦٢ دقيقة.

ملف نور الأخير مدته ٦٠ دقيقة وعشرون ثانية.

فتحت الفيلم كما حمل على اليوتيوب، المدة نفسها لملف نور الأخير.

هناك دقيقة وأربعون ثانية تقريبًا حُذفت من فيلم أنس.

فتحت ملف نور، هناك عشر ثوانٍ للكلمة التي كتبتها في بداية الفيلم.

النهاية ذاتها في الملفين.

إذن نور حذفت تقريبًا دقيقتين من فيلم أنس.

فتحت ملف أنس ووضعته على سرعة مضاعفة ٨ مرات، ربما كان هناك انقطاع أو تكرار غفل عنه أنس، وانتبهت له نور. مجرد وضع كلمة «غفلة» مع اسم أنس في جملة واحدة تجعل الأمر بعيدًا مثل مغالطة منطقية، ولكن ربما.

كل شيء بدا طبيعيًّا في ملف أنس، على الأقل حسب هذه السرعة. حاولت أنْ أبحث في غوغل عن وسيلة لمقارنة محتوى ملفي الفيديو. لم أجد.

اتصلت بأخي مأمون. مدمن برمجيات ولا بد أنْ يعرف الجواب أو يتعرف عليه.

شرحت له سؤالي الذي بدا له غريبًا وغير متوقع من شخص باهتماماتي، لكنه أجاب جوابًا مفصلًا لم أكُن بحاجة لفهمه. أريد تطبيقه فقط. أرسل لي رابطًا لتطبيق يحلل ملف الفيديو إلى آلاف الصور، ثُم يقارن هذا التحليل بتحليل الفيديو الآخر، ويشير لي إلى مواضع الاختلاف بين الملفين، مع احتمالية عالية لوجود نتائج خاطئة.

هذا ما كنت أحتاجه، ابتعت التطبيق الذي نصحني به أخي، نصبته على جهازي، ونقلت الملفين هناك. تركت التطبيق يقوم بعمله ونمت قليلًا، استيقظت قبل صلاة المغرب بنصف ساعة تقريبًا. أعددت طعام إفطاري، وبينما أنتظر الأذان، رجعت إلى جهازي لأرى نتائج المقارنة.

كانت هناك خمس نتائج.

النتيجة الأولى، كانت الكتابة التي وضعتها نور في بداية الفيلم. هذه واضحة وسهلة.

الثانية، كانت جزءًا من تعليق صوتي لأنس على مشاهد الهولوكوست، يتحدث فيه عن أنَّ الكثيرين من العرب قد يتحسسون من المقارنة أصلًا وتحليل أنس لهذا التحسس. حذفته نور، وحسنًا فعلت، مَن يتحسس لن يهمه الشرح والتحليل ولن يقتنع به. هذه ليست معركة أنس.

المقطع الثالث كان من شهادة هيثم سقباني. تفصيل إضافي عن الطفل المغتصب، قد يفهم منه أنَّ الطفل من منطقة معينة. أيضًا حَذْفه منطقيٌّ جدًّا.

المقطع الرابع والخامس كان من الشهادة الأخيرة، شهادة جوري. في واحد منهما تَذكُر جوري أنَّ صورة بشار الأسد كانت مُعلقة في السقف فوق سرير الاغتصاب، إذا فتحت عينيها ستجد صورته أمامها وهو يبتسم.

والأخير تقول فيه جوري إنَّ المُعتقلات كُن يجبرن على الغناء لبشار. نحنا رجالك يا بشار، ومنحبك.

«صورة السقف المبتسمة» تفصيل لئيم جدًّا بالفعل. لكن كل ما في شهادة جوري موجع.

المقطع الأخير، لم أشعر أنَّ هناك داعيًا حقيقيًّا لحذفه.

أضعت وقتي بلا سبب. نور مارست الرقابة التي تريدها على فيلم أنس، ولكن رقابتها لم تكُن سيئة أو مؤثرة سلبًا على الفيلم.

كنت قد أعددت «حراق أصبعو» حسب تعليمات أمي أخيرًا، واحتياطًا أعددت مكرونة سريعة التحضير لتكون إفطاري البديل في حالة فشل الحراق أصبعو.

أعددت المائدة، وأخذت صورة للحراق أصبعو وللمكرونة وأرسلتها إلى أمي، ابنك مَعدّل. الحمد لله، كانت الطبخة جيدة، ليست ممتازة، لكنها جيدة، سبعة من عشرة بمقاييسي. خمسة بمقاييس أمي، وثلاثة بمقاييس أنس. رحمك الله يا أنس. حضورك معي بعد موتك صار أكثر مما كان قبل ذلك.

****

في اليوم التالي كان جدولي مزدحمًا، اجتماع للأطباء لمناقشة حالات الأسبوع، ثُم الجولة الدورية على ردهة المرضى، الركض إلى صلاة الجمعة، ثُم العودة لمقابلة حالات جديدة.

قرابة الساعة الثالثة والنصف كان موعدي مع (توبياس)، شاب ألماني في الثانية والعشرين من العمر، يعاني أعراض القلق وسوء تقدير للذات وميول انتحارية.

عندما سألته أكثر، قال لي إنَّه كان كثير التأتأة في طفولته، وإنَّ والدته كانت تعنفه على ذلك. لم أعد أسمع ما يقول. ضربني الفهم. فجأة فهمت كل شيء. دارت الدنيا بي وأنا على مكتبي.

وقفت فجأة. لاحظت فزعه. طلبت منه أنْ يمهلني للحظات. هرعت إلى قاعة الطعام الصغيرة. عند البراد وقفت وأنا أكاد أقع. شربت قدحًا من الماء، ثُم تذكرت أني صائم، فبصقته فورًا. بللت وجهي بالماء. اقتربت مني زميلة وسألتني إنْ كنت بخير. لا أذكر ماذا قلت لها. لكني جلست.

التأتأة!

المقطعان المحذوفان من شهادة جوري، فيهما لدغة.

نور حذفتهما لأنَّ فيهما لدغة.

جلست أجمع أفكاري وأربط كل ما قالت، قالت إنَّها مؤثرة وقيادية، وأكثر من خمس سنوات منذ أنْ حدث لها كل ذلك... ومن لهجتها هي دمشقية.

الصوت مغير بجهاز، والوجه مموه.

لكن اللدغة.....

تذكرت وجه نور عندما سألتها إذا كانت قد تعرضت للنوع الثانوي من اضطراب ما بعد الصدمة. قالت لا بطريقة غريبة. لم أفهمها يومها. الآن أفهم. لم تصب بالنوع الثانوي. لأنَّها تعرضت للنوع الأول. تعرضت للصدمة بشكل مباشر.

تذكرت كل ما اعتبرته غريبًا في نور. في وجود شيء جامد، قاسي، ميت فيها.

الآن فقط فهمت السبب في كل ذلك. الآن فهمت لمَ هي كذلك.

جوري هي نور.

-٣٠-

لا أعرف كيف أنهيت بقية عملي في ذلك اليوم. خرجت من المشفى أمشي في الشوارع. قطعت شارع أوغستشتراسه ثُم شارع كوبنبلاتس ثُم شارع لينينشتراسه وقفت أمام بناء وانتبهت إلى وجود لوحة نحاسية على الأرض. هذه الشتولبرشتاين أو «أحجار التعثر». لوحات توضع أمام الأبنية التي سكنها اليهود قبل أنْ يتم اعتقالهم، للتذكير الدائم بفظاعة ما حدث. قرأت ما هو مكتوب على اللوحة. يبدو أنَّها عائلة مكوَّنة من أب وأم وطفلة. ريتشارد إبراهام، مواليد ١٨٩٥، محاسب تجاري.

زوجته هيرتا إبراهام (المولودة باسم هيرتا ميكايل) مواليد ١٨٩٥، مثل زوجها.

طفلتهما روث نيللي إبراهام، مواليد ١٩٣٤.

اعتُقلوا جميعًا في الثالث من أكتوبر ١٩٤٢.

ماتوا جميعًا في أوشفيتز، تاريخ نقل الأم إلى أوشفيتز التاسع من أكتوبر ١٩٤٤، لكن لا شيء عن تاريخ نقل الأب ولا الطفلة.

فكرت، رغم كل شيء، كانوا محظوظين.. على الأقل هناك من يتذكرهم، هناك إشارة تقول إنَّهم عاشوا هنا. تذكرت كل مَن سمعت قصص موتهم تحت التعذيب في فيلم أنس. هل سيجرُؤ أحد على أنْ يضع لوحة تقول إنَّهم عاشوا هنا؟

بقيت أسير حتى لم أعد أعرف أين أنا، إلى أنْ وصلت إلى النصب التذكاري لجدار برلين. أخذت أمشي ببطءٍ وأنا أتأمل بقايا الجِدار. هذا الجدار كان يفصل بين عالمين. سقط هنا، ولا يزال هناك، عندنا. كلنا نقبع على الجهة المظلمة منه. جلست على العشب وأنا أتذكر ما قالته جوري -أو نور- عن الآية التي كانت تكتبها على الجِدار عن كل مرة تعود بها من الاغتصاب. إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ. كيف تعاملت مع كل هذا يا ترى. كيف بقي جِدار إيمانها صلبًا رغم كل ما مرت به. كنت أظنها قوية. لكن الآن كلمة قوية لا تعبر عنها. استلقيت على العشب، فتخيَّلت ما ذكرته جوري عن الصورة المعلقة على السقف في المقطع الذي حذفته نور.

مساء الجمعة هو موعد بدء هجوم الألمان على شرب الكحول. يقضون أسبوعهم مع الاحتفاظ بمسافة أمان نسبية عن الكحول، ثُم تبدأ ساعة الصفر مع نهاية عمل يوم الجمعة، وتصل ذروتها مساء السبت. كل ما يعانونه من ضغوط عمل في الأسبوع ينسونها في الكحول. كان ذلك قد بدا واضحًا أمامي وأنا على العشب. تمنيت الآن لو كانت الكحول حلالًا. لو أجد ما ينسيني ما عرفت. لو أنام. لو أني لم أعرف نور بالأساس.

نهضت عن العشب ومشيت بلا هدف. وجدت نفسي أسير في شوارع لم أعرفها من قبل. أرتطم بالبشر دون أنْ أعتذر كما لو كنت تحت تأثير مخدر. استلمت ما أستحقه من شتائم دون اكتراث. كنت أسير مثل جثة خرجت من القبر وتمنت لو عادت إليه. الزحام يبدو مُوحشًا أكثر من القبر. وجدت نفسي في شارع غوستاف ماير، فأدركت أني سرت أكثر مما يجب، وتذكرت أني صائم وأني لم أتناول إفطاري بعد. بحثت عن أقرب مطعم حلال، ومشيت إليه. لم آكل أكثر من لقمات، أحسست بحاجتي إلى

الحديث مع أي أحد عن الأمر. لكن مَن هو هذا الذي يمكن أنْ أتحدث إليه عن هذا؟ ربما كنان.

أرسلت إليه:

- هل تعرف مَن هي جوري؟

كان موجودًا «أونلاين» لكنه لم يرد.

رد بعد قليل:

- أنت هل تعرف؟

- نعم.

- كيف عرفت؟ هل أخبرتك؟

- لا.. أعطتني لابتوب أنس، وشاهدت النسخة الكاملة، وكانت قد أظهرت لدغتها في مقاطع محذوفة، فخمنت.

- ألم تخبرها أنَّك تعرف؟

- لا. كيف تعرف أنت؟

- جوري هو اسمها بيننا أصلًا. في الثورة وعلى الفيس بوك كان اسمها جوري الشام. اختارت أنْ تتحدث به في اللقاء مع أنس.

- أنت تعرف فقط بسبب الاسم؟

- لا. قصة طويلة.. أنا اعتُقلت قبل اعتقالها، فلا أعرف ماذا قيل وقتها عندما خرجت هي.. لكن بعد أنْ ذهبت إلى تركيا كان هناك حديث عما تعرضت له. فقط إنَّهم (آذوها) دون أي تفاصيل. ولم يسألها أي أحدٍ طبعًا. من الشباب أقصد. عندما ذهبت إلى ألمانيا والتقت بأنس،

لم تتحدث هي عن أي شيء لسنوات، ولكن عندما بدأ أنس بجمع الشهادات لتصوير الفيلم طلبت منه أنْ يتركها تروي شهادتها قبل أنْ ينهي العمل في الفيلم. وعندما حان الوقت طلبت من أنس أنْ يصور شهادتها بشرط أنْ يترك الكاميرا تصور ويخرج من المكان. أنس عرف عندما شاهد الفيديو لاحقًا.. تقريبًا قبل أشهر فقط من انتحاره، وقبل أيام من دخوله المصحة.

- هل هذا ما حدث في ديسمبر؟ أخبرتني مرة إنَّ ثمة شيئًا حدث بين آخر نوفمبر وأول ديسمبر.

- بالضبط. عندما اكتشفت أنَّه لم يعد يتابع الدوري الإسباني، حدست أنَّ ثمة شيئًا خطيرًا قد حدث.. تحدثت معه.. لم يخبرني بالتفاصيل، لكنه كان منهارًا، قال إنَّه لا يمكن لأحد أنْ يتخيَّل ما مرت به نور.. حدثتني هي عندما دخل المصحة.. تعاملت مع الأمر أني أعرف.

- كيف كانت؟

- قالت شيئًا عجيبًا.

- ماذا قالت؟

- أنا مَن مر بكل ذلك، وليس أنس! أنا مَن يجب أنْ يدخل المصحة!

- رد فعل أنس مرتبط بالتأكيد بحبه لها. أنْ تتأثر لقصة سمعتها شيء مختلف عن تأثرك بما حدث لفتاة تحبها.

- هذه هي العقدة التي لم يستطع أنس تجاوزها، للأسف.

- أي عقدة؟

- أنس كان معجبًا بنور قبل الثورة، رآها أول مرة عندما زار معاذ في الجامعة. لم يحدثها ولم تحدثه.. ثُم أحبها عندما انضما للثورة، وكانت هي متقبلة وواضح أنَّها كانت تستلطفه أيضًا.. كان بينهما تلميحات واضحة وربما مصارحة في الأيام الأخيرة قبل أنْ تُعتَقل.

- ثُم؟

- ثُم لم يحدث شيء. اعتُقلت هي وسافر هو، لم يلتقيا إلا بعد سنوات، وكانت نور قد تزوجت وطلقت. بقيا صديقين. لكن لا أكثر. لم يفتح أنس الموضوع قط. كان لا يزال يحبها. لكنه لم يستطع تجاوز أنَّها أصبحت مطلقة.. وهذه الأمور.. كان موضوع زواجها قد جرحه، ولا أعرف إنْ كانت احتمالية تعرضها للاغتصاب قد أثرت في موقفه.

أنس المهووس بالكمال.. تعامل مع زواجها على أنَّه منقصة. متوقع جدًّا. لا مفاجأة بالنسبة لي.. لكن أنَّه عرف كل ما حدث لها دفعة واحدة؟ لا بد أنَّه صُدم جدًّا.

- قالت لي نور إنَّ معاذ قد تسبب باغتصاب فتاة وموت شاب وحُكم مؤبد على آخر، هل كانت تقصد نفسها.. هل الشاب الذي حُكم بالمؤبد هو أنت؟

- معاذ تسبب باعتقالي نعم، الله يسامحه. لست متأكدًا بخصوص نور.

- الله يسامحه؟ أنت تقول هذا يا كنان؟

- نعم. الله يسامحه. وصلت إلى هذا. متصالح تمامًا مع كل ما حدث. هذا أسهل بكثير من أنْ أمضي الوقت في تخيُّل عذابه في جهنم.. أو

ماذا كنت سأفعل به لو شاهدته.. لا أتحدث عن معاذ فقط.. معاذ وغير معاذ.

لعله يقصد روان أيضًا. قصة حبه التي طلقته عندما حكم عليه بالمؤبد.

كتبت له:

- الوصول إلى هذه النقطة ليس سهلًا أبدًا.

- الإبقاء على الغضب أصعب بكثير، الغضب المكبوت كان يأكلني من الداخل، يؤذيني شخصيًّا، قرار التخلي عن الغضب كان قرارًا مريحًا جدًّا، وهو قرار لا يؤخذ مرة واحدة، بل قرارٌ مستمر، أقرب إلى الالتزام منه إلى الشعور النبيل كما يتوهم البعض.

ربما لم يكُن كنان يعرف، لكن الكثير من المعالجين النفسيين يعملون مع مرضاهم لسنوات طويلة، فقط لكي يصلوا إلى هذا الذي كان كنان يتحدث عنه. المغفرة، لا كشعور نبيل، ولا كنسيان لما حدث، بل للتخفيف من ثقل الماضي على اللحظة الراهنة.

- ما علينا، أين ستحيي[1] الليلة؟ شخصيًّا سأحييها مع «الشباب الطيبة» في المهجع ١٧، رح نشتهيك معنا».

وأرسل وجهًا ضاحكًا.

كنت على وشك أنْ أنسى. الليلة ليلة السابع والعشرين. هذه ليلة القدر. جاءت في وقتها. أحتاجها جدًّا. أحتاج أنْ تحييني أنا. أو تحيي شيئًا فيَّ أخشى أنْ يكون قد تلقى ضربة كبيرة اليوم. أخشى أنْ لا أخرج من تجربة «ما أدركته» اليوم سليمًا. كنت بحاجة لهذه الليلة جدًّا. بحاجة لها الليلة.

---

(١) ستحيي الليلة: ستقوم الليلة.. صلاة قيام الليل.

أكملت طعامي على عجل، وركبت سيارة أجرة إلى مسجد الزيتونة. قدرت أنَّه سيكون أقل زحامًا من غيره. تمنيت لو يكون لدي بعض الوقت لكي أرجع إلى البيت وأستحم. رآني سائق سيارة الأجرة وأنا أحاول أنْ أشم إبطي. لدي هاجس دائم من هذه المنطقة. السوبرماركت الذي يجاور المسجد مباشرة لا بد أنَّه مغلق الآن. طلبت من سائق الأجرة أنْ يقف عند أي متجر من متاجر إيديكا التي تبقى مفتوحة ٢٤ ساعة. هرولت لآخذ مزيل رائحة العرق والمناديل المعطرة. لن أستطيع أنْ أركز في الصلاة إذا كان لدي شعور أنَّ رائحتي كريهة وأنَّ هناك حولي مَن انتبه لذلك.

وصلت قبل أنْ يؤذن العشاء، منحني ذلك وقتًا لكي «أعد» نفسي على نحو لائق. الإمام شاب مصري وقراءته مصرية جميلة. أحب القرَّاء المصريين أكثر من غيرهم. قرأ سورتي غافر وفصلت. في العادة، أستمتع بسماع القراءة بالصوت الجميل. لكن هذه المرة أنا لم أكُن أنا. تخيَّلت جوري وهي تسمع الآيات. تخيَّلتها وهي هناك تواجه كل ذلك. بكيت من الداخل. تمرغ قلبي في دموعه. لم أعرف إلا أنْ أسأل تلك الأسئلة التي لا بد أنْ تكون قد مرت على ذهن جوري بينما هي تتعرض لما تعرضت له.

سألته، وأنا ساجد، أين كنت؟ لمَ لم تتدخل؟ كيف تركتهم يفعلون ذلك؟ كانوا يجعلونها تسمع آياتك! كانوا يجعلونها تسمع آياتك يا رب بينما هم يغتصبونها.

كيف تركت ذلك يحدث؟

لم أقترب قط من تلك الأسئلة في حياتي الشخصية. لم يحدث لي ما يجعلني أقترب. مثلي مثل الملايين. لكن عندما أكون بالقرب من تجربة كهذه، لا يمكن إلا أنْ أجد نفسي في قلب الأسئلة. في سجودي كنت أحاول أنْ

أُهدئ من روعي. أقول: جوري نفسها تجاوزت الأمر. ربما لم تفعل تمامًا. لكنها لم تفقد إيمانها على الأقل. مرت عليَّ آيات سورة غافر ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾.. ووجدت نفسي أسأل.. لكنها دعتك يا رب. دعتك. كانت تكتب آيات قريبة من هذه على الجدار في كل مرة كانوا يغتصبونها.

كنت على وشك الاختناق بأسئلتي. كان قلبي يلتفت يمينًا وشمالاً يبحث عن جواب. كيف حدث كل هذا؟ استجبت بعد شهرين؟ هل الأمر هكذا؟ لم نتعلم إنَّه هكذا. لم نفهمه هكذا. ثم أخذتني آيات سورة فصلت إلى الدعاء مرة أخرى.

﴿**لَا يَسْأَمُ الإنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّر فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ**﴾.

حاولت أنْ أجد جوري في الآيات. حاولت أنْ أسمع كيف ستسمعها. أخذت آذان جوري وقلبها وأنصت للآيات.. لم نسأم من المطالبة بالخير، ثُم إذا لم يأتِ، ندخل في اليأس. لكن ما هي حدود «ما يجب» و«ما لا يجب». لا نعرف. ربما لا حدود هناك.. لعلها ستلوم نفسها. كلنا سنفعل. سنقول إننا وقت النعمة والخير لم نكُن كما يجب. وحين حل الابتلاء كُنا بدعاء عريض. لكن الآية قالت لجوري شيئًا آخر أيضًا. منحتها «تصبيرة» تتصالح بها مع نفسها.

فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ. نعم. ليكن هذا عزاءك وصبرك. لن يفلتوا من العقاب.

لكن ماذا بعد؟ هل ننتظر عقاب المجرم في الآخرة؟ هل ننتظر أنْ يمر الأمر فقط؟ هل نصبر على هذا العذاب إلى أنْ نعتاد عليه؟ أو حتى يخف قليلاً؟ ثمَّة شيء مفقود هنا. ثمَّة شيء ينقص فهمي لهذا الأمر.

لتحقيق هذا أستطيع أنْ أصف عقاقير للأمر. حبة جلادم ٥٠ ملغرام. ممكن ٤ حبات في اليوم. أو سيتالوبرام ٥ ملغرام. لحد ٤٠ ميلغرام. فلوكسيتين ١٠ مغ، لغاية ٦٠ مغ. أي شيء يسيطر على الدوبامين والسيروتنين[١].

لكن لا. لا بد أنْ يكون هناك شيء آخر، شيء غير العقاقير. وغير الدوبامين والسيروتنين. لا بد أنْ يكون هناك شيء يتعامل مع كل هذا الظلم غير العلاج بالعقاقير.

تذكرت كلام كنان عن الذي أعانه في محنته. رؤيته لكل شيء على أنَّه ابتلاء. امتحان. امتحانه كان بأسئلة صعبة أكثر من سواه. لكن هذا الألم الذي مرت به جوري يتجاوز هذه الفكرة. أو هكذا أظن. رباه. هذا امتحان شديد الصعوبة. ليس خارج المنهج فقط. هذا خارج كل شيء.

عندما وصل الإمام إلى أواخر السورة، وجدت قلبي يرتعش كارتعاشة مُحتضر..

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذه المرة رأيت الآية على نحو مختلف. هذه المرة رأيت أنَّ الآية التي تشير لها خاتمة السورة هي

---

(١) الدوبامين والسيروتنين: سيالات عصبية تتحكم بالمزاج والنشاط والاكتئاب.

في الآفاق وفي الأنفس في الوقت ذاته. وصلت الأنفس إلى الآفاق هنا بهذا الذي تعرضت له، بصمودها أمام كل ذلك. استحضرت جوري وشاهر وفارس ولولا وقتيبة وأيوب وجمال ورنيم وعلاء ومهند وعمر وإبراهيم وكلهم. تلك القوة التي وجدوها في أنفسهم كانت رحلتهم إلى الآفاق، هذه الآية التي أراها الآن.

قلبي كان في نوبة صرع. لا أعرف إنْ كان هذا قد ظهر على جسدي. خطر في ذهني لأول مرة أنَّ الأصل في هذا الامتحان أنْ نجد له معنى. لن نستطيع أنْ نتجاوزه ما لم نجد معنى لكل هذه المعاناة والألم. لن يقِل الشعور بالمعاناة. لكننا سنفهم الـ(لماذا). وعندما نفهم هذا سنستطيع أنْ نتدبر الـ(كيف). كيف نتمكن من تجاوز الأمر. الألم سيكون امتحانًا فقط عندما نفهم لماذا هناك ألم ونجد له معنى. دون هذا ستكون المعاناة محض عبث. ليس الأمر أنْ نطرح أسئلة على الامتحان. بل هو أنْ نعد أجوبتنا له. إنْ لم يتغير هذا الواقع المحيط حولنا، بكل ظلمه، بكل قسوته، فعلينا أنْ ننتقل نحن إلى أفق أعلى لكي نستطيع التحمل. إنْ لم تكُن إجابة الدعاء بتغيير الامتحان، فعلى الأقل يمكن أنْ تكون بالقدرة على الصمود فيه.

وكلما كانت المعاناة أكبر، والمعنى الذي وجده الشخص كبيرًا، تخرج من مدرسة التجربة أقوى وأكبر. لكن يا رب عفوك. لا يتخرج الجميع من هذه المدرسة. هناك مَن يفقد القدرة على الفهم. ينقطع عن التواصل مع الواقع ويفقد عقله، حرفيًّا. لعل هذا يكون رحمة له. يقل فهمه للظلم الذي يتعرض له. فيكون ألمه أقل.

في النهاية، لا يمكن للكل إحراز درجات النجاح في الامتحان، لكن التقييم النهائي سيأخذ حتمًا في الحسبان صعوبة الأمر. هذا ليس عندنا.

لم أدرك أني أبكي إلا عندما سجدت على الأرض. أحسست أني قد بللتها بدموعي. عندما صلى الإمام صلاة الوتر، وبدأ بسورة الأعلى، وجدت نفسي أقف عالقًا عند الآية الثالثة. (والذي قدّر فهدى).

بقيت فيها. لم أسمع شيئًا من بقية الآيات. تذكرت تأملًا قديمًا في السورة، عن السمكات التي تضع بيوضها في جانب المحيط الأطلسي ثُم تهاجر إلى الجانب الآخر، وتفقس البيوض، فتسلك السمكات الصغيرة الطريق نفسه عبر المحيط، وتلتحق بأمهاتها.

قدّر فهدى. أحسست أنني سمكة صغيرة أتلمس طريقي في بحر الظلمات. لكني أجده، رغم كل الظلمات، هناك نور يقودني إلى الطريق. نور. نور أو جوري. لعله النور المنبثق من تجربتها في بحر الظلمات هذا.

هدأت. لم أعد أبكي. الأرض موضع سجودي جافة. أعتقد أنَّ خزان دموعي ومشاعري قد استنزف الليلة. ولكن عندما بدأ الإمام يقرأ في دعاء القنوت، بدأ النشيج الجماعي، بدأ الأمر بشاب كان يقف أمامي، ومنه تحول الأمر إلى عدوى سريعة. كنت أعي تمامًا كيف يؤثر بكاء شخص واحد على المجموع، بمجرد أنْ ينزع أحدهم قناع اللياقة الاجتماعية والقوة، ويكشف عن مكنونات ضعفه في داخله، فإنَّ الآخرين يتشجعون على إزاحة أقنعتهم. لكل منهم ما يبكي عليه خلف قناعه. الدراسات تسميها «العدوى العاطفية»، ولكنها لا تطال الجميع. كلما زاد تمركز الإنسان حول ذاته زادت مناعته ضد هذه العدوى. في العادة لم أكُن من هؤلاء. أنا أنتمي لجماعة «نفسي نفسي». يمكن أنْ أبكي لأسباب تخصني وبتأثري بالدعاء. لكن لن آخذ العدوى من أحد. هذه المرة الأمر مختلف. أخذت العدوى بسرعة رغم أنَّ خزان دموعي قد نفد، ربما هذه علامة

على أني خرجت من تصنيف «نفسي نفسي» بعد كل ما عرفته ومررت به من بعد حادثة أنس. اكتشفت أنَّ كل بكائي المنفرد يحتاج إلى شيء آخر. أحتاج إلى البكاء بصوت مرتفع ومع الجماعة كما لو كان البكاء وسادة أضع عليها رأسي المُتعب. ربما لو أتيحت لي فرصة الصراخ أيضًا لاغتنمتها. لكن البكاء هو المتوفر الآن. بكيت بصوت مرتفع وبحرقة.

لم يكُن الدعاء مختلفًا عن الأدعية التي تقال في كل المساجد، دمشق أو دريسدن أو برلين. لكن كل الكلمات أصبحت فجأة لها معانٍ أخرى. كل الدعاء فجأة أصبح عن أنس. أو عن نور. أو جوري. أو كل الذين أدلوا بشهاداتهم في فيلم أنس. بأسماء صريحة أو مستعارة، بوجوه مكشوفة أو مموهة. فجأة أصبحت كل كلمة في الدعاء تخص أولئك الذين في بيت خالة السوريين، على جانبي الجِدار، برات السور وجوات السور. فجأة أصبح «الدعاء» خلفية صوتية لكل من مروا في فيلم أنس. شاهر الذي تسكنه ذكريات كل ما حدث حتى في نومه.. منال التي علقوها عارية وأحرقوها. أيوب الذي علقوه من أنفه وأصابوه بعاهة مستديمة. «لولا» التي مات زوجها وهو يراهم يغتصبونها. الطفل الذي اغتصبوه وصوروه وصاروا يتسلون بإجباره على مشاهدة ڤيديو اغتصابه. المرأة التي قطعوا ثدييها. جوري التي خيروها بين اغتصاب جماعي أو فردي أو خازوق، وأجبروها على سماع آيات القرآن في أثناء ذلك.

جوري التي هي نور. انتبهت لأول مرة إلى معنى اسم نور. لقد أضاءت حياتي فعلًا. منذ أنْ رأيتها على باب المشرحة. ثُم زاد النور أكثر وأكثر، نورًا على نورٍ، كلما عرفتها أكثر.

كل الدعاء كان لمن استضافهم أنس في فيلمه. كما لو أنَّه قد كُتب خصيصًا لهم. بكيت حتى تصورت أنَّ وزني أصبح أقل من كثرة دموعي.

خرجت من المسجد بعد الفجر وقد أصبحت أصفى ذهنًا، كما لو أنَّ صداعًا حادًا غادر رأسي فجأة. أوقفت سيارة أجرة إلى المنزل. في الطريق كنت أرى سكارى ليلة السبت يتطوحون في الشوارع، أو يتقيأون ما احتسوه. قبل ساعات كنت أتمنى لو أنَّ الكحول حلالٌ لكي أهرب إليها. الآن أعرف أنَّ الهرب ليس حاجتي.

عندما وصلت إلى البيت، ألقيت نفسي على السرير متوقعًا أنْ أنام إلى صباح العيد على الأقل. للأسف استيقظت قرابة التاسعة صباحًا، وجدت رسالة من أمي فيها طريقة عمل «الشيش برك». تفاءلت أمي بنجاحي في الحراق أصبعو. لكني لن أجازف في الشيش برك. كنت أعرف أنَّها لن تلاحقني في تنفيذ الأمر لأنَّها ستدخل قريبًا في حملة تعزيل[1] «العيد»، وهو أمر لا يقل أهمية وقداسة بالنسبة إليها عن أي شعائر دينية متعلقة بالعيد، كما هو الأمر عند أغلب السيدات في الشام.

أرسلت رسالة إلى نور. كتبت فيها أول ما خطر ببالي. كنت لا أزال بين النوم واليقظة، وربما لو لم أكُن كذلك ما أرسلت شيئًا.

- أريد أنْ أحدثك بموضوع مُهم جدًّا لو سمحت. حددي الوقت الذي يناسبك، لكن الأمر ضروري جدًّا. مسألة حياة أو موت».

ثُم عدت إلى النوم.

* * * *

عندما استيقظت، خيِّل لي أنَّ رسالتي لنور كانت جزءًا من حلم لم يحدث.

---

(١) التعزيل: حملة تنظيف عميقة وشاملة تتضمن تنظيف السقوف والحيطان والستائر وقد تصل إلى خارج البيت، وتكون موسمية عادة وتختلف عن التنظيف اليومي المعتاد.

أمسكت بهاتفي لأتأكد من أن ذلك كان مجرد حلم. وجدت رسالة من نور ترد فيها على رسالتي.

«صباح الخير. خير؟ شو في؟ عمومًا أنا اليوم بعد الساعة ٤ في مركز اللاجئين. إلى السابعة تقريبًا». إذن لم أكُن أحلم.

كتبت رسالة لنور وطلبت أنْ أراها! لا أستطيع التراجع الآن.

-٣١-

ذهبت للقاء نور دون خطة مُسبقة لما سأقوله لها. أجلت التفكير في الأمر لحين ركوبي في المترو. لكن في المترو، وجدت نفسي أتأمل في كل ما حدث دون أنْ أحدد هدفًا لنفسي. كنت عاجزًا عن وضع أولويات أو أهداف أو أجندة أو أي شيء. ببساطة، لم أكُن أعرف ماذا سأقول لنور عندما أراها. قررت أنَّ هذا ربما يكون أفضل، كلما تدربت على شيء أقوله لها، ساءت الأمور. ربما من الأفضل أنْ أقول لها ما سأشعر أني أريد قوله عندما أراها. ربما تنجح العفوية فيما فشل فيه التخطيط.

دخلت المركز، كانت تملأ استمارات الطلبات لعائلة، أم وثلاثة أطفال. ترتدي المعطف الأزرق القصير نفسه الذي كانت ترتديه يوم رأيتها أول مرة. إرهاق الصوم واضح على وجهها، لكنها كانت تبتسم وهي تتحدث مع العائلة. لمحتني، فهزت رأسها بتحية من بعيد، لم تختفِ ابتسامتها ولا زادت اتساعًا. ثُم عادت إلى العائلة ومَلء الاستمارات. لم يكُن لدي ما أفعله اليوم، ولم يكُن هناك مجال للجلوس، يوم السبت يكون مزدحمًا عادة.

وقفت جانبًا أتصفح في هاتفي ريثما تجد نور متسعًا للحديث معي. كانت النسخة المترجمة بالإنجليزية من فيلم أنس قد وصلت إلى بعض وسائل الإعلام العالمية، وحققت بعض التعليقات وردود الفعل. موقع صحيفة الغارديان نشر رسالة إلى المحرر عن الفيلم «أوشفيتز الجزء الثاني: سوريا خلف القضبان»، صحفي بريطاني كتب على تويتر: تريدون رؤية شكل العالم لو انتصر هتلر؟ انظروا إلى سوريا.

أنهت نور لقاءها مع العائلة واستماراتها ثُم التقت بعدها بشخصين، استمعت لهما ودوَّنت ملاحظات، ثُم اتصلت بالهاتف في موضوع متصل بالحديث مع الشخصين، ثُم عادت لهما وأعطتهما على ما يبدو إرشادات في الأمر الذي يسألان عنه. التفتت لي عندما خرجا، كما لو أنَّها ستلتقي الآن بالمراجع التالي.

بدت مسترخية، ليست متوترة كما كانت في آخر لقاء. سألتها عن حالها وحال الصيام معها، فأجابت بشكل طبيعي جدًّا، ثُم سألتني: مسألة حياة أو موت؟ ما الأمر؟

حتى هذه اللحظة لم أكُن أعرف ماذا سأقول.

- أحتاج مساعدتك في التقدم لفتاة، لطلب يدها يعني.

نظرة استنكار غاضبة لا يمكن إخفاؤها، حاولت أنْ تغطيها بابتسامة، لكن المحاولة فشلت.

«إي ألف مبروك إنْ شاء الله.. مين سعيدة الحظ»؟ لهجتها كانت بين الغيظ والاستهزاء.

سحبت نفسًا عميقًا وقلت:

- بل أنا سعيد الحظ لو قبلت هي... جوري. أريد التقدم لخطبة جوري، وأريد أنْ تساعديني في ذلك.

تغير لون وجهها فورًا. لون الغضب أحمر عادةً. لكن هذا اللون كان مختلفًا. الغضب وأشياء أخرى معه. بقيت صامتة لثوانٍ فقط لكن ملامح وجهها كانت تنذر بعاصفة.

«جوري؟ هل تمزح؟ إنْ كنت تعتقد أنَّ هذا مزاح فأنت مخطئ جدًّا يا يزن.. الحق عليّ». قاطعتها..

- أرجوكِ نور، اسمعيني، أنا جاد جدًّا، أريد أنْ أتقدم لطلب يد جوري.

سكتت كما لو أنَّها تستجمع أفكارها.

- عن أي جوري تتحدث أصلًا؟ مَن جوري؟

- جوري التي في فيلم أنس يا نور.

- وما عَلاقتي أنا بها؟ لا دخل لي بها.

- لقد عرفت كل شيء يا نور.

- تقصد أنَّك تعتقد أنَّك عرفت. ليست أول مرة تتوقع ذلك وتكتشف أنَّك على خطأ.

- النسخة الكاملة من الفيلم على اللابتوب. المقطعان المحذوفان. اللدغة.

بدت كما لو أنَّها ستقع على الأرض. حاولت أنْ أسندها لكنها تحاشتني واندفعت إلى الخارج. تصورت أنَّها تريد أنْ تهرب. لكن عندما وصلت إلى الباب رأيتها تأخذ نفسًا عميقًا من الهواء. كل الأوكسجين في الداخل لم يعد يكفيها. تريد شيئًا طازجًا.

قالت بعد أنْ هدأت قليلًا:

- ماذا تريد مني الآن يا يزن؟

- أريد أنْ أتقدم لخطبة جوري.

هذه المرة نظرت لي بحدة وقالت:

- لماذا؟ لكي تستر عليها؟

- جوري ليست بحاجة للستر عليها لكي يكون هذا هدفي. جوري تستر على بلد بكاملها.

نظرت لي وعلى شفتيها كل علامات السخرية. قالت بمرارة: «حقا؟! بلد بكاملها... لعلك تشفق عليها إذن»؟

- أرجوك نور، لا تحاكميني بناء على مفاهيم سائدة عليَّ أنْ أتحمل وزرها لمجرد أنَّها سائدة. أعرف كيف يتعامل الناس عمومًا مع هذه التجارب، لكني لست منهم.

- نعم، لأنَّك جئت من كوكب آخر.

- لا، بل لأني أحبك.

قلت أحبك ولم أقُل شيئًا بعدها لثوانٍ. لم أقل الكلمة علنًا من قبل لأي فتاة. أحببت بصمت ولم أعترف قط. لمحت، لفت ودرت. ربما كتبت في رسالة نصية. لكن لم أقُلها هكذا. كان وقع الكلمة على لساني، على أذني، على كلي غريبًا. كأني أصبحت شخصًا آخر.

«أحب كل ما فيك.. أحب فيك قوتك وثباتك وعنادك ورباطة جأشك وتخطيطك وحتى عصبيتك، وعندما عرفت ما عرفت، ما زادني الأمر إلا حبًّا بك، واحترامًا لك، أنت الفتاة التي أحب وأريد أنْ أرتبط بها بقية عمري، أنتِ الوحيدة التي أعتقد أنَّها تصلح لكي تكون أمًّا لأطفالي في الغربة.. وفي غير الغربة أيضًا». لا أعرف من أين جاء كل هذا الكلام. تفاجأت شخصيًّا به.

أغمضت عينيها. كما لو أنَّ سيرة الأطفال قد حركت فيها آلامًا ومواجع سرية.

- أرجوك يزن، توقف.

- أرجوك أنتِ يا نور، توقفي عن دور المرأة الخارقة ولو للحظات، لا أصدق أنَّك لا تريدين الارتباط، أو الأمومة، أنا أحبك، ولا أعتقد أني شخص سيئ لهذه الدرجة، امنحيني فرصة على الأقل. كنت على حق في رفضي أول مرة. لم أكُن أعرفك حقًا. الآن عرفتك بشكل أفضل، أكيد ليس كليًّا، ولكني أعرفك أكثر.. وأحبك أكثر أيضًا.. ليس تعاطفًا ولا شفقة، ولكن لأنَّك صادقة وقوية.. وأحبك.

سكتت. للحظات أحسست أنَّها تفكر بما أقول.

- مرة أخرى. لا أطلب منك الرد الآن. خذي وقتك. لكن تأكدي، أنا أحبك، وأرغب فعلاً في الارتباط بك.. مهما كان لديك من شروط.

لا أعرف لماذا قلت الجملة الأخيرة.

- عديني أنَّك ستفكرين. وصلِّ استخارة أيضًا.

نظرت لي كما لو كانت تشاهدني أول مرة. هزت رأسها كما لو أنَّها تقول: أعدك.

رسالة صوتية من نور، بعد عشرة أيام:

«السلام عليكم يزن، وكل عام أنت بخير، تقبل الله الطاعات، آسفة على التأخر في الرد، أقصد على المعايدة وأيضًا على طلبك. لكن أمورًا كهذه تحتاج إلى وقت كما تعرف، ربما أكثر من عشرة أيام بكثير، لكني قدرت أنَّ التأخير أيضًا قد يوحي بأمور ليست صحيحة».

«أولًا، كان عليَّ أنْ أعرف مع مَن علقت. لست بهيِّن أبدًا يا يزن. تدقق في الأمور ولا يكاد يفلت منك شيء متأكدة تمامًا أنَّ آخرين ما كانوا سينتبهون للأمر. ولا أعرف إنْ كان ذلك نقطة لك أم عليك».

«هناك أمور لم تعرفها بعد، وربما عليَّ أنْ أقولها لأنَّك غالبًا لن تسأل عنها. شككت بمعاذ عندما اعتُقل كنان، لم أخبر أحدًا أول الأمر.. كان كنان قد جمع «أجهزة تنفس صناعية» ومواد طبية للمساعدة في مشافي ميدانية، لم يكُن أحد يعرف من هو، اعتُقل كل مَن كان معه في مشفى ميداني في حي جوبر، لكن هو لم يُعتقل، لأنَّهم لم يكونوا يعرفونه.. سألني معاذ عدة أسئلة عن كنان ومشاركته في جوبر، ورددت بحسن نية، لم أكُن أشك بمعاذ قط. لكن كنان اعتُقل في اليوم التالي تحديدًا. خلال أقل من ٢٤ ساعة. بدأ الشك يتسرب في داخلي، مع ملاحظات صغيرة أخرى عن ارتباكه وأسئلته، اعتُقل شاب آخر معنا، وكان معاذ يعلم بكل تحركاته، وتحركاتي وتحركات أنس... بدأ الشك يكبر ويتراكم وأخبرت أنس أنَّ هناك شيئًا (مو زابط) مع معاذ.. لم يكُن أنس قد انتبه لشيء... قلت

لأنس إني ربما أنصب فخًا لمعاذ لأتأكد من الأمر أو أنفيه نهائيًّا.. لم أكُن أعرف أنَّ هذا الفخ سيقود إلى ما حدث».

«عندما حدث تفجير مبنى المخابرات، بيت جدي في خورشيد المهاجرين يطل عليه، قلت لمعاذ إني كنت قد أبلغت بالأمر وبترك كاميرا على النافذة لتصوير الأمر قبل ساعات من حدوث التفجير، لكني رفضت. في الحقيقة لم يكُن لدي أي معرفة بالتفجير ولم يطلب مني أي أحد أي شيء، تفاجأت بالأمر كما تفاجأ الجميع، وجدت معاذ يسأل بطريقة أثارت شكي، وارتكبت حماقة أدت إلى اعتقالي.. وإلى مقتل معاذ.. نصبت له فخًا مزيفًا لكي أتأكد مِن أنَّه جاسوس... ولكننا سقطنا جميعًا في الفخ».

«اعتُقلت بعد يومين. وكان أنس يعرف بأمر الفخ، وهذا جعله يشك في معاذ أكثر، راقبوه، ثُم... تعرف الآن ما حدث».

«أظن أنَّ معاذ لم يعتقد أنَّهم يمكن أنْ يتعرضوا لابنة هدباء حماصني المعروفة بعَلاقاتها مع النظام بأذى.. الصراحة الكل لم يعتقد ذلك. ولا أنا. ولا أمي. أمي بقيت طيلة فترة اعتقالي تستلم التطمينات بأنَّ أموري جيدة جدًّا وأنَّ الأمر مجرد تحقيق وأسئلة وأني أسست حلقة لتدريس القرآن في المعتقل! وكانت مقتنعة بأنَّ أحدًا لن يجرؤ على (مجرد لمسي).. لا تعذيبي، ولا كل الذي حصل».

«أعتقد أنا إنَّ الذي حصل كان أيضًا درسًا لأمي، ولكل من هو محسوب على النظام، كل خدماتكم السابقة لا تعني شيئًا، يمكننا الاستغناء عنكم، ويمكن التعويض عنكم، لكن لن نتسامح مع أي أحد يؤيد الثورة من طرفكم».

«أمي أصيبت بجلطة قلبية عندما علمت ما حدث لي. دخلت المشفى لأسبوع. تقول إنَّها لم تكُن تصدق تطميناتهم، ولكن لم تتوقع قط أنْ يكونوا مجرمين وسفلة إلى هذه الدرجة. علمًا بأنَّها لم تعرف كل التفاصيل، خفت عليها من التفاصيل. تظاهرت أمي أمام الناس بأنَّ كل شيء على ما يرام. نور عملت عملية الزائدة الدودية وأجلت السنة الدراسية. استمرت بدروسها واجتماعاتها وحضورها كل المناسبات الدينية مع وزارة الأوقاف والمسؤولين وكل شيء، لكنها كانت تدعي عليهم في كل صلاة، كل صلاة، كلهم».

«بصراحة كنت أتوقع أنَّ موقف أمي سيكون أسوأ بكثير مما حدث. في أحيان كثيرة مشابهة كانت الأمهات -وخصوصًا عندما يكن في مكانة أمي وموقعها- يلُمن الفتاة على ما حدث، وأنَّ كل شيء كان بسبب تأييدهن للثورة، وجه أمي كان يقول ذلك، وأنا واثقة أنَّها كانت مقتنعة بذلك، لكنها لم تزد جروحي. سكتت عن الأمر وتجنبت الحديث عن مسؤوليتي عنه».

«كنت محطمة تمامًا في تلك الفترة، بقايا إنسانة، فقدت إيماني بالله وبنفسي وبكل شيء، عندما كنت في المُعتقل كنت متشبثة بإيماني بالله، لكن عندما خرجت كنت قد اقتنعت أنَّه تخلى عني وأنَّه لا يريدني، وأنَّ أي محاولة مني للعودة له ستصد من قِبَله.. كنت مليئة بالشعور بالذنب تجاه كل شيء.. تجاه معاذ وتجاه اغتصابي وتجاه أمي والجميع.. كنت أعتبر نفسي زانية قذرة تستحق كل ما حدث لها وأكثر... فكرت بالانتحار مرارًا.. لكني كنت أجبن وأضعف من تنفيذ ذلك».

«أمي عالجتني بقراءة القرآن والذكر والرقية الشرعية، للأسف زادني هذا نفورًا وبُعدًا».

«طبعا أمي لم تفكر بالعلاج النفسي، هذه فضيحة، وهي تريد أنْ تحاصر الأمر قدر الإمكان، بل فوق الإمكان.. بالنسبة إليها، الطبيبة الوحيدة التي ستراني هي طبيبة نسائية من طالباتها، تعرفها تمامًا وتثق بها، هدف الطبيبة كان أولاً التأكد من عدم وجود ما يستوجب إنزاله.. وثانيًا، إعادة كل شيء كما كان، لكي أتزوج كما لو أنَّ شيئًا لم يكُن... بتصورها طبعًا».

«كنت أتواصل مع معالجة نفسية، أو بالأحرى أخصائية دعم نفسي عبر الإنترنت، كانت سورية مقيمة في تركيا، وساعدتني كثيرًا، قررت أنْ أبدأ ببناء حياتي من جديد. من أنقاض الإنسان الذي أصبحته».

«رتبت أمي زواجي بسرعة من ابن إحدى مساعداتها المطيعات. مهندس معلوماتية في الإمارات. شخص خلوق ومحترم، أمه درويشة جدًّا. لم تسأل. أو لم تجرؤ على السؤال. خلال أشهر كنت عنده. أجريت العملية قبل سفري، إرضاء لأمي، لكن ما كنت سأقبل أنْ أخدعه. ما كنت أحتمل المزيد من الشعور بالذنب. بمجرد خروجي من دمشق لم يعد أي شيء يؤثر بي. ليلة زفافي أخبرته بكل شيء. بكى هو وقال إنَّه كان واثقًا أن هناك شيئًا ما. قال: «أهلك ما كانوا سيعطونك لي لولا هذا الشيء. أنا أقل بكثير من أن يقبلوا بي».

«انتهى الأمر بي وأنا أواسيه وأطبطب عليه. المتوقع أنْ أبكي أنا عذريتي المنتهكة. لكن الذي بكى ليلتها هو الرجل. بكى «تقييمه لذاته» وظروفه التي جعلته يعتقد أنَّه «أقل» من أنْ أقبل به، لولا اغتصابي».

«في النهاية كان محترمًا جدًّا و(أكابري) وافق على طلاقي دون أي مشكلة، طلبت منه أنْ لا يخبر أمه، لكيلا تخبر أمي، واتفقت معه على

تسديد كل شيء، رتبت تأشيرة لتركيا.. وطلقت.. لم تعرف أمي إلا بعد وصولي إلى تركيا. غضبت عليَّ وقاطعتني لفترة طويلة. لكنها عادت وقبلت التواصل معي».

«في تركيا انتظمت في علاج نفسي كامل، إعادة تأهيل، بالمعالجة النفسية وبالعقاقير، استعدت جزءًا كبيرًا من إيماني، ليس كله، لكن جزءًا كبيرًا منه.. كذلك تمكنت من التخلص من شعوري بالذنب، كثير مما تعمدوا غرسه في داخلي تمكنت من اقتلاعه.. لم يعد لدي شعور بالذنب، على الأقل ليس على النحو المرضي».

«أهم محفز بالنسبة لي كان أنْ أثبت لنفسي أنَّهم رغم كل جهودهم معي، رغم الخطط المعقدة المعدة بإتقان لتحطيمي وتحطيم سواي، فشلوا. كل عقدة كنت أتخلص منها كانت مثل نصر لي عليهم».

«كان عليَّ أنْ أتخلص من «ستيريو تايب المغتصبة». المكسورة. مهيضة الجناح. التي تثير الشفقة وتريد الستر تحت ظل أي رجل. كان عليَّ أنْ أتخلص من هذه الفكرة في ذهني أولاً. كُسرت في المعتقل لكني لست مكسورة. كنت ضحية لكني لن أبقى في دور الضحية. جزء كبير من كل تقديمي للدراسة في ألمانيا، وعملي مع أنس في الفيلم، وعملي في مركز اللاجئين.. كله كان لكي أثبت لنفسي أولاً، أني لم أعد ضحية.. أني تخطيت المرحلة.. لم أعد نور قبل المُعتقل بالتأكيد.. ولا أزال أحمل التجربة معي، لكنها لم تعد فوق ظهري كما كانت من قبل، على الأقل ليس كل الوقت.. أصبحت أحيانًا عكازًا أسير عليه.. أصبحت أقوى رغم كل شيء، أقوى، مع جروح عصية على الالتئام بالطبع، لكن كل ما يمكن أنْ يمر بي الآن من مصائب، أقل مما تعرضت له فعلاً».

«لا تعتقد أني امرأة خارقة وحديدية دائمًا. لي لحظات ضعفي. لا. ليست لحظات ضعف. بل عندي أيام وأسابيع من الضعف والحيرة، لكني أجيد إخفاء ذلك. لا ترى مني غير وجه متماسك قوي. في الداخل الأمر مختلف. جزء من هذا ورثته من أمي. هدباء حماصني لا تظهر ضعفها أبدًا. وهذا جزء مُهم من قوتها».

«لا أزال أتواصل مع معالجتي النفسية. أصبحت صديقتي وكاتمة أسراري. ولا أزال أحتاج إلى أدوية مهدئة. حبتان كل يوم. واحدة لأعراض الاكتئاب. وواحدة لمساعدتي على النوم. قال لي طبيبي إني أستطيع أنْ أجرب تقليلها. لكني لا أشعر بالرغبة في ذلك حاليًا».

«لو حدث فعلًا أنْ تمكنت من الزواج وتكوين أسرة، فهذا يعني أني قد حققت نصرًا آخر عليهم».

«ما دمت وصلت إلى هذا، ففي حالة موافقتي على طلبك، فإنَّ لدي طلبيْن... أولًا أنْ تكون العصمة بيدي، وثانيًا أنَّ موضوع الأطفال مؤجل إلى أنْ أتأكد من استعدادي النفسي لذلك».

«وفي حالة موافقتي على طلبك، فسيكون هذا سابقة بين زيجات الثائرات. الثائرات للثائرين عادة. من النادر أن تقبل ثائرة ومعتقلة بشخص رمادي. أو (رمادي سابقًا). لكن سبق لي أنْ تمردت على أشياء كثيرة. ربما يمكن إضافة تمرد جديد...».

«كنت على حق في أنْ تطلب الزواج من جوري، جوري أصبحت جزءًا أساسيًّا من نور، نور هي الوجه الظاهر الذي يتحدث مع الناس، لكن جوري غالبًا هي التي تأخذ القرار، نور هي قمة جبل الجليد، لكن جوري هي الجبل الغاطس في المحيط».

-٣٢-

قالت لي أمي بحسرة:

- كنت أريد أنْ أفتش لك عن عروس بسراج وفتيلة.

هذا تطور كبير. في البداية كانت معترضة على المقوصة بنت هدباء لأنَّها مقوصة وبنت هدباء. الآن اعتراضها لأنَّها لم تجد لي العروس بنفسها، كانت تريد أنْ تبحث بنفسها في الشام وبين عوائلها شبرًا شبرًا، وتشاور وتخالف، وتدقق في أصل وفصل عائلتها من جهتي الأم والأب. وسيرة العمات والخالات. والأصهار والكنات. عدا عن الفحص المجهري المباشر للعروس وتفصيلاتها الجسدية، والتأكد من عدم وجود عمليات تجميل وأنَّ ابتسامتها حقيقية وليست «ابتسامة هوليود»، وتنفيذ الغارة التفتيشية المفاجئة على بيت أهل العروس للتأكد من ارتفاع معايير النظافة والترتيب في الأحوال العادية دون توقع ضيوف. انتهاز أي فرصة للتأكد من عدم وجود غبار فوق حافة الباب العلوية. التأكد من رائحة الأقداح التي يقدم فيها الماء. وعدم وجود بصمات عليها. إلى آخر كتالوغ البحث عن عروس بالمواصفات الشامية.

عمليًّا، حرمت أمي من مشروع كان سيشغلها سنة على الأقل. وربما أكثر بكثير. مشروع البحث عن عروس مناسبة لمأمون (أو لمأمون بمعاييرها هي) استغرق قرابة ثلاث سنواتٍ. شغلها الأمر تمامًا وغير من حالتها النفسية السيئة بعد زواج أبي. البحث عن عروس كان يعني توسيع دائرة معارف والدتي والالتقاء بسيدات جديدات والتعرف إليهن وتبادل

الزيارات وحضور الصبحيات معهن. وكل ذلك ملأ وقتها (ووقت خالتي سلوى أيضًا آنذاك).

جزء من إطالة عمر المشروع كان التدقيق المفرط الذي يجد عيوبًا غير مرئية في العروس أو أهلها أو أقاربها أو حتى أثاث بيتهم، وهذا كله كان جزءًا لا يتجزأ من الوجاهية والبريستيج الشاميين. العوائل المحترمة لا تزوج ابنها «كيف ما كان»، بل تتأنى في البحث والاختيار. كلما زاد التأني والتدقيق، زاد بريستيج العائلة.

أسباب عدم وجود عروس مناسبة لمأمون كانت غريبة. أمي تعتبرها وجيهة ومنطقية وتمامًا. لكنها كانت مثار تندر أبي ومأمون، صاحب الشأن. هناك عروس صرفت أمي النظر عنها لأنَّ إصبعها الأوسط بدا لها أعوج. وأخرى لأنَّ عمتها كانت لديها حول في عينها. وأخرى لوجود أضواء نيون في صالة الضيوف، وهو ما يدل على بخل أهلها، وأخرى لأنَّ أطباق الضيافة كانت أكبر مما يجب. بلاطة مكسورة في مدخل البناية جعلها ترفض الفتاة قبل أن تصعد إلى بيت أهلها. قالت بحسم لخالتي وهي تشير للبلاطة: أكيد لا، لكن بما أننا وصلنا فنطلع. عيب، الجماعة ينتظروننا. لكن أكيد لا.

أردت أنْ أواسي أمي بأنْ أذكرها بأنَّ السراج والفتيلة مع زوجة مأمون لم يؤدِّ إلى عَلاقات جيدة معها فيما بعد.

هي التي وجدتها وهي التي أعلنت أنَّها نجحت في كل اختبارات التدقيق والتنقيب والتمحيص وقررت خطبتها لمأمون، ثُم، وخلال التحضير للزواج هي التي أعلنت الحرب عليها. لم أقل ذلك لأمي تجنبًا لاستفزازها، لأنَّ مرحلة «التحسر على السراج والفتيلة» كانت أصلًا مرحلة جيدة ولا تعكس رفضًا كبيرًا منها للأمر.

توسطت أولًا لدى خالتي سلوى لكي تفاتحها بالأمر. كان تدخلها مفتاحًا للموضوع كله، لأنَّه سيثبت لأمي أنَّها ليست منزعجة من أنَّ أنس كان في فترة ما قد فكر بالتقدم لنور. خالتي سلوى قالت لأمي إنَّ بنت هدباء تبقى أحسن من فتاة ألمانية قد لا تكون أمها متأكدة من هُوية أبيها. كان هذا هو محضر دفاعها الأول والأساسي، أما قراري واختياري فقد كان أمرًا ثانويًّا تمامًا. ويبدو أنَّ أمي اقتنعت بالتقدم لخطبة نور من باب أهون الضررين، ودرء المفسدة مُقدم على جلب المصلحة. ولعلها كانت تتمنى سرًا أن ترفض هدباء وينتهي الكابوس. كانت مستمرة في انتقاد هدباء وابنتها رغم موافقتها على الاتصال بها لتحديد موعد للخطبة. كمية الأمثال المتذمرة التي سمعتها من أمي في هذه الفترة كانت تنذر أنَّ أمي ستذهب ولكنها ستعمل كل ما بوسعها لإفشال الأمر.

المفاجأة كانت أنَّ أمي قلبت موقفها تمامًا عندما ذهبت مع خالتي سلوى وزوجة خالي معتز (التي كانت في زيارة للشام) لخطبة نور. تمكنت هدباء حماصني على ما يبدو من إظهار أفضل وألطف وجوهها «الكثيرة»، وأسقطت أمي ومَن معها في فخ لسانها المعسول. كل ما يُعرف عن هدباء مِن تجبُّر وتكبُّر وتنمُّر تبخَّر في لحظاتٍ، وعدا عن لُطفها وتواضعها كان كل شيء في البيت كما تتمنى أمي وأكثر. لا توجد أضواء نيون. بل ثريات بهية بحجم ثريات المساجد. كريستال بوهيمي. النظافة بمعايير أمي نفسها. الضيافة وطريقة تقديمها والأطباق والأقداح كلها حسب الأصول.

همست أمي لخالتي سلوى فور خروجهن: ظلمنا المخلوقة، لو فتشنا بسراج وفتيلة ما كُنا وجدنا نسب مثل نسبهم.

أما أنا فقد قالت لي جملة جعلتني فاغرًا فمي من الصدمة.

قالت: منذ أول مرة سألتني عن نور وأنا قلبي انفتح لها.. سبحان الله.

سبحان الله بالفعل!

* * * *

تركنا الأمور تسير في الشام بخط سيرها المعتاد.

أما في برلين، فقد تركنا لأنفسنا الوقت لكي نتعرف أكثر إلى بعضنا. اقترحت أنا أنْ لا تغير نور من طبيبها النفسي في الوقت الحالي، ولا من تواصلها مع معالجتها النفسية عبر الإنترنت.

نعرف أنا وهي تمامًا أنَّ الأمر لن يكون سهلًا على الإطلاق، لا توقعات وردية عن الفترة القادمة أو عن قفص ذهبي ندخله عبر الزواج، لكني أحبها، ومؤمن بها، ومستعد أنْ أضحي من أجل أنْ تنال ما تستحق من حياة. وواثق أنَّها قوية وقادرة على أنْ تتخطى الكثير من المراحل كما تخطت قبلها.

تساعدني نور في بحثي عن (أساليب التعذيب النفسية في المعتقلات السورية بين ٢٠١١ - ٢٠١٨)، ودكتور «هاينز» سعيد جدًّا بتقدمه وبكمية ما حصلنا من بيانات وأرقام. يقول إنَّه سيعمل على نشره في واحدة من أهم المجلات العلمية المتخصصة بالطب النفسي في العالم وأكثرها تأثيرًا وانتشارًا، «المجلة الأمريكية للطب النفسي».

* * * *

تسألني أمي: متى تتزوجان؟

لست متأكدًا من الجواب. لم نحدد بعد. لكني أتحجج الآن بدراسة نور. لديها بعض المواد قبل التخرج. أقول لها: في وقت ما من السنة القادمة، إنْ شاء الله.

ادعيلنا يا أمي.

المشهد الختامي من الفيلم

صوت أصالة بأغنية «صندوق صغير»[1] يتداخل مع صور.

صندوق صغير، بردان

مخبّى بدروة صُوّان

وفي ورقة غفيت بَين الفلّ

مقدّر إلها النسيان

مكتوب فيها أيام

وأخبار من الأحلام

عن قصة عاشق غير الكلّ

نطقت هيّ الكَلام

بالتدريج تظهر صور لجثث مُعتقلين قضوا تحت التعذيب، وأمام كل صورة تظهر صورة كل شخص قبل

اعتقاله.

صورة لجثة مُعتقل.. تظهر أمامها صورة له بثوب تخرجه، وأخرى في ملابس رسمية، ربما خطوبة أو زواج.

صورة لجثة مُعتقل، ثُم صورة تظهره مع أطفاله، ثلاثة صبيان وبنت.

(١) من كلمات فادي أحمد الرفاعي، ألبوم مهتمة بالتفاصيل.

صورة لجثة مُعتقلة، ثُم صورة لها في طفولتها، ثُم أُخرى لها في الجامعة...

يا سطوري ... ضلي دوري ... كاتبنا صار بعيد

وفي واحدة ... سمّاها جوري ... عمتنطر المواعيد

اتذكرْت، اسمي من سنين ... وعيونه المجروحين

يقللي «جوري» ما تنسيني

ملقانا بفيّ التين

صورة لجثة مُعتقل، ثُم صورة له في طفولته، وأخرى مع أصدقاء له في سيران، ثُم في حفل عائلي مع أسرته...

صورة لجثة مُعتقل، ثُم صورة له في طفولته، وأخرى وهو في المسبح مع أصدقائه، وأخرى في رحلة جبلية.

صورة لجثة مُعتقل، ثُم صورة له في زواجه، وأخرى له مع زوجته وطفليه.. الطفلان مبتسمان بشدة، وكذلك هو وزوجته.

صورة لجثة مُعتقلة، ثُم صورة لها في ثياب عرسها، وأخرى وهي تحمل طفلتها.

تتداخل صور جثث المُعتقلين مع صورهم قبل الاعتقال، في مناسبات عائلية، صور تخرج، أعياد ميلاد، صور مدرسية، صور عادية مع أصدقاء، صور رسمية.. صور في رحلات مدرسية وعائلية...

صور تشبه صور الجميع في مراحل ومحطات حياتهم المختلفة.

صور تشبهنا جميعًا. كما لو أنَّها أُخذت من ألبومات صورنا القديمة. المناسبات نفسها. الابتسامات نفسها. طراز الملابس وتسريحات الشعر عبر السنوات. التغيرات نفسها التي تطرأ على الجميع.

لكنهم تغيروا جدًا في صورهم الأخيرة.

تغيروا جدًا.

متلُن، حمّل السلاح ... وعكتافه كَوم جراح

قللي حاجة لا تبكّيني ... ودَّعْني، ضمني، وراح

يا سطوري ... ضلي دوري

كاتبنا صار بعيد

وفي واحدة ... سمّاها جوري

عمتنطر المواعيد

تظهر أسماء الشهداء تحت التعذيب، سنوات ولادتهم، تاريخ اعتقالهم، وتاريخ معرفة موتهم ومكانه.

ثم تظهر عبارة أخيرة...

هذا الفيلم مُهدى...

إلى الذين لا نعرف أسماءهم...

انتهت المسودة ٢٨/ ٣ / ٢٠٢٠

انتهى العمل ٤/ ٧/ ٢٠٢٠



شكر واعتذار

أدين أولاً بشكر كبير لكل من أمدّ لي يد العون في هذا العمل. سواء بالأشخاص الذين فتحوا لي ملفات ذاكرتهم وقدّموا شهاداتهم، أو الأشخاص الذين ساعدوني في الوصول إليهم، أو الإخوة الذين أغنوا العمل بملاحظاتهم وتصحيحاتهم. دونهم ما كان يمكن لهذا العمل أنْ يخرج إلى النور.

للأسف لا يمكن ذِكر أسماء الجميع لأسباب واضحة، لكن أسجل هنا شُكري تعبيرًا عن امتناني الكبير لهم.

وأدين أيضًا باعتذار لكل الذين قبلوا الإجابة عن أسئلتي وهم لا يدركون أنها قد تتسبب بفتح جروحٍ لم تندمل بعد، وربما كانوا يفضلون لو تُركَت دون فتح. أدرك تمامًا صعوبة الأمر وثقله النفسي بالنسبة إلى البعض منهم، لكني أؤمن أيضًا أنَّ الأشدَّ صعوبة على المدى البعيد هو أنْ نترك تفاصيل ما حدث تتسرب دون أنْ نسجلها ونوثقها.

الأشد إيلامًا على المدى البعيد هو أنْ نسكت، ألَّا نقول.

كل الشخصيات التي وردت في الشهادات حقيقية، بعضها بأسماء مستعارة وبعضها بأسماء حقيقية. فقط (هدى، وهيثم سقباني) تم دمج شهادتهما مع تفاصيل من شهادات أخرى، لكنها كلها من شخصيات حقيقية.

× يزن الغانم وأنس خزنجي شخصيتان متخيلتان.

× شخصيات جوري، كنان، ومعاذ، مستوحاة من شخصيات حقيقية مرت بظروف مشابهة.

مصادر الشهادات

× هذه الشهادات مأخوذة من حوارات مباشرة مع أصحابها معززة بتسجيلات صوتية.

(حسب الترتيب الأبجدي: إبراهيم العيسى، أيوب الشامي، جمال، رنيم معتوق، شاهر يونس، علاء خويلد، فارس شاكر، فاروق الخيَّال، قتيبة إدلبي، منير الفقير، هيثم سقباني).

× بعض شهادات المُعتقلين مأخوذة من برنامج (يا حرية) المعروض على قناة تلفزيون سوريا إعداد سعاد قطناني وإخراج شادي خادم الجامع.

(جلال مندو، رشا شربجي، عمر الشغري، لولا الآغا).

× هدى من خلال لقاء صحفي (موقع شهاب للأنباء - وعبر مجموعة العمل من أجل فلسطينيي سوريا).

× مهند غباش من خلال لقاءات صحفية كثيرة، من ضمنها مع النيويورك تايمز.

× شهادة جوري كانت من خلال إشراف معالجتها النفسية.

عن السجون والمُعتقلات في سوريا:

عملية قيصر في قلب آلة الموت السورية- تأليف غارانس لو كيزن - ترجمة أنس عيسى - مركز حرمون للدراسات المعاصرة. الطبعة الأولى ٢٠١٨

Inside Tadmur: The worst prison in the World? (٢٠١٥, June ٢٠). Retrieved from
https://www.bbc.com/news/magazine٣٣١٩٧٦١٢-
Inside Syria's secret torture prisons: How Bashar al-Assad crushed dissent. (٢٠١٩, May ١١). Retrieved from
https://www.nytimes.com/١١/٠٥/٢٠١٩/world/middleeast/syria-torture-prisons.html
Wainwright, O. (٢٠١٩, September ٣٠). 'The worst place on earth': Inside Assad's brutal Saydnaya prison. Retrieved from
https://www.theguardian.com/artanddesign/٢٠١٦/aug/١٨/saydnaya-prison-syria-assad-amnesty-reconstruction
End the horror in Syria's torture prisons. (n.d.). Retrieved from
https://www.amnesty.org/en/latest/campaigns/٠٨/٢٠١٦/syria-torture-prisons

The Kingdom of Silence: Reflections from Syria's notorious Tadmor prison
https://www.theworldweekly.com/reader/view/١٥٦٧١/the-

kingdom-of-silence-reflections-from-syrias-notorious-tadmor-prison

HUMAN SLAUGHTERHOUSE MASS HANGINGS AND EXTERMINATION AT SAYDNAYA PRISON, SYRIA - Amnesty International
https://www.amnesty.org.uk/files/human_slaughterhouse_report_٠.pdf
Documentation of ٧٢ Torture Methods the Syrian Regime Continues to Practice in Its Detention Centers and Military Hospitals SNHR الشبكة السورية لحقوق الإنسان October ٢٠١٩ ٢١
http://sn٤hr.org/wp-content/pdf/english/Documentation_of_٧٢_Torture_Methods_the_Syrian_Regime_Continues_to_Practice_in_Its_Detention_Centers_and_Military_Hospitals_en.pdf

SYRIA Torture by the security forces Amnesty International.
https://www.amnesty.org/download/Documents/٢٠٠٠٠٠/mde٢٤٠٠٩١٩٨٧en.pdf
OHCHR | Open wounds: Torture and ill-treatment in Syria. (n.d.). Retrieved from
https://www.ohchr.org/Documents/Countries/SY/PaperOnTorture.pdf

A documentary report on torture in Syria, "The Syrian gaulle of torture." (٢٠١٧, October ٢٤). Retrieved from
https://fraternity-sy.org/en/wp-content/uploads/٠٦/٢٠١٦/The-

Syrian-Gaulle-of-torture.pdf

Detention of women in Syria: A weapon of war and terror. (٢٠١٥, May ١). Retrieved from https://www.alnap.org/system/files/content/resource/files/main/-٣٢١emhrn-womenindetention-en-final.pdf

If the dead could speak. Human Rights watch. (٢٠١٨, July ٣١). Retrieved from https://www.hrw.org/sites/default/files/report_pdf/syria١٢١٥web_٠.pdf

Voices from the Dark:Sexual violence and torture against women in Syrian prisons: Report. (٢٠١٨, October ٢٣). Retrieved from https://ldhrights.org/en/wp-content/uploads/٠٧/٢٠١٧/Voices-from-the-Dark.pdf

'Between prison and the grave': Enforced disappearances in Syria Amnesty International https://www.amnesty.be/IMG/pdf/embargoed__between_prison_and_the_grave_final.pdf

Hitlerism and Nazism, an industry of dehumanization and humiliation. (٢٠١٦, June ٢٥). Retrieved from https https://www.jpost.com/Blogs/Think-With-Me/Hitlerism-and-Nazism-an-Industry-of-Dehumanization-and-Humiliation٤٥٧٤٣٢-

٧٥ years later, why did Germans follow the Nazis into Holocaust?

Craig Chamberlain Aug ٢٠١٤ ,٢٦

https://news.illinois.edu/view/١٩٨٤٣٥/٦٣٦٧

Nazis 'offered to leave Western Europe in exchange for free hand to attack USSR'. (٢٠١٣, September ٢٦). https://www.telegraph.co.uk/history/١٠٣٣٦١٢٦/Nazis-offered-to-leave-western-Europe-in-exchange-for-free-hand-to-attack-USSR.html

Edwards, A. (٢٠١٣, September ٢٦). Nazis offered peace with the Allies in ١٩٤١... but only if they were allowed to invade Russia. Retrieved from https://www.dailymail.co.uk/news/article٢٤٣٣٧٣٣-/How-Nazis-offered-peace-treaty-World-War-II-meant-selling-Russians.html

Stumbling Upon Mini Memorials To Holocaust Victims May

٢٠١٢ ٣١
https://www.npr.org/١٥٣٩٤٣٤٩١/٣١/٠٥/٢٠١٢/stumbling-upon-miniature-memorials-to-nazi-victims
'Less than human': The psychology of cruelty. (٢٠١١, March ٢٩). Retrieved from
https://www.npr.org/١٣٤٩٥٦١١٨٠/٢٩/٠٣/٢٠١١/criminals-see-their-victims-as-less-than-human
Dehumanized perception: A psychological means to facilitate atrocities, torture, and genocide? (١, January). Retrieved from
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC٣٩١٥٤١٧/
On women's bodies: Experiences of dehumanization during the Holocaust. Nicole Ephgrave (n.d.). Retrieved from
https://muse.jhu.edu/article/٦٢٠٩٠٢/pdf
Physicians and torture:lessons from the Nazidoctors -Michael Grodin and George Annas International committee of the Red Cross. (٢٠١٨, July ١٦). Retrieved from https://www.icrc.org/en/doc/assets/files/other/irrc-٨٦٧-grodin.pdf
HUMILIATION,DEGRADATION,DEHUMANIZATION
Human Dignity Violated Edited by PAULUS KAUFMANN
https://www.corteidh.or.cr/tablas/r٣٠٨٨٥.pdf
Humiliation: The lasting effect of torture. (٢٠٠٧, December ١). Retrieved from
https://academic.oup.com/milmed/article/١٧٢/suppl_٤٥٧٨١٩١/٢٩/٢
The danger of dehumanizing others. (٢٠١٥, December ٨). Retrieved from
https://insight.kellogg.northwestern.edu/article/the-danger-of-

dehumanizing-others
OVERLOOKING OTHERS: DEHUMANIZATION BY COMISSION AND OMISSION ADAM WAYTZ May ٢٠١٤
http://faculty.haas.berkeley.edu/jschroeder/Publications/Waytz&Schroeder٢٠١٤.pdf
Dehumanizing always starts with language. (٢٠٢٠, January ١٠). Retrieved from
https://brenebrown.com/blog/١٧/٠٥/٢٠١٨/dehumanizing-always-starts-with-language/
Degradation and dehumanization of Jews during the Holocaust. (٢٠١٧, July ٧). Retrieved from
https://jcpconnect.org/degradation-and-dehumanization-of-jews-during-the-holocaust/
The Nazi doctors: Medical killing and the psychology of genocide. (n.d.). Retrieved from
https://phdn.org/archives/holocaust-history.org/lifton/LiftonT٤١٨.shtml

Frost, N. (٢٠٢٠, January ٢١). Horrors of Auschwitz: The numbers behind WWII's deadliest concentration camp. Retrieved from
https://www.history.com/news/auschwitz-concentration-camp-numbers
One Day In Auschwitz Kitty-Hart Maxons story of survival
https://www.youtube.com/watch?v=mZYgzW٢fS٠o

McGuinness, D. (٢٠١٩, January ٣٠). Holocaust: How a US TV

series changed Germany. Retrieved from
https://www.bbc.com/news/world-europe٤٧٠٤٢٢٤٤-

Americans see Muslims as less than human. No wonder Ahmed was arrested. Nour Kteily and Emile Bruneau September ,١٨ ٢٠١٥

https://www.washingtonpost.com/posteverything/wp/١٨/٠٩/٢٠١٥/americans-see-muslims-as-less-than-human-no-wonder-ahmed-was-arrested
Bruneau, E. (n.d.). They see us as less than human: Metadehumanization predicts intergroup conflict via reciprocal dehumanization. Retrieved from https://repository.upenn.edu/asc_papers/٥٧٠/
Conversation with Robert Jay Lifton, P. ٤ of ٥. (n.d.). Retrieved from
http://globetrotter.berkeley.edu/people/Lifton/lifton-con٤.html

× كل ما يخص ألويس برونر موجود في الروابط التالية :

Alois Brunner. (٢٠٠٣, September ٢٠). Retrieved from https://en.wikipedia.org/wiki/Alois_Brunner

Chandler, A. (٢٠١٤, December ١). Eichmann's best man lived and died in Syria. Retrieved from https://www.theatlantic.com/international/archive/١٢/٢٠١٤/eichmanns-best-man-lived-and-died-in-syria/٣٨٣٢٩٦/

Most-wanted Nazi war criminal 'dead'. (٢٠١٤, December ١). Retrieved from https://www.bbc.com/news/world-europe٣٠٢٧٥٣٥٨-

Henley, J. (٢٠٠١, March ٢). French court strikes blow against fugitive Nazi. Retrieved from https://www.theguardian.com/world/٢٠٠١/mar/٠٣/warcrimes.germany

Alois Brunner (١٩١٢ - c. ٢٠١٠) Jewish Virtual Library https://www.jewishvirtuallibrary.org/alois-brunner

Central Intelligence Agency: Declassified and released by agency (٢٠٠٦-٢٠٠٢) https://www.cia.gov/library/readingroom/document/٥١٩a٦b٣١٩٩٣٢٩٤٠٩٨d٥١٢٥١٧

Nazi war criminal act disclosure ٢٠٠٠ https://nsarchive٢.gwu.edu//NSAEBB/NSAEBB١٥٠/box١٤_di_file/doc٠٤.pdf

PLAY ▶
REC ●

AM 11:08
JAN 20



عندما عرفت تفاصيل ما حدث،
لم أستطع أن أواصل حياتي كما لو أني لم أعرف.
لم أستطع أن أطوي الصفحة، وأنسى.
حاولت. لكن فشلت.
ألم المعرفة كان مختلفًا. يثقل الروح والجسد معًا.
وشعور العجز كان أكبر من طاقتي على التحمل.
لقد عرفت! فماذا بعد؟ هل تستطيع أن تفعل شيئًا؟
الشيء الوحيد الذي خفف عليَّ هو أن أكتب ما حدث.
هذا كل ما أستطيعه.

أحمد

عن الكاتب



أحمد خيري العمري، ولد في بغداد عام 1970 م، طبيب أسنان وكاتب، له أكثر من 16 كتابا وعشرات المقالات بين الفكر والأدب، عرف بمنحاه التجديدي في الفكر الإسلامي وتأثيره على الشباب ، اختير من مركز أبحاث Global Influence السويسري كواحد من ضمن 100 اسم مؤثر في تشكيل الرأي العام في العالم العربي لعام 2017.



